



ISSN 2710 - 2998

9 العدد التاسع ديسمبر 2022

في هذا العدد:



تصدر عن



ISSN 2710 - 2998

مجلَّة دوريَّة علميَّة محكّمة يصدرها مركز عدن للدراسات والبحوث التاريخية والنشر
بترخيص من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

العدد التاسع ديسمبر 2022م

توجه المراسلات والبحوث المقترحة للنشر، باسم رئيس التحرير على البريد الإلكتروني للمجلة: hsj@ aden. center

أو على عنوان مركز عدن للدراسات التاريخية والنشر، عدن، الشيخ عثمان، شمسان مول، مكتب: 6 إيميل: info@ aden. center

المواد المنشورة في المجلة لا تعبِّر إلَّا عن آراء أصحابها
ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة أو رأي القائمين عليها

المجلة صادرة بقرار ترخيص رقم (1) من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
لعام 2019م وبرقم إيداع وطني: 1109 لعام 2019م

قواعد النشر في المجلة

1 – أن يكون البحث في مجال التاريخ وعلومه، وأن يتسق عنوانه مع محتواه.

2 – أن يكون متسمًا بالأصالة والابتكار، والمنهجية العلمية، وأن يمثِّل إضافة نوعية في مجال المعرفة.

3 – أن يكتب بلغة سليمة خالية من الأخطاء اللغوية والإملائية والطباعية.

4 – أن يكون ملتزمًا بدقة التوثيق، وأن توثق قائمة المصادر والمراجع وترتب ترتيبًا هجائيًا في آخر البحث بطريقة التوثيق المتعارف عليها: اسم المؤلف، اسم الكتاب، رقم الجزء، اسم المحقق أو المترجم، رقم الطبعة، دار النشر، مكان النشر، سنة النشر.

5 – أن تذكر الهوامش في أسفل الصفحات، وأن ترقم في كل صفحة ترقيمًا تسلسليًّا.

6 – ألَّا يكون البحث قد سبق نشره أو قُدِّم للنشر في أي جهة أخرى.

7 – ألَّا تقل صفحات البحث الواحد عن 15 صفحة، وألَّا تزيد عن 30 صفحة، بما فيها الجداول والرسوم الخرائط والصور، إن وجدت.

8 – أن يستخدم الباحث الخط الأسود Simplified Arabic بحجم 14 Normal، وبحجم 16 Bold في العناوين الداخلية.

9 – أن يقوم الباحث بإجراء التعديلات المنصوص عليها في تقارير المحكمين والأخذ بها، مع تعليل ما لم يتم الأخذ به.

10 – قرار هيئة التحرير بشأن البحوث المقدمة للنشر نهائي، وتحتفظ الهيئة بحقها في عدم إبداء مبررات قراراتها بعدم النشر.

11 – لا يعاد البحث إلى صاحبه سواء نشر أم لم ينشر.

مرفقات النشر

عند تقديم البحث للنشر يشترط الآتي:

1 – أن يقدِّم الباحث طلبًا كتابيًا بنشر بحثه إلى رئيس تحرير المجلة. وأن يتعهد فيه بأن بحثه لم يسبق نشره، ولم يقدم للنشر في دورية أخرى، وأنه ليس فصلًا أو جزءًا من كتاب أو رسالة علمية.

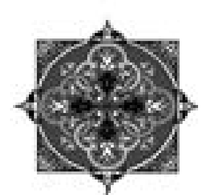
2 – أن يقدِّم الباحث ملخصًا لسيرته العلمية، وأهم إنتاجه العلمي.

3 – أن يقدِّم الباحث نسختين ورقيتين من بحثه، ونسخة إلكترونية.

4 – أن يرفق مع البحث ملخصًا باللغة العربية، وآخر باللغة الإنجليزية، بحيث لا تزيد كلمات الملخصين عن 300 كلمة.

5 – أن يقدم الباحث نسخة كاملة من أداة جمع البيانات (الاستبانة أو غيرها)، في حال استخدامها في البحث، إلا إذا وردت في صلب البحث أو في ملاحقه.

محتويات العدد



دور اليمن القديم في حركة التبادل التجاري البحري مع الهند

د. عوض عبدالرب الشعبي[1]

الملخص:

يتتبع هذا البحث الصلات التجارية بين اليمن القديم والهند في فترة التاريخ القديم، إذ ساهمت منتجاتهم الطبيعية والنادرة بدور مهم في تطور العلاقات التجارية بينهم التي خلدتها المصادر النقشية والكلاسيكية، كما لا يمكن إغفال دور الموانئ والمرافئ البحرية في تلك العلاقات، لهذا سوف يوضح البحث أهم الموانئ البحرية لكل من اليمن القديم والهند ومعرفة المسالك والطرق البحرية التي اتبعها الطرفان فوق صفيحة مياه المحيط الهندي، كما سيتناول هذا البحث أهم السلع التجارية التي احتكرها اليمنيون القدماء التي كانت ركيزة هذا التبادل التجاري بين الجانبين، كما يسهم هذا البحث في توضيح أثر الصلات التجارية بين اليمن القديم والهند سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا.

Abstract:

This study traces the ancient Yemen - India commercial relations during the period of ancient history, their rare natural products has significantly contributed in

---

(1) أستاذ التاريخ القديم المساعد/ جامعة لحج/ كلية التربية يافع.

developing commercial relations among them immortalized by the inscriptive and classical sources. This study cannot ignore the role of sea ports and marine facilities in those relations, thus, the study shows the most important sea ports of both ancient Yemen and India, and knowledge of these routes and the sea lines followed by both parties over the Indian Ocean water plate. The study also points out the most important commercial goods monopolized by ancient Yemenis, which was considered as the base of the commercial exchange between the two sides. The study also contributes in clarifying the impact of Yemen - India commercial links politically, socially and culturally.

المقدمة:

منذ القدم أقام عرب جنوب شبه الجزيرة العربية "اليمنيون القدماء" في أرضهم حضارة عظيمة، تنوعت تلك الحضارة بوفرة منتجاتها الطبيعية والنادرة، ذلك بسبب موقعهم الجغرافي المتميز ومناخهم الذي كان مناسب لنمو العديد من النباتات الطبيعية المهمة في التاريخ القديم، انطلاقًا من ذلك فإن أهمية الموقع الجغرافي المتميز لليمن مع توفر تلك المحاصيل النباتية المطلوبة والمرغوبة عالميًا آنذاك، قد جعلها أرضًا خصبة للتواصل الحضاري مع مراكز الحضارات العالمية القديمة بما فيها الهند، وغدا التبادل التجاري بين اليمن القديم والهند أهم سمة هذا التواصل الحضاري، كان لتميز المحيط الهندي بامتداده الواسع وبتعدد البلدان والشعوب القاطنة على مراسيه، أن هيأ له أن يلعب دورًا مهمًا في التواصل الحضاري والثقافي المعرفي بين شواطئه.

وسيكون البحث موزعًا على مقدمة وأربعة محاور وخاتمة وملاحق وقائمة المصادر والمراجع:

المحور الأول: المحيط الهندي مسرح للصلات التجارية بين اليمن القديم والهند.

المحور الثاني: أهم الموانئ والطرق البحرية التي تربط اليمن القديم بموانئ الساحل الهندي.

المحور الثالث: أهم السلع التجارية المتبادلة بين اليمن القديم والهند.

المحور الرابع: التأثيرات التجارية وأثرها على اليمن والهند سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا.

المحور الأول: المحيط الهندي مسـرح للصـلات التجارية بين اليمن القديم والهند.

لا يمكن لأية حضارة إنسانية أن تنمو وتتطور مالم تتفاعل وتتواصل وتنسجم مع الحضارات المعاصرة لها، إذ إن اليمن القديم لم يكن بمعزل عمّا يدور حوله من حضارات، فقد تأثر وأثر بحضارات العالم القديم، وهذه الظاهرة حتمية فرضتها الظروف الطبيعية، التي كان أهمها موقع اليمن الاستراتيجي والحيوي الهام، ولهذا اكتسبت الطرق التجارية البرية والبحرية التي ربطت اليمن القديم بمراكز حضارات العالم القديم أهمية تجارية وحضارية، لاسيما ذلك التواصل الذي لم يقتصر على حجم ونقل السلع وقيمتها التجارية فقط، يل بما يتمخض عن ذلك التواصل من تبادل معرفي وتلقيح حضاري وثقافي[1].

ولهذا فقد ارتبطت اليمن القديم بعلاقات تجارية موغلة في القدم مع الهند، فليس هناك تاريخ متفق عليه لبدء هذه الصلات التجارية بين الموانئ اليمنية

(1) الجرو، أسمهان سعيد: دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم، دار الكتاب الحديث، القاهرة – مصر، 2003م، ص 80.

القديمة والموانئ الهندية، إلا أنه من المحتمل أنها بدأت في الوقت الذي بدأت فيه العلاقات التجارية مع بلاد الرافدين وسكان السند[1].

إذ كانت الملاحة البحرية بين اليمن القديم والهند تتم في بداية امرها بالإبحار قرب السواحل، واستمرت المساحلة فترة من الزمن إلى أن تمكن اليمنيون القدماء في فترة زمنية ما غير معروفة تحديدًا من اكتشاف حركة الرياح الموسمية في المحيط الهندي[2]، واستغلوا هذا الحدث وظلوا هم المسيطرين والمحتكرين تجارة الهند طوال ذلك الزمن، إذ قال المؤرخ الكلاسيكي (آجاثارخيديس): أن العرب السبئيين كانوا ملاحين مهرة ومحاربين أشداء، يبحرون في سفن كبيرة للبلاد التي كانت تنتج العطور وكانت لهم فيها مستعمرات يستوردون منها نوعا من العطر لا يوجد في جهة أخرى[3].

وقد أجمع المؤرخون على أن ملاحي اليمن القديم قد اصفوا بالمهارة والطموح والجرأة، فالملاحة لم تكن تعني بالنسبة لهم تحركا على محاذاة الساحل فقط، بل كانت تذهب إلى أبعد من ذلك، فالملاحة دفعتهم على أن يتوسعوا عبر سواحل المحيط الهندي، إذ استطاعوا أن يشقوا لأنفسهم مسالك وطرق بحرية اكتشفوها دون غيرهم، مما زادت من قدرتهم على احتكار تجارة

(1) باقر، طه: علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب، مجلس سومر، مج5، العراق – بغداد، 1949، ص 124.

(2) أبو الغيث، عبدالله عبده إسماعيل: النشاط التجاري بين اليمن القديم وصلاته بالهند، مجلة جامعة صنعاء للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد السابع، ص05

(3) ملاعبة، نهاية عبدالرحمن: دور ممالك جنوب شبه الجزيرة العربية في التجارة الدولية بين (القرن الأول ق. م – القرن الثالث م)، رسالة ماجستير غير منشور، الجامعة الأردنية – كلية الدراسات العليا، العام الجامعي 1995م، ص 108.

مياه المحيط الهندي(الهند وسيلان)، إذ كانوا يبحرون في المحيط بناء على خطط مرسومة قد أعدت مسبقًا[1].

وبما أن لكل ظاهرة تاريخية أسباب ودوافع، فيبدو أن دافع اليمنيين إلى احتكار تجارة المحيط الهندي وقيادة مسرح الملاحة البحرية عدة أسباب يمكن أن نلخصها كالتالي:

- تلك المياه التي تحيط باليمن من الجنوب مياه بحر العرب، ومن الغرب مياه البحر الأحمر.
- طبيعة اليمن القاسية دفعت أبناءها إلى ركوب مياه المحيط الهندي منذ وقت مبكر.
- مهارة وطموح وجرأة ملاحي اليمن القديم في فنون الملاحة البحرية.
- براعة اليمنيين في بناء السفن التي تلائم رحلاتهم الطويلة في مياه المحيط الهندي.
- اكتشافهم سر الرياح الموسمية، وشق مسالك وطرق احتكروها دون غيرهم.
- تفوقهم في الشؤون التجارية وتفردهم عن الغير.
- استقرار أوضاعهم السياسية في معظم الأوقات.

كل هذه الأسباب مجتمعة دفعت اليمنيون القدماء إلى ركوب مياه المحيط الهندي والوصول إلى الهند، إذ لم يغفل المؤرخون الكلاسيكيون دور عرب الجنوب في الملاحة البحرية[2]، وخاصة في نقل السلع الهندية على سفنهم الشراعية بمساعدة الرياح الموسمية التي عرفوا اسرارها دون غيرهم[3].

ومما لاشك فيه أن اليمن القديم قد اشتهر ببناء القوارب الصغيرة والسفن التي كانت تمخر عباب البحريين الأحمر وبحر العرب ومن ثم المحيط الهندي،

(1) حوراني، جورج فضلوا: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، تر: يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو - مصرية، القاهرة، د. ت، ص 59 - 60.
(2) ملاعبة، نهاية عبدالرحمن: المرجع السابق، ص 118.
(3) الجرو، أسمهان سعيد: المرجع السابق، ص 81.

إذ كانت هذه المراكب الصغيرة والطوافات المصنوعة من الجلد من وسائل نقل منتجات اليمن القديم كاللبان والمر والصبر[1].

وقد جاء ذكر البحر والسفن في عدة نقوش مسندية منها نقش "CIH 407"، كما يلي:] [illegible] [. وتعني "حتى أركبهم البحر ولكنه بعدهم وقتلهم في وسط البحر[2]"، وكذا هناك ذكر لسفن خلدتها النقوش منها نقش (ارياني 13\13)، الذي جاء فيه:]. . . \ [illegible] [. . . وتعني "ودمروا عددا من السفن"[3]. كما خلدت النقوش والمصادر الكلاسيكية موانئ اليمن القديم، وهذا دليل على الأهمية الكبيرة التي شكلتها تلك الموانئ في علاقتها التجارية مع مراكز الحضارات الإنسانية القديمة بما فيها الهند، وقد ذكر اسم الميناء في النقوش المسندية باسم(حيق - ح ي ق)[4].

لقد عرفت بلاد عرب الجنوب (اليمن القديم) بأنها بلاد البخور، وبالرغم من ذلك فلم يعد البخور مصدر ثروتها الرئيسي فقط، فإلى جانب محاصيلها العطرية التي كانت ترسلها إلى العالم الخارجي، فقد كانت مركزا تمر به التجارة القادمة من الهند، إذ أسهمت تجارة البخور بدور مهمًا في رسم العلاقات التجارية بين

(1) زيادة، نقولا: دليل البحر الاريتري وتجارة الجزيرة العربية البحرية، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، مج2، أشراف: عبدالرحمن الطيب الانصاري، مطابع جامعة الملك سعود، 1984م، ص 266.

(2) الارياني، مطهر علي: في تاريخ اليمن نقوش مسندية وتعليقات، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط2، صنعاء، 1990م، ص 74.

(3) بيستون (ف. ل) وآخرون: المعجم السبئي، منشورات جامعة صنعاء، بيروت - لبنان، 1982م، ص

(4) الارياني، مطهر علي: المرجع السابق، ص 114.

اليمن القديم والهند خلال الفترة من القرن العاشر حتى نهاية القرن الأول ق. م، إذ كانت سلعة البخور بأنواعها المختلفة من أهم السلع التجارية التي استوردها التجار اليمنيون من الهند، ويأتي في مقدمتها "القسط الهندي" إذ يبدو أن إنتاج اليمن لم يكفِ لسد احتياجات السوق العالمية آنذاك(1).

وقد كانت الرحلات الموسمية في المحيط الهندي تستغل الرياح الجنوبية الغربية في فصل الصيف للذهاب إلى الهند، والرياح الشمالية الشرقية في فصل الشتاء للعودة منها، وهذا لا يعني بأن الرحلات بين البلدين قد اقتصرت على رحلتي الصيف والشتاء فقط، بل إنها كانت ممكنة طوال العام(2)، إذ كانت الرحلات تقطع بمحاذاة الساحل مستفيدة من تلك المحطات المنتشرة على طول سواحل المحيط الهندي التي شكلت محطات لرسو السفن والإقلاع منها بعد التزود بكل ما يحتاجونه من مؤن.

ومما لاشك فيه أن ملاحي اليمن القديم قد لعبوا دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب بحكم موقعهم الجغرافي المتميز على خطوط الملاحة الدولية القديمة، ومهارتهم التجارية، ومعرفتهم بفنون الملاحة البحرية(3)، إذ كانوا يجمعون سلع الهند الوفيرة من توابل وبهارات وغيرها ويضيفون إليها ما تنتجه بلادهم من سلع نقدية من بخور(اللبان - المر - الصبر) وعطور وغيرها، ثم

(1) Miller J. , The Spice Trade of the Roman Empire 29 B. C to 641 A. D, OxFord .1969, pp. 33 – 36

(2) أبو الغيث، عبدالله: المرجع السابق، ص5.

(3) أسامة، محمود: تجارة البخور في جنوب شبه الجزيرة العربية في الفترة من القرن العاشر حتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الزقازيق – المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم، العام 2013م، ص 134.

يتكلفون بنقلها وتوزيعها إلى شعوب العالم القديم عبر شبكة من الطرق البرية والبحرية تمتد من الساحل الغربي أو الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية[1].

ويبدو أن ملاحي اليمن القديم قد احتكروا وانفردوا دون غيرهم في تجارة الهند، بل وصل الأمر بعدم إشراك غيرهم في الملاحة والتجارة في غرب المحيط الهندي[2]، إذ كانت منتجات الهند تنقل بواسطة السفن العربية، ومن المرجَّح أن الهنود قد فضلوا تركيز جهودهم الملاحية في القسم الشرقي من المحيط الهندي، نحو بلدان الشرق الأقصى ذهابا وإيابا تاركين للملاحين العرب هذا التشريف ليحملوا عناء ومخاطر التجارة العالمية عن الهنود الذين جاءتهم بضائع العالم إلى بلادهم، كما حملت منتجاتهم إلى جميع أسواق العالم القديم دون ركوب مياه المحيط ومكابدة تلك المخاطر[3].

ومن المرجَّح أنه سبب عدم مزاحمة الملاحين اليمنيين القدماء في تجارة المحيط الهندي بما كانوا يحصلون من ورائهم من أرباح طائلة[4]، بالإضافة إلى ثراء الهند وغنائها بالمنتجات والموارد الطبيعية مما جعل الهنود عازفين عن المخاطرة بركوب مياه المحيط تجاه البلاد الأقل ثراء وتنوعا عنهم[5]، ولعل السيادة العربية في القسم الغربي من المحيط الهندي هي التي أكسبته فيما بعد تسميه بحر العرب، التي يعرف بها حتى يومنا هذا[6].

(1) زيدان، جرجي: العرب قبل الإسلام، ج1، ط2، القاهرة – مصر، 1922م، ص 160.

(2) Magbul Ahmed: Commercial Relation of India With th Arab Werld 1000B.C. up to modern times, Vol. 38, 1964, PP. 151.

(3))عثمان، شوقي عبدالقوي: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية(661 – 1498م)، عالم المعرفة، الكويت، يوليو 1990م، ص68.

(4) أبو الغيث، عبدالله عبده إسماعيل: المرجع السابق، ص6.

(5) عثمان، شوقي عبدالقوي: المرجع السابق، ص68.

(6) أبو الغيث، عبدالله: المرجع السابق، ص6.

وقد أجمع المؤرخون الكلاسيكيون أن ملاحي اليمن القديم كانوا أول من احتكر تجارة المحيط الهندي "الهند"، إذ أشار المؤرخ (آجاثار خيديس) في العام 130ق. م عندما تحدث وبدهشة عن تلك الروائح العطرة التي كانت تنبعث على امتداد سواحلهم "يقصد السبئيين" وأهل جرهم حيث قال: وكانوا وكلاء كل شيء يقع تحت اسم النقل من أسيا وأروبا، وهم الذين جعلوا سوريا بالذهب وأتاحوا للتجار الفينيقيين تجارة رابحة(1). كما أشار المؤرخ الروماني (بليني) أن العرب قد استقروا في سيلان منذ القرن الأول الميلادي، وأنهم كانوا يعرفون جزر التوابل، وكانت هناك تجارة ناشطة بالفلفل والذهب والفضة والقصدير، وكانت قائمة بين سيلان والعرب آنذاك(2).

أما صاحب كتاب الطواف حول البحر الارتيري، فقد أشار إلى أن العرب الجنوبيين كانوا كثيرا في الساحل (ماليبار) في الهند، كما أنهم كانوا في سيلان مما جعلهم أسياد الساحل الهندي فتواجدهم هناك جعلهم المحتكرين الأساسيين للتجارة الشرقية (الهندية والصينية)(3). وهكذا فقد امتدح الكثير من المؤرخين اليونان والرومان عظمة ومهارة ملاحي اليمن القديم، إذ اصبحوا أعظم وسطاء للتجارة، فكانوا يسيطرون على الطرق التجارية العالمية، والتي تربط جنوب شبه الجزيرة العربية بالعالم القديم(4).

(1) حوراني، جورج فضلوا: المرجع السابق، ص ص 59 – 60.
(2) سحاب، فيكتور: ايلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، 1992م، ص ص 266 – 269.
(3) The, Periplus: of erythrean sea, Translatew From the Greek and Annoyed by wilf, schoff Nwew york. London, Bombay, and Calcutta. 1912, p. 32.
(4) سالم، السيد عبدالعزيز: تاريخ العرب قبل الإسلام، الثقافة الجامعية الإسكندرية، 1973م، ص ص 28 – 29.

ولـم يقتصـر الأمـر على هـذا فحسـب بـل أقـام اليمنيـون القدمـاء وغيرهـم مـن العـرب قواعـد تجاريـة على سـواحل الهنـد أتاحـت لهـم احتكـار تجـارة الذهـب وأخشـاب الزينـة[1]. ممـا جعل من موانئهـم بمثابة مخازن ومستودعات للمنتجات المسـتوردة مـن الهنـد بمـا فيهـا جزيرة سـقطرى تلك الجزيـرة التي لعبـت دورًا مهمًا في تعزيـز ذلك التواصل التجاري لتوسـطها بيـن طرق تجارة المحيط الهندي(تجارة العبور)، إذ اكتسـبت شـهرتها وأهميتها كأحد المراكز الهامة لإنتاج السـلع المقدسـة وتصديرهـا إلـى العالـم القديم[2].

المحور الثاني: أهم الموانئ والطرق البحرية التي تربط اليمن القديم بموانئ الساحل الهندي.

لقـد حتـم الموقـع الجغـرافي لليمـن القديـم أن تملـك شـريط سـاحلي طويـل اسـتطاع مـن خلالـه المـلاح اليمنـي القديـم ركـوب البحـر واسـتثمار مـوارده، فهـذه المكانـة التجاريـة التـي تميـزت بهـا اليمـن القديـم، قـد منحهـا شـهرة عالميـة ذائعـة، إذ انعكـس ذلـك الاهتمـام بوضـوح في كتـب المؤرخين الكلاسـيكيين التي تضمنت مؤلفاتهـم روايـات عديـدة عـن دور عـرب جنـوب شـبه الجزيـرة العربيـة (اليمـن القديـم) في اسـتخدام الطـرق التجاريـة البحريـة والوصـول إلـى الموانـئ العالميـة البعيـدة بمـا فيهـا موانـئ الهنـد[3]. (انظـر الشـكل رقـم1).

أولا – الموانئ الهندية:

1 – **ميناء باريجـازا:** (Baragaza): يعـد هـذا الميـنـاء مـن أهـم الموانـئ الهندية

(1) موسكاتي، سبتينوا: تاريخ الحضارات السامية القديمة، تر: السيد يعقوب بكر، مر: محمد القصاص، دار الرقي، بيروت – لبنان، 1986، ص197.

(2) Miller J. , The Spice Trade of the Roman Empire 29 B. C to 641 A. D, OxFord 1969, pp. 33 – 36.

(3) حوراني، جورج فضلوا: المرجع السابق، ص 33.

الواقعة على الساحل الجنوبي الغربي للهند في حوض نهر نربدا (Narbada) في مناطق (اربل)[1]، إذ يعد هذا الميناء مركزًا تجاريًا تقصده سفن العالم القديم، وكانت أهم صادراتها الفولاذ والقطن، كما كان العرب يصدرون إليه الخمور والتمور[2]. وكانت تنطلق من ميناء موزا وعدن رحلات تجارية منتظمة من السفن العربية قاصدة ميناء باريجازا، وكان الهنود يبعثون من هذا الميناء بسلعهم ومنها السكر إلى موانئ المحيط الهندي العربية والافريقية[3]

2 – **ميناء باربريكم**: (Barbaricam): يقع هذا الميناء على حوض نهر السند وهو من الموانئ الهندية المهمة الواقعة على الساحل الشرقي من الهند كونه ميناءًا وسوقًا ومركزًا تجتمع فيه المنتجات الهندية المختلفة، وكان هذا الميناء ملتقى للعديد من السفن الهندية والعربية، ومنه يمكن الحصول على معظم سلع الهند والمناطق المجاورة لها[4]، كما كانت سفن ملاحي اليمن القديم تصدر إليه منتجات بلادهم من اللبان والمر[5].

3 – **ميناء موزريس**: (Mouziris): يقع هذا الميناء على ساحل الماليبار في جنوب غربي شبه جزيرة الهند، وهو من الموانئ التجارية الشهيرة في السواحل

(1) حوراني، جورج فضلوا: المرجع نفسة، ص 92.

(2) يحي، لطفي عبدالوهاب: العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة، بيروت – لبنان، 1978، ص 301.

(3) بافقيه، محمد عبدالقادر: تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، 1973، ص 149.

(4) علي، جواد: تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد – العراق، 1960م، ص 95.

(5) النعيم، نور عبدالله، الوضع الاقتصادي في جزيرة العرب قبل الإسلام، دار الشواف، الرياض، 1992م، ص 262.

الهندية[1]، كما ورد ذكر هذا الميناء عند المؤرخ اليوناني بليني أثناء حديثه عن طرق التجارة البحرية، وذكر أن المسافة بينه وبين ميناء أوكليس، نحو: 40 يومًا[2]. يعد هذا الميناء من أهم الموانئ الرئيسة التي تصدر الفلفل إلى شعوب العالم القديم، وكان العرب يقصدونه طوال عدة قرون للحصول على سلعة الفلفل وعلى الخشب التي تبنى منه سفنهم[3].

4 – **ميناء باتيلا:** (Patula): يعد هذا الميناء من أهم الموانئ الهندية الواقعة إلى الساحل الجنوبي من شبه الجزيرة الهندية، وقد ذكر المؤرخ آجاثار خيديس بأن التجار العرب يتعاملون معه منذ القرن الثالث قبل الميلاد[4].

ثانيا – موانئ اليمن القديم التي ارتبطت بموانئ الهند:

إن وقوع اليمن القديم على بحر العرب جنوبا الذي يعدُ امتدادا على طول شواطئها الجنوبية، قد جعله شعبه من شعب المحيط الهندي وامتدادا طبيعيا له[5]، إذ يعد بحر العرب شريان الملاحة بين الشرق والغرب منذ القدم، وكان لمواصفاته الحسنة، وصلاحيته للملاحة، واستقراره السياسي في معظم الأوقات، قد هيأ له أن يؤدي دورًا مهمًا في التواصل التجاري بين الشعوب المطلة على سواحله[6].

(1) حوراني، جورج فضلوا: المرجع السابق، ص76.

(2) Pliny, (Gaius): Natural History, Trans BY, H. Rackham, Trans BY Eichholz, Loeb Classical Library, Xii, 1971. P. 419.

(3) شهاب، حسن صالح: أضواء على تاريخ اليمن البحري، المركز اليمني للأبحاث، دار العودة، صنعاء – اليمن، 1981م، ص196.

(4) أبو الغيث، عبدالله: المرجع السابق، ص 9.

(5) علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ط2، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، 1993م، ص140.

(6) أبو العلا، محمود طه: جغرافية شبة الجزيرة العربية، مؤسسة سجل العرب، القاهرة – مصر، 1972م، ص37.

لقد اتجهت أنظار عرب الجنوب (اليمنيون القدماء) إلى إرسال تجارتهم عبر البحر، فانتعشت التجارة لديهم[1]، إذ استفادوا من موقعهم المهم المطل على مياه المحيط الهندي الذي بدوره لعب دورًا مهمًا في تجارة البخور، واتصالهم بشعوب الهند وسيلان، تلك الشعوب المنتجة للسلع المرغوبة في تجارة العالم القديم[2]. وبهذا فقد أدرك اليمنيون القدماء أهمية موقع بلدهم البحري والتجاري، وأثره في نموها الاقتصادي، مما دفعهم إلى إقامة شبكة من الطرق التجارية البحرية التي تربط اليمن القديم بالهند.

أولًا: طريق الرحلة إلى الهند (موانئ البحر العربي عدن – قناء):

1 – طريق يبدأ من عدن في أقصى الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية والذي يعتبر من أهم الطرق الرئيسة التي تربط الهند باليمن[3]، ومنها يتابع السير بمحاذاة السواحل الجنوبية حتى ميناء قنا الميناء الرئيس لمملكة حضرموت، إذ كانت السفن التجارية تتوقف أحيانًا بميناء رأس فرتك للتزود بالمؤن، ثم تواصل إبحارها إلى الشحر على ساحل حضرموت ومنها إلى ميناء موسكا (سمهرم – خور وري) الذي يقع في خليج القمر، يعد هذا الميناء آخر موانئ الساحل الجنوبي لجنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن القديم)، ثم تتجه السفن بمحاذي ساحل خليج عمان (مضيق هرمز)، ومنه تتجه السفن إلى السواحل الهندية[4].

(1) البكري، صلاح عبدالقادر: تاريخ حضرموت السياسي، ج1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة – مصر، 1936م، ص 44.

(2) عبدالله، السيد محمد السعيد: النشاط التجاري للشعوب شبه الجزيرة العربية بالفترة الممتدة من بداية الالف الأول ق. م حتى منصف القرن السادس الميلادي، بنها – ليبيا، 2008م، ص 34.

(3) الحمد، جواد مطر: التجارة في اليمن القديم، مجلة الكوت للعلوم الاقتصادية والإدارية، كلية الإدارة والاقتصاد – جامعة واسط، العدد1، 2009م، ص 17.

(4) الحمد، جواد مطر: المرجع نفسة، ص 17.

2 – طريق بحري يبدأ من ميناء مملكة حضرموت الرئيس (قنا)، ويمر بعدد من موانئ جنوب شبه الجزيرة العربية، ثم صحار وعمان حتى ساحل ماليبار وإلى سيلان (سيرلانكا)(1).

3 – طريق بحري ينطلق من ميناء قنا عبر مياه المحيط الهندي إلى ميناء موزريس، والذي يعد من أهم موانئ ساحل المالبيار الواقع في الساحل الغربي الجنوبي من الهند(2).

4 – طريق بحري ينطلق من ميناء عدن الواقع عند مدخل باب المندب إلى ميناء موزريس الواقع في جنوب الساحل الغربي من الهند، وأصبح هذا الطريق في عهد البطالمة عندما اكتشفوا سر الرياح الموسمية في المحيط الهندي هو المتبع في انتقالهم من الغرب إلى الشرق(3).

ثانيًا: الطريق المتبع عند العودة من الهند (سمهرم – سقطرى):

1 – طريق ملاحي مباشر متبع من موانئ الهند إلى ميناء موشكا (سمهرم) ظفار، إذ كانت السفن تبحر متأخرة من الهند، فتقضي فصل الشتاء في هذا الميناء التجاري(4).

2 – طريق يتجه من موانئ الساحل الجنوبي الغربي من الهند متجهًا نحو عباب المحيط الهندي حتى جزيرة سقطرى، وقد ذكر صاحب كتاب الطوف أن هذا الطريق كان مستخدمًا ومتبعًا في القرن الأول الميلادي(5).

---

(1) زياد، نقولاة: تطور الطرق البحرية بين البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، السنة الأول، ع4، أكتوبر 1975م، ص 91.

(2) Pliny, Natural History, BK6, P. 419.

(3) Pliny, (Gaius): Natural History, BK6, P. 419.

(4) بافقيه، محمد عبدالقادر: المرجع السابق، ص 192.

(5) The Periplus of The Erytrean Sea, p. 40.

إن هذه المكانة التجارية التي حظي بها اليمن القديم قد جعلها محل أنظار وأطماع القوى الاستعمارية الكبرى في العالم القديم بما فيها اليونان والرومان والفرس، إذ كانت تجارة البخور مع اليمن القديم أحد الأسباب الهامة التي حركت أطماع البطالمة للتخلص من وساطة تجار عرب جنوب شبة الجزيرة العربية، الذين احتكروا لأنفسهم تجارة البخور الذي تنتجه أراضيهم، فضلًا عن سيطرتهم على تجارة التوابل والبهارات والطيوب القادمة من الهند والشرق الأقصى(1).

ولاشك أن سيطرة اليمن القديم على تجارة المحيط الهندي واحتكارها هي أحد الدوافع وراء إرسال الرومان حملتهم الشهيرة على جنوب شبه الجزيرة العربية عام 24ق. م بقياده (اليوس جاللوس) بغرض انتزاع التجارة الهندية من أيدي عرب جنوب شبه الجزيرة العربية، ولكنها بآت محاولته بالفشل وهلك معظم جيش الرومان في صحراء اليمن القديم(2).

ورغم إخفاقات البطالمة بكسر احتكار تجارة اليمن القديم، إلا أنهم لم يوقفوا تطلعاتهم عند هذا الحد بل حاولوا مرارًا حتى تمكنوا أخيرا من الوصول إلى الهند وكسر الاحتكار اليمني لتجارة البخور العالمية، إذ أشارت المصادر الكلاسيكية بأن البحار الإغريقي (يودوكسوس)، قد تمكن من الوصول إلى الهند في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، انطلاقًا من مصر البطلمية بمساعده بحار هندي كانت قد ألقت به الرياح والأمواج على الساحل الغربي للبحر الأحمر(3).

(1) العبادي، أحمد: اليمن في المصادر القديمة اليونانية والرومانية 485ق. م – 100م، صنعاء، 2004م، ص 51.

(2) يوسف، السيد محمد: علاقات العرب التجارية بالهند منذ اقدم العصور إلى القرن الرابع الهجري، ج1، مج15، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك فؤاد الأول، 1953، ص

(3) أبو الغيث، عبدالله: المرجع السابق، ص 6.

ويبدو أن التدشين الحقيقي لهذه الرحلات بشكل منتظم وفعال لم يتم إلا بعد أن اهتدى البحار اليوناني (هيبالوس) في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلادي إلى معرفه اتجاه الرياح الموسمية في المحيط الهندي(1). وكان اكتشاف سر الرياح الموسمية إلى الهند قد أدى إلى تحول تجارة الطريق الدولي الذي يربط المحيط الهندي بالبحر المتوسط، من طريق البخور البري على البحر الأحمر، الأمر الذي أدى إلى تدهور طريق التجارة الداخلية في الجزيرة العربية بر لصالح المناطق الساحلية(2).

ورغم هذا الاكتشاف الملاحي العالمي من قبل الرومان، إلا أن هذا الاكتشاف لم يؤثر كثيرًا على الموانئ اليمنية القديمة، إذ ظل القسم الأعظم من التجارة الهندية مرتبطا ارتبطًا وثيقا بتجارة عرب جنوب شبه الجزيرة العربيةً ويعود السبب في ذلك إلى التالي: سيطرتهم المباشرة على البحر العربي وباب المندب والمدخل الجنوبي للبحر الأحمر، كذلك صعوبة الملاحة التي واجهت السفن الرومانية في رحلاتها التجارية في البحر الأحمر وخليج عدن الذي عرُف عنه بكثرة الشعاب المرجانية وكثرة التيارات الهوائية، والعواصف التي تهاجم السفن، والصخور الوعرة، وكثرة تعرجات ساحله(3).

كل هذه الأسباب مجتمعة وقفت عائقًا امام استمرار التجارة الرومانية البحرية مع الهند طويلًا، إذ سرعان ما انكمش هذا النشاط الملاحي وعادت تجارة المحيط الهندي كما كانت في السابق إلى الارتباط الوثيق بموانئ السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية (اليمن القديم).

(1) شرف الدين، أحمد: اليمن عبر التاريخ من القرن 14 ق. م إلى القرن 20م، ط2، مطابع السنة المحمدية، القاهرة - مصر، 1964م، ص ص 136 - 137.
(2) أبو الغيث، عبدالله: المرجع السابق، ص ص 6 - 7.
(3) يحي، لطفي عبدالوهاب: المرجع السابق، ص 203.



المحور الثالث: أهم السلع التجارية المتبادلة بين اليمن القديم والهند:

ارتبط اليمن القديم بعلاقات تجارية واسعة مع الهند، ولتبيان مدى حركة النشاط التجاري بينهما ينبغي أن نعرض أهم السلع التي دخلت في نطاق التبادل التجاري التي منحت اليمن شهرتها العالمية الواسعة وكذا كانت السبب الرئيس وراء اهتمام دول العالم القديم بها، وقد انعكس ذلك الاهتمام بوضوح فيما كتبه المؤرخون الكلاسيكيون من تدوين تلك السلع التجارية المتبادلة بين اليمن والهند(1).

اولًا: السلع الهندية:

1 – المواد العطرية:

اللبان "القسط الهندي": يعد اللبان "القسط الهندي" الذي ورد ذكره في المعجم السبئي عود – طيب(2)، من إحدى السلع التجارية التي كانت اليمن تستوردها من الهند(3)، ويستخدم في البخور والدواء(4)، إذ كان ميناء عدن يستقبل سلع الهند وبالذات اللبان "القسط الهندي"، ومن عدن يتم تصديره إلى شعوب العالم القديم(5).

---

(1) الشعبي، عوض عبدالرب: التجارة الخارجية لليمن القديم من القرن الأول الميلادي إلى القرن الرابع الميلادي (دراسة تاريخية اقتصادية)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عدن – كلية الآداب، العام الجامعي 2016م، ص 43.

(2) بيستون، وآخرون، المعجم السبئي، منشورات جامعة صنعاء، بيروت – لبنان 1982م، ص 108.

(3) النعيم، نورة عبدالله: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي، دار الشواف، الرياض، 1992م، ص 265.

(4) علي، جواد: المفصل، ج7، ص 237.

(5) الشعبي، عوض عبدالرب: ميناء عدن ودوره في التجارة المحلية والدولية القديمة، مجلة آداب الحديدة، العدد الثاني عشر(ابريل – يونيو2022م)، كلية الآداب – جامعة الحديدة، ص 21.

يبدو أن اليمنيين القدماء قد جلبوا منتج اللبان من الهند رغم أتناجهم له، لكي يظلوا هم المتحكمين والمحتكرين لهذه السلعة النقدية، والمرغوبة عند شعوب العالم القديم، وعدم وقوعها في أيدي تلك الشعوب التي ركبت البحر، وكانت تحلم الوصول إلى أرض إنتاج البخور والطيوب، لأن أجود أنواع اللبان ينتج في اليمن القديم وخاصة في أراضي مملكة حضرموت حيث توجد غابات أشجار اللبان.

العود: كان تجار اليمن القديم يستوردون هذه السلعة من موانئ الهند، والعود عبارة عن أخشاب ذي رائحة عطرية لها فوائد متعددة منها: أنه كان يحرق كبخور طيب الهوى والرائحة، كما يستخدم كمستحضر طبي، ويدخل في صناعة العطور[1].

المسك: يعد المسك من السلع المقدسة عند شعوب العالم القديم، إذ يعد من أشهر السلع التي تاجر بها اليمنيون القدماء، وكان المسك يؤتى من الهند، وأدخله العرب في تركيب أنواع من العطور والطيوب[2].

الكافور: يعد الكافور نوع من أنواع الطيب، إذ كان يتم أخلاط من الطيب مع الكافور؛ لينتج عطر طيب الرائحة، إذ إن ملاحي اليمن القديم قد تاجروا به مع موانئ الهند، والذي يعد من منتجات الهند[3].

خشب الصندل: وهو من الأخشاب ذات الرائحة الزكية، ويحصل على الصندل بأن تقطع الشجرة وتجفف، وأجود أصناف الصندل الذي يؤخذ من

(1) اوليري، دي لاين: جزيرة العرب قبل البعثة، منشورات وزارة الثقافة، الأردن – عمان، 1990م، ص 89.

(2) شهاب، حسن صالح: أضواء على تاريخ اليمن البحري، ط2، دار العودة، بيروت – لبنان، 1981، ص 170.

(3) الزيدي، مرتض الحسيني: تاج العروس، مطبعة حكومة الكويت، 1965م، ص 527.

لحاء الأشجار المعمرة، حيث يكون اللحاء رقيقًا والرائحة مخزونة بأكملها فيه، ويعد خشب الصندل من صادرات الموانئ الهندية والشرق الأقصى إلى موانئ اليمن القديم[1].

2 - التوابل "البهارات":

الفلفل: يعد الفلفل من أهم السلع الرئيسة الداخلة في تجارة الهند، إذ يدخل الهند في تتبيل الأغذية والمشروبات وصناعة الأدوية، وتشبه شجيرات الفلفل دوالي العنب وتغرس بجوار أشجار معمرة، وإذا نضج تسقط عناقيده على وجه الماء حيث يجمع عند أذن[2]، وقد اشتهرت بلاد المالبيار وكذلك ساحل التاميل بإنتاج الفلفل، كان العرب يطلقون على مناطق إنتاجه (بلاد الفلفل)، إذ كان مينى موزريس وباتيلا أبرز الموانئ الهندية المصدرة لسلعة الفلفل[3]، كان الرومان يستوردونه بكثرة عن طريق شرائه من تجار اليمن القديم الذين احتكروا سلع الهند، إذ كانت السفن الرومانية تأتي إلى عدن وهناك يتم التبادل التجاري، وتعود سفن الرومان محملة بالسلع التجارية الهندية التي احتكرها اليمنيون بما فيها سلعة الفلفل[4].

القرفة: تعد القرفة من أهم السلع التي تنمو في الهند وسيلان وكانت تسمى (الدار صيني)[5]، وتشبه شجرة القرفة شجرة الصفصاف، إلا أنها تفوقها ارتفاعا، ولحاء الشجرة هو الذي يستعمل في تتبيل اللحوم، والمشروبات، ويدخل في

(1) عثمان، شوقي عبدالقوي: المرجع السابق، ص ص 218 - 219.

(2) عثمان، شوقي عبدالقوي: المرجع نفسة، ص 216.

(3) اوليري، دي لاين: المرجع السابق، ص 89.

(4) Crone, patricia: Mecceon trade and th Rise of Islamg Oxford, Basil Blockwell 1979, p. 77.

(5) ملاعبة، نهاية عبدالرحمن: المرجع السابق، ص 155.

صناعة العقاقير الطبية[1]. وتعد القرفة من أهم السلع التي استوردها اليمنيون القدماء من الهند عبر ميناء عدن، الذي بدوره يعاد تصديرها عبر (تجارة العبور) إلى الرومان وحوض البحر الأبيض المتوسط[2].

الزنجبيل: يعد الزنجبيل من أهم سلع التوابل الواردة إلى الموانئ اليمنية القديمة، وقد اشتهرت بلاد المالبيار الواقعة على الساحل الغربي من الهند بإنتاج هذا المحصول النقدي، إذ يعد من التوابل التي أثبت الطلب عليها في الأسواق العالمية قديمًا[3]، ويستخدم الزنجبيل، وهو طري في عدة أمور، منها: خلطه مع المشارب كمشروب، وكذا يستخدم في تتبيل الأطعمة، كما يدخل في صناعة العقاقير الطبية[4].

القرنفل: يعد القرنفل من السلع التي جلبها اليمنيون القدماء من الهند وما ورائها[5]، ويعد من التوابل المرغوبة قديمًا، وهو عبارة عن البراعم المقفلة لأزهار شجرة القرنفل، وبعد جمعها تعرض للشمس لتجف، ويستخدم القرنفل؛ لتطييب النكهة وكعقار طبي[6].

3 - المنتجات النباتية:

الأرز: يعد الأرز من أهم السلع الغذائية التي تاجر بها اليمنيون القدماء، إذ ذكر كتاب صاحب الطواف حول البحر الإريتري أن الأرز كان من السلع المستوردة

(1) نعيم، زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، القاهرة - مصر، 1973م، ص 137 - 138.

(2) الشعبي، عوض عبدالرب: ميناء عدن، ص 28.

(3) عثمان، شوقي عبدالقوي: المرجع السابق، ص 217.

(4) Miller, the Spice trade of the Empire, p. 45.

(5) علي، جواد: المرجع السابق، ج7، ص 239.

(6) عثمان، شوقي عبدالقوي: المرجع السابق، ص 217.

من سواحل الهند، ويتم تصدره إلى شرق إفريقيا وعالم البحر الأبيض المتوسط وبالذات إلى اليونان، ويبدو أنه كان مطلوبًا هناك[1].

الزيت: يعتبر الزيت من السلع التجارية الواردة إلى اليمن القديم، كما جاء في المصادر الكلاسيكية ودلت عليها الحفريات الأثرية[2]، إذ كان عرب الجنوب يستوردون هذا المحصول النباتي من موانئ الهند، إذ يذكر صاحب الطواف عند حديثه عن ميناء سمهرم الحضرمي قائلًا: (إن السفن القادمة من الهند إلى ميناء سمهرم، إذا وصلت متأخرة فإنها تشتو هناك، وتتاجر مع موظف الملك، فبعض التجار من معهم من القماش والقمح والزيت مقابل البخور...)[3].

السكر: يعد السكر من السلع التي استوردها اليمنيون القدماء من موانئ السواحل الهندية، وبالذات من ميناء باريجاز[4]، إذ كانت تنطلق من ميناء عدن رحلات منتظمة للسفن العربية إلى ميناء باريجازا، فقد كان الهنود يبعثون من هذا الميناء بسلعهم، ومنها السكر إلى موانئ المحيط الهندي العربية والإفريقية[5].

4 - المنتجات الصناعية:

صناعة الخشب: كانت الأخشاب تمثل سلعة ملحة بالنسبة لعرب جنوب شبه الجزيرة العربية، إذ إن هذه المنطقة فقيرة في الغطاء الغابي، والخشب يمثل لهم سلعة مهمة وضرورية[6]، فمنه كانت تصنع السفن التي مثلت عصب النشاط

(1) the Periplus of the Errthrean, p. 28 – 31.

(2) الشعبي، عوض عبدالرب: التجارة الخارجية لليمن (مرجع سابق)، ص 93.

(3) the Periplus of the Errthrean, p .32.

(4) الشعبي، عوض عبدالرب: ميناء عدن (مرجع سابق)، ص 16.

(5) باقيه، محمد عبدالقادر: المرجع السابق، ص 16.

(6) عثمان، شوقي، عبدالقوي: المرجع السابق، ص 230، علي، جواد: المرجع السابق، ج7، ص 547.

الاقتصادي، وصنع منه الأثاث الفاخرة الثمينة، وكذا الأدوات التي تحتاج إلى خشب من النوع الجيد والصلب المقاوم، مثل: المعابد، والمنازل، والقصور، والابنية المهمة التي كانت تحتاج إلى هذا النوع الجيد من الخشب[1].

وكانت أهم الأخشاب التي يستوردها اليمنيون القدماء من الهند خشب الابنوس والساج والصندل والخشب الأسود، يؤتى بها إلى ميناء مملكة حضرموت سمهرم[2]، وكان جزء من هذه الخشب يستهلك محليًا والجزء الآخر يصدر إلى أسواق شرق البحر الأبيض المتوسط[3].

الأقمشة والمنسوجات المطرزة: رغم إشارة المصادر التاريخية إلى أن اليمنيين القدماء كانوا ذا شهره واسعة في صناعة الملابس وتحبير البرود، وتصدير منسوجاتهم المختلفة إلى خارج بلادهم[4]، إلا إن صاحب كتاب الطواف يشير إلى استيراد الملابس والأقمشة المختلفة التي كانت تدخل البلاد عبر الموانئ اليمنية القديمة الواقعة على المحيط الهندي والبحر الأحمر، كميناء موزاء، وميناء قنا، وميناء سمهرم، وسقطرى، وكانت الأقمشة الهندية هي أهم سلع هذه الموانئ، إذ يذكر صاحب الطواف عند حديثه عن ميناء سمهرم الحضرمي قائلًا: (إن السفن القادمة من الهند إلى ميناء سمهرم، إذا وصلت متأخرة فإنها تشتو

(1) Simkin, C. G. the traditional Trade Of Asia. London University Press, New york, 1968. P. 42.

(2) the Periplus of the Errthrean, p. 28.

(3) الشمري، محمد حمزة جار الله: موانئ شبه جزيرة العرب وأثرها في النشاط التجاري البحري قبل الإسلام، أطروحة دكتورة غير منشورة، جامعة بغداد – كلية التربية ابن رشد، العام الجامعي 2004م، ص 177.

(4) الشعبي، عوض عبدالرب: التجارة الخارجية لليمن القديم(مرجع سابق)، ص 74.

هناك، وتتاجر مع موظف الملك، فبعض التجار من معهم من القماش والقمح والزيت مقابل البخور. . .)[1].

السيوف: على الرغم من شهرة اليمن بصناعة الأسلحة الحديدية كالسيوف، إلا إن اليمن القديم قد استورد خام الحديد والسيوف من الهند، وكان أشهرها السيف المهند نسبة إلى صناعته في الهند[2]، إذ نال السيف الهندي شهرة واسعة عند العرب خلده، وتغنَى به الشعراء مثل طرفة بن العبد في معلقته الذي يقول:

وظلم ذي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند[3]

العاج: يعد العاج من السلع التجارية المهمة الواردة إلى اليمن القديم من الهند، إذ كان يستهلك جزء منه محليًا في الصناعات المختلفة، بينما يعاد تصدير الجزء الآخر إلى خارج شبه الجزيرة العربية وبالذات إلى سوريا ومصر، إذ كانت اليمن هي الممر التجاري التي تمر عبره هذه السلعة من موطنها في الهند إلى شمال شبه الجزيرة العربية وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط[4].

ويعد العاج من السلع الترفيهية، إذ كانت تصنع منه أدوات الزينة والأمشاط، وعلب المجوهرات والأبواق، كما يدخل في صناعة بعض الأثاث وزخرف المنازل ومقابض الخناجر والسيوف[5].

(1) the Periplus of the Errthrean, Sea, p. 32.

(2) الندوي، محمد إسماعيل: تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، 1969م، ص 33.

(3) عثمان، شوقي عبدالقوي: المرجع السابق، ص 69.

(4) النعيم، نورة عبدالله: المرجع السابق، ص

(5) ناشر، هشام عبدالعزيز: التجارة بين شبه الجزيلرة العربية وسوريا في الالف الأول قبل الميلاد، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عدن – كلية الآداب، العام الجامعي 2003م، ص 140.

الخمور"النبيذ": على الرغم من أن اليمن القديم كانت تنتج الخمور بمختلف أنواعه[1]، إلا أنها كانت تستورده من الخارج وبالذات من الهند، ويبدو السبب في ذلك يعود إلى جودته وشهرته، وأيضًا لارتباطه بتجارة العبور (إعادة التصدير) إلى شعوب العالم القديم[2].

الأواني الفخارية: تعد الأواني الفخارية من السلع التجارية الواردة إلى اليمن من مناطق مختلفة من العالم القديم بما فيها الهند[3]، إذ كشفت نتائج التنقيبات الأثرية في ميناء قنا عن كمية كبيرة من القطع الفخارية المستوردة من أماكن مختلفة من العالم القديم، مثل: اليونان، وإيطاليا، وآسيا الصغرى، وشرق إفريقيا، والهند، يعود تاريخها على الفترة من القرن الثاني ق. م – القرن السادس الميلادي[4].

ومما لاشك فيه أن الأواني الفخارية كانت تشكل سلعة أساسية قديمًا لا يمكن الاستغناء عنها في الحياة اليومية، فمنها صُنعت أواني الطعام واوعية الاستخدام اليومي، والمباخر والمزهريات وفيها كانت يعبأ السوائل الزيت والنبيذ والحبوب للتخزين أو للتصدير[5].

(1) عبدالغني، نبيل عبدالوهاب: الحياة الاجتماعية في اليمن القديم، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة عدن – كلية الآداب، العام الجامعي 2014م، 75.
(2) الشعبي، عوض عبدالرب: المرجع السابق، ص 91.
(3) روجيل، اكسل: الحفريات الأثرية في شرمة – حضرموت، مواسم 2001 و 2002م، حوليات يمنية، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، 2003م، ص 47 – 58.
(4) سيدوف، الكسندر: قنا مدينة كبيرة بين الهند والبحر المتوسط في: اليمن في بلاد ملكة سبأ، تر: بدر الدين عردوكي، مراجعة يوسف محمد عبدالله، معهد العالم العربي، باريس، دار الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، 1999م، ص ص 193 – 196.
(5) خليل، سارة: دراسات في الاقتصاد اليوناني القديم في القرنيين الخامس والرابع ق. م، منشورات جامعة دمشق، 1998م، ص 15.

ولـم تقتصـر المنتجـات الهنديـة علـى مـا ذكرنـا سـالفًا، بـل هنـاك سـلع أخـرى عديـدة ساهمت بـدور كبيـر في حركـة التجـارة المتبادلـة بيـن اليمن القديـم والهند، ولعـل مـن أبرزهـا تجـارة الأحجار الكريمـة بمختلـف أنواعهـا والمـاس واللازورد، عـود النـد والذبـل[1]، بالإضافـة إلـى الفـولاذ الهنـدي والنحـاس والقصديـر والقمـح والكحـل المصنـع[2].

ثانيًا: السلع اليمنية المحلية والدولية التي حملها اليمنين القدماء إلى الهند:

البخـور: يعـد البخـور عمـاد تجـارة اليمـن القديـم ومـن أهـم وأثمـن صادراتـه، حيـث كان مطلوبًا ومرغوبًا لـدى شـعوب العالـم القديـم لمـا لـه مـن أهميـة دينيـة ودنيويـة[3]، وممـا لاشـك فيـه أن الهنـد كانـت من ضمن شـعوب العالـم القديم التي اسـتوردت البخـور مـن اليمـن القديـم وخاصة من مملكـة حضرمـوت وتاجـرت بـه.

وقـد ذكـر صاحـب كتـاب الطـواف حـول البحـر الاريـتري عنـد حديثـه عـن ميناء سـمهرم الحضرمـي قائـلًا: (إن السـفن القادمـة مـن الهنـد إلـى ميناء سـمهرم، إذا وصلـت متأخـرة فإنهـا تشـتو هنـاك، وتتاجـر مـع موظـف الملـك، فبعض التجـار من معهـم مـن القمـاش والقمـح والزيـت مقابـل البخـور. . .)[4].

(1) زيادة، نقولا: تطور الطرق البحرية والتجارية بين البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، العدد الرابع، السنة الأول، أكتوبر 1975م، ص 91.

(2) أبو الغيث، عبدالله: المرجع السابق، ص 9.

(3) Muller, W, W: Arabion Frankincense in According to classical sources, stadies in Hist0ry of Arabia, vol, I, Riyadh, 1979, p. 79 – 92.

(4) the Periplus of the Errthrean, Sea, p .32.

الخيول العربية: تعد الخيول العربية من أهم صادرات اليمن القديم (ميناء عدن) إلى الهند[1]، إذ كانت الخيول العربية مرغوبه عند ملوك الهند مما عاد على تجار اليمن القديم بأرباح طائلة؛ لأن الخيول العربية غالية الثمن جدًا في الهند[2].

الزجاج والمصنوعات الزجاجية: يعد الزجاج من أهم السلع والمنتجات الواردة إلى ميناء عدن، إذ كان يتم استيرادها من عدة مناطق من العالم القديم التي ارتبطت بتجارة العبور، فقد ذكر المؤرخ الروماني بليني قائلًا: "إن الأواني الزجاجية كانت من البضائع التي كان التجار اليمنيون يجلبونها من أسواق شرق إفريقيا[3]، ومن عدن يتم تصديرها على الهند ضمن سلع تجارة العبور[4].

الرقيق "الأولاد المغنون والفتيات": تعد تجارة الرقيق من السلع التي تاجر بها اليمنيون قديمًا مع الهند، إذ كانت سفنهم تحمل الأولاد المغنين والفتيات اللاتي كن يعملن بخدمة نساء الملك[5].

ولم تقتصر الصادرات اليمنية إلى الهند على ما ذكرنا سالفًا، بل هناك سلع أخرى ضمن سلع العبور ساهمت بدور كبير في حركة التجارة المتبادلة بين

(1) الموسوي: المرجع السابق، ص 14.

(2) الحمد، جواد مطر: الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديم خلال الالف الأول قبل الميلاد حتى عشية الغزو الحبشي 535م، ط1، دار الثقافة العربية الشارقة، 2002م، ص 449.

(3) Pliny, Natural History, B, 12, P. 88.

(4) Simkin. G. G. the treditfonal trade of Asia, London university preass New york, 1968, p. 39.

(5) النعيمات، سلامة: تجارة اللبان والبخور عبر موانئ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، مجلة المنارة، كلية العالوم الاجتماعية والإنسانية، الجامعة الأردنية، المجلد5، العدد1، 2000م، ص 322.

اليمن القديم والهند، ولعل من أبرزها تجارة الكتان والملابس والذهب واللؤلؤ والتمر والرماح[1].

المحور الرابع: أثر الصلات التجارية بين اليمن القديم والهند "سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا":

لم يكن التبادل بين اليمن القديم والهند قاصرًا على التجارة ونقل السلع فقط، بل تعداها إلى التمثيل السياسي والتأثير الاجتماعي والثقافي، فاتصال اليمنيين بشعوب العالم منذ القدم أدى لتأثرهم بأساليبهم الثقافية والحضارية[2]، وقد كان للهند نصيبٌ من هذا التأثير الحضاري والثقافي على اليمن القديم[3]، من الطبيعي أن تتأثر اليمن بحضارة الهند وهذه ظاهرة حتمية فرضتها الطرق التجارية البحرية، التي ربطت اليمن بالهند قديمًا، لاسيما أن ذلك الاتصال لم يقتصر على حجم البضائع التجارية فقط، بل بما يتمخض عن ذلك الاتصال من تبادل ثقافي ومعرفي[4]، يبدو أن أثر هذه العلاقات التي تمت بين اليمن القديم والهند يمكن تلمس أثرها بشكل واضح في جوانب عديدة منها الجانب السياسي والاجتماعي والثقافي.

الجانب السياسي:

لقد أسهمت تجارة البخور بدور مهم في تعزيز العلاقات التجارية والحضارية بين اليمن القديم والهند[5]، إذ ظل تجار اليمن القديم حتى نهاية القرن الثاني ق. م

(1) أبو الغيث، عبدالله: المرجع السابق، ص 9.

(2) علي، جواد: المرجع السابق، ج8، ص 42.

(3) بيرين، جاكلين: السفن في منطقة الجزيرة العربية قبل الإسلام، مجلة دراسات يمنية، ع 23 – 24، مركز البحوث والدراسات اليمني، صنعاء، يناير – فبراير – يونيو 1986م، ص 40.

(4) الشعبي، عوض عبدالرب: ميناء عدن المرجع السابق، ص 30.

(5) MillerJ, the Spice Trade of the Roman Empire 29 B. C to 641 A. D, Oxford 1969, pp. 33 – 36.

إلى جانب التجار الهنود سادة المحيط الهندي، وحافظوا على سيادتهم البحرية ومنعوا سفن الغرب القادمة عبر البحر الأحمر من تجاوز ميناء عدن شرقًا، كما منعوا السفن الهندية من تجاوزها نحو الغرب، ليحافظوا على وضعهم التجاري واستقرارهم وسيادتهم واحتكارهم التجاري على صفيحة مياه المحيط الهندي(1).

ويبدو أن علاقة اليمن القديم وخاصة مملكة حضرموت بالهند لم تقف عند هذا الحد بل تطورت بشكل كبير، إذ أشارت نقوش العقلة التي تعود إلى مطلع القرن الثالث الميلادي إلى حضور وفد رفيع من الهند، قد يكونون ممثلين دبلوماسيين وهما "دهرة" و"بندرة" إلى العقلة لحضور مراسيم تتويج وتنصيب ملك مملكة حضرموت "إيل عز يلط"(2)، مما لاشك فيه أن هذا الحدث التاريخي الدبلوماسي يعبر عن أهمية مملكة حضرموت للتجارة الهندية خلال تلك الفترة الزمنية التي استغلت فيها ظروف الحرب الدائرة بين سبأ وحمير؛ لتعزز من مكانتها التجارية مع الهند(3).

نص نقش العقلة الذي يعود إلى مطلع القرن الثالث الميلادي والذي يوضح سفرًا من الهند إلى مملكة حضرموت(4). (انظر الشكل رقم 2).

1 – نقوش العقلة والمرقمة تحت رقم: 931

2 – النقش: جام شبوة

3 – مصدر النقش: العقلة محافظة شبوة 931

4 – تاريخ النقش: القرن الثالث الميلاد.

(1) Elisabeth, C, and Casper, D, West World contact with Historical India, PSAS, Vol. 9, London 1979, p. 12.

(2) Ja, 931, p 44.

(3) أبو الغيث، عبدالله: المرجع السابق، ص 20.

(4) Ja 931, p 44.

النقش بالخط المسند:

𐩭𐩺𐩧𐩺𐩽 𐩥𐩲𐩹𐩣𐩽 𐩩𐩹𐩣𐩧𐩣𐩽

𐩺𐩠𐩬𐩽 𐩹𐩣𐩩𐩧𐩬𐩽 𐩥𐩰𐩡𐩤𐩩𐩽

𐩫𐩪𐩵𐩺𐩺𐩬𐩽 𐩵𐩠𐩧𐩵𐩠𐩽 𐩥𐩨

𐩬𐩵𐩧𐩠𐩽 𐩠𐩬𐩵𐩺𐩠𐩬𐩽 𐩪𐩥

𐩣𐩧𐩱𐩪𐩣𐩽 𐩱𐩡𐩲𐩹𐩽 𐩡𐩷𐩽 𐩣

𐩡𐩫𐩽 𐩢𐩳𐩧𐩣𐩩[1].

النقش بالخط العربي:

خ ي ر ي | و ع ذ م | ت ذ م ر م |

ي ه ن | ذ م ت ر ن | و ف ل ق ت |

ك س د ي ي ن | د ه ر د ه | و ب

ن د ر ه | ه ن د ي ه ن | س و

م ر ا س م | ا ل ع ذ | ل ط | م

ل ك | ح ض ر م ت.

تحليل النقش:

يشير النقش جام 931 إلى وجود اسمي شخصين كانا يمثلان وفدا من الهند هما (دهرده – وبندره) وذكر النقش أنهما رافقا (إيل عز يلط)ملك حضرموت أثناء مراسم تتويجه، ويبدو أن حضورهما كان بشكل رسمي ممثل عن ملك الهند.

(1) Jamme, W. F. : Sabaean and Hasaean Unscriptions from Saudi Arabaia University, Roma 1963, p 44.

ونستدل من خلال نص نقش العقلة أن مملكة حضرموت كغيرها من ممالك اليمن القديم قد ارتبطت بصلات وعلاقات تجارية مع الهند، كان لها جميل الأثر بين الشعبين، إذ أخذت طابعًا وديًا خلال القرن الثالث الميلادي، فكانت الهند تشتهر بسلعها ومنتوجاتها منها التوابل والمنكهات بالإضافة إلى السلع المصنعة التي تحتاج إليها شعوب العالم القديم، ولعل موقع مملكة حضرموت وموانئها الساحلية قد جعل منها قبلة؛ لاستلام المنتجات الهندية وتوزيعها على شعوب العالم القديم بواسطة التجار الحضارمة، أو غيرهم من تجار ممالك اليمن القديم الذين احتكروا سلع الهند لا نفسهم دون غيرهم.

الجانب الاجتماعي:

وفيما يخص التأثير الاجتماعي بين اليمن القديم والهند، نجدها تتجلى بوضوح نتيجة ذلك النشاط التجاري الواسع والمتواصل لعدة قرون من الزمن الذي ترك أثره بوضوح في جوانب مختلفة لاسيما في مجال العادات والتقاليد الاجتماعية[1]، فقد كان مكوث السفن في الموانئ ايامًا واشهرًا بسبب سوى الأحوال الجوية له عظيم الأثر على سكان هذه الموانئ[2].

ويبدو أن هذه السفن التي ترسوا في الموانئ اليمنية والهندية قديمًا لمدة فصل كامل بسبب الأحوال الجوية كما أسلفنا سابقا، وقد أقيمت لهما من النزل وأماكن إيواء الملاحين والتجار، ولربما كان البعض من التجار له زوجات وأطفال في هذه الموانئ وهذا كان من الأثر الإيجابي الذي تركه الجانبان في علاقتهما، مما ساهم في تقارب الشعبين اجتماعيًا وحضاريًا واطلاعهما على بعضهما البعض خلال قرون عديدة من التواصل التجاري والحضاري.

(1) اغناطيوس، كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، بلا ت، ص 40.

(2) الشعبي: عوض عبدالرب عبدالمولى: المرجع السابق، ص 30 – 31.

كذلك أيضا فقد كان أثر هذه الصلات التجارية على اليمن القديم أن استقر مجموعة من الهنود في جزيرة سقطرى تلك الجزيرة التي تقع على خط الملاحة الدولية في المحيط الهندي، وقد أظهرت البعثة السوفيتية اليمنية المشتركة وجود صلة قوية بين اللغة السقطرية وبين اللغات الهندية القديمة[1]، كما ذكر أن الهنود أول من غزا جزيرة سقطرى واستقروا بها زمنًا طويلًا وبنوا لهم فيها صنمًا عظيمًا[2]، يبدو أن أثر هذه الصلات قد تجلت بوضوح بين الجانبين، إذ أخذت بعض الالفاظ الهندية طريقها إلى اللغة العربية على لسان الملاحين، كذلك التشابه في المصطلحات الملاحية الواحدة[3]، وأسلوب صناعة السفن في المحيط دليل على تأثر هذا التوحد الثقافي بين شعوب المحيط الهندي، كما أن هذا التوحد شديد الوضوح في المصطلحات الملاحية وفي أسماء السفن[4].

الجانب الثقافي والفني:

كان للنشاط التجاري البحري بين اليمن والهند دور في وصول بعض التأثيرات الهندية على الثقافة والفنون التشكيلية اليمنية القديمة، إذ كانت التجارة والموانئ والأسواق من أهم العوامل المساعدة على نقل الأفكار والآراء والاحتكاك والتمازج والتفاعل الثقافي والحضاري بين البلدين[5].

(1) جامعة عدن: جزيرة سقطرى (مشروع البحوث الميدانية تقرير البعثة العلمية السوفيتية اليمنية)، قسم الجغرافيا والاحياء، كلية التربية، ص 5.
(2) جامعة عدن: المرجع نفسة، ص 9.
(3) عثمان، شوقي: المرجع السابق، ص 8.
(4) عثمان، شوقي المرجع نفسة، ص 118.
(5) نعمان، محمد عبدالحميد: المشربيات والشبابيك البارزة في العمارة اليمنية، مجلة الثقافة الشعبية، فصلية - علمية - محكمة، ع50، سنة 13، الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر بالتعاون مع المنظمة الدولية للفن الشعبي البحرين، 2020م، ص 195.

وعندما كانت التجارة من أهم العوامل الرئيسية في نشر المظاهر الثقافية والفنية بين البلدين، كان من مظاهر هذا التأثير الحصول على تمثال من البرونز عثر عليه في ميناء سمهرم "خور روري" ميناء مملكة حضرموت، أطلق عليه اصطلاحًا (تمثال الراقصة الهندية)، إذ تم العثور عليه من قبل البعثة الأمريكية لدراسة الإنسان في (ظفار) عمان حاليًا، ويعود تاريخه إلى القرن الثاني الميلادي[1]، يمثل هذا التمثال سيدة في وضع جسماني راقص يظهر فيه بوضوح الأسلوب الفني الهندي[2]. مما لاشك فيه أن هذا التمثال "تمثال الراقصة الهندية" يعد نموذج لهذا التأثير الثقافي والفني بين البلدين، والذي قد يكون نقل عبر صفيحة مياه المحيط الهندي إلى اليمن، وربما قد يكون من ضمن السلع المستوردة من الهند إلى الموانئ اليمنية القديمة.

ومن ضمن التأثيرات الهندية على اليمن القديم، عثور البعثة الفرنسية في جزيرة سقطرى عام 2002م، على العديد من المخربشات الهندية مدونة بالخط البراهمي والخط السنسكريتي[3]، فهذا يدل على عمق العلاقات التجارية بين الهند ومملكة حضرموت بالذات، إذ تعد جزيرة سقطرى جزءا من أملاكها والتي كان لها دورًا كبيرًا في تجارة البخور والعبور. (انظر الشكل رقم2).

ويظهر أثر هذه التأثيرات بوضوح أكثر في جوانب متعددة، إذ توجد لوحة مستطيلة ذات نقش جداري، نسب إلى نقوش قتبان في مراحلها الأخيرة، وهو

(1) صالح، عبدالعزيز: المرأة في النصوص والآثار العربية القديمة، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، دار الكتب الوطنية، ط1، ع14، 1985م، ص ص 104 - 105.
(2) صالح، عبدالعزيز: المرجع نفسة، ص 105.
(3) عربش، منير: معطيات جديدة حول تاريخ مملكة حضرموت القديمة (القرن السابع ق. م - القرن الثالث الميلادي)، حوليات يمنية، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، 2003م، ص 13.

نصب قبوري قتباني نقل هذا إلى متحف (بومباي) بالهند، ويمثل هذا النصب شكل فتاة ممتلئ الوجه تسدل ضفيرتها على جانبي رأسها، ترتدي الفتاة ثوبًا مزركشًا بزخارف فنية بديعة، ونقش تحتها بالخط المسند، ويبدو أن اللوحة في تشكيلها الفني اقرب لفتاة هندية منها إلى فتاة يمنية، وهذا يرجح أن الفنان اليمني القديم قد وقع تحت التأثير والتقليد للفنان الهندي[1].

ويبدو أن التأثير الهندي اليمني قديمًا لم يقف عند هذا الحد بل تعدى أكثر مما ذكر في مختلف الجوانب، إذ وقع الفنان اليمني القديم تحت تأثير الفن الهندي، فجعله يقدح من مناهل الحضارة الهندية أثناء تواصله التجاري والحضاري.

الخاتمة:

ارتبطت اليمن القديم بعلاقات تجارية موغلة في القدم مع الهند، فكان أن أسهمت سلعهم المطلوبة والمرغوبة عالميًا بدور مهم في تطور الصلات التجارية بينهم، فقد خلدت المصادر النقشية والكلاسيكية تلك العلاقات المشتركة، إذ حتَّم الموقع الجغرافي لليمن القديم أن تملك شريط ساحلي طويل استطاع من خلاله الملاح اليمني ركوب البحر واستثمار موارده، واستخدام الطرق التجارية البحرية، والوصول إلى الموانئ العالمية البعيدة بما فيها موانئ الهند.

مما جعل اليمنيون القدماء يستأثرون بنصيب كبير من حركة التجارة الهندية ويتحكمون بسلعها واحتكارها دون غيرهم، فلم تقتصر تجارتهم على تصدير منتجاتهم المقدسة فقط، بل أضافوا إليها ما كانت سفنهم تجلب من سلع أو ما يصل إليهم من البضائع المستوردة، وعملوا على إعادة تصديرها إلى العالم الخارجي.

(1) صالح، عبدالعزيز: المرجع السابق، ص 104.

ولـم يكـن التواصـل بيـن اليمـن القديـم والهند قاصـرًا على التجارة ونقل السـلع فقـط، بـل تعداها إلى التمثيل السياسي والتأثير الاجتماعي والثقافي، فاتصال اليمن بشـعوب العالـم القديـم أدى لتأثرهـم بأسـاليبهم وعادتهـم وتقاليدهـم الاجتماعيـة والثقافيـة، وكان للهنـد نصيـب مـن هـذا التأثيـر الحضـاري والثقـافي المعـرفي على حضـارة اليمـن القديم.

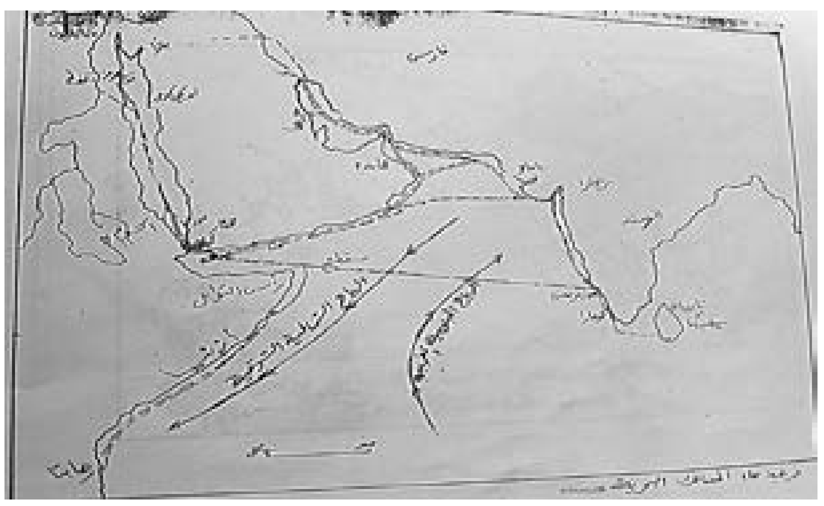
الاختصارات:

CIH: Corpus Inscriptionum Semiticarum.

Ja: Inscriptons edited by A. Jamme.

Ir: Inscriptions published by al - Iryani. M.

الملاحق:



خريطة توضح المسالك البحرية بين اليمن القديم والهند[1]



نقوش هندية مدونة بخط البراهما، والخط السنسكريتي،
كهف حوق - جزيرة سقطرى[2]

(1) الجرو، اسمهان سعيد: المرجع السابق، ص 346.

(2) العامري، معمر محمد عبدالواحد: المرجع السابق، ص 200.

قائمة المصادر والمراجع:

- الإرياني، مطهر علي: في تاريخ اليمن نقوش مسندية وتعليقات، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط2، صنعاء، 1990م.
- أسامة، محمود: تجارة البخور في جنوب شبه الجزيرة العربية في الفترة من القرن العاشر حتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الزقازيق – المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم، العام 2013م.
- أغناطيوس، كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، بلا ت.
- أوليري، دي لاين: جزيرة العرب قبل البعثة، منشورات وزارة الثقافة، الأردن – عمان، 1990م.
- باقر، طه: علاقات بلاد الرافدين بجزيرة العرب، مجلس سومر، مج5، العراق – بغداد، 1949.
- البكري، صلاح عبدالقادر: تاريخ حضرموت السياسي، ج1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة – مصر، 1936م.
- بيرن، جاكلين: السفن في منطقة الجزيرة العربية قبل الإسلام، مجلة دراسات يمنية، ع23 – 24، مركز البحوث والدراسات اليمني، صنعاء، يناير – فبراير – يونيو 1986م.
- بيستون، (ف. ل) وآخرون: المعجم السبئي، منشورات جامعة صنعاء، بيروت – لبنان، 1982م.
- جامعة عدن: جزيرة سقطرى (مشروع البحوث الميدانية تقرير البعثة العلمية السوفيتية اليمنية)، قسم الجغرافيا والاحياء، كلية التربية.
- الجرو، إسمهان سعيد: دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم، دار الكتاب الحديث، القاهرة – مصر، 2003م.
- الحمد، جواد مطر: الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديم خلال الألف الأول قبل الميلاد حتى عشية الغزو الحبشي 535ميلادي، ط1، دار الثقافة العربية الشارقة، 2002م. .

- الحمد، جواد مطر: التجارة في اليمن القديم، مجلة الكون للعلوم الاقتصادية والإدارية، كلية الإدارة والاقتصاد - جامعة واسط، العدد1، 2009م.
- حوراني، جورج فضلوا: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، تر: يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو - مصرية، القاهرة، د. ت.
- خليل، سارة: دراسات في الاقتصاد اليوناني القديم في القرنيين الخامس والرابع ق. م، منشورات جامعة دمشق، 1998م.
- روجيل، اكسل: الحفريات الأثرية في شرمة - حضرموت، مواسم 2001 و 2002م، حوليات يمنية، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، 2003م.
- زيادة، نقولا: دليل البحر الاريتري وتجارة الجزيرة العربية البحرية، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، مج2، أشراف: عبدالرحمن الطيب الانصاري، مطابع جامعة الملك سعود، 1984م.
- زيادة، نقولاة: تطور الطرق البحرية بين البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، السنة الأول، ع4، أكتوبر 1975م.
- زيدان، جرجي: العرب قبل الإسلام، ج1، ط2، القاهرة - مصر، 1922م.
- الزيدي، مرتض الحسيني: تاج العروس، مطبعة حكومة الكويت، 1965م.
- سالم، السيد عبدالعزيز: تاريخ العرب قبل الإسلام، الثقافة الجامعية الإسكندرية، 1973م.
- سحاب، فيكتور: ايلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، 1992م.
- سيدوف، الكسندر: قنا مدينة كبيرة بين الهند والبحر المتوسط في: اليمن في بلاد ملكة سبأ، تر: بدر الدين عردوكي، مراجعة يوسف محمد عبدالله، معهد العالم العربي، باريس، دار الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، 1999م.
- شرف الدين، أحمد: اليمن عبر التاريخ من القرن 14 ق. م إلى القرن 20م، ط2، مطابع السنة المحمدية، القاهرة - مصر، 1964م.

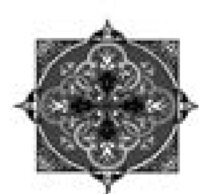
- الشعبي، عوض عبدالرب: التجارة الخارجية لليمن القديم من القرن الأول الميلادي إلى القرن الرابع الميلادي (دراسة تاريخية اقتصادية)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عدن – كلية الآداب، العام الجامعي 2016م.
- الشعبي، عوض عبدالرب: ميناء عدن ودوره في التجارة المحلية والدولية القديمة، مجلة آداب الحديدة، كلية الآداب – جامعة الحديدة، العدد الثاني عشر(ابريل – يونيو2022م).
- الشمري، محمد حمزة جار الله: موانئ شبه جزيرة العرب وأثرها في النشاط التجاري البحري قبل الإسلام، أطروحة دكتورة غير منشورة، جامعة بغداد – كلية التربية ابن رشد، العام الجامعي 2004م.
- شهاب، حسن صالح: أضواء على تاريخ اليمن البحري، المركز اليمني للأبحاث، دار العودة، صنعاء – اليمن، 1981م.
- صالح، عبدالعزيز: المرأة في النصوص والآثار العربية القديمة، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، دار الكتب الوطنية، ط1، ع14، 1985م.
- العبادي، أحمد: اليمن في المصادر القديمة اليونانية والرومانية 485ق. م – 100م، صنعاء، 2004م.
- عبدالغني، نبيل عبدالوهاب: الحياة الاجتماعية في اليمن القديم، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة عدن – كلية الآداب، العام الجامعي 2014م.
- عبدالله، السيد محمد السعيد: النشاط التجاري للشعوب شبه الجزيرة العربية بالفترة الممتدة من بداية الألف الأول ق. م حتى منصف القرن السادس الميلادي، بنها – ليبيا، 2008م.
- عثمان، شوقي عبدالقوي: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية(661 – 1498م)، عالم المعرفة، الكويت، يوليو 1990م.
- عربش، منير: معطيات جديدة حول تاريخ مملكة حضرموت القديمة (القرن السابع ق. م – القرن الثالث الميلادي)، حوليات يمنية، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، 2003م.

- أبو العلاء، محمود طه: جغرافية شبة الجزيرة العربية، مؤسسة سجل العرب، القاهرة - مصر، 1972م.
- علي، جواد: تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد - العراق، 1960م.
- علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ط2، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، 1993م.
- أبو الغيث، عبدالله: النشاط التجاري بين اليمن القديم وصلاته بالهند، مجلة جامعة صنعاء للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد السابع، 2020م.
- محمد عبدالقادر: تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، 1973.
- ملاعبة، نهاية عبدالرحمن: دور ممالك جنوب شبه الجزيرة العربية في التجارة الدولية بين (القرن الأول ق. م - القرن الثالث م)، رسالة ماجستير غير منشور، الجامعة الأردنية - كلية الدراسات العليا، العام الجامعي 1995.
- موسكاتي، سبتينوا: تاريخ الحضارات السامية القديمة، تر: السيد يعقوب بكر، مر: محمد القصاص، دار الرقي، بيروت - لبنان، 1986.
- ناشر، هشام عبدالعزيز: التجارة بين شبه الجزيلرة العربية وسوريا في الالف الأول قبل الميلاد، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عدن - كلية الآداب، العام الجامعي 2003م.
- الندوي، محمد إسماع: تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، 1969م.
- نعمان، محمد عبدالحميد: المشربيات والشبابيك البارزة في العمارة اليمنية، مجلة الثقافة الشعبية، فصلية - علمية - محكمة، ع50، سنة 13، الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر بالتعاون مع المنظمة الدولية للفن الشعبي البحرين، 2020م.
- النعميات، سلامة: تجارة اللبان والبخور عبر موانئ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، مجلة المنارة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجامعة الأردنية، المجلد5، العدد1، 2000م.

- نعيم، زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، القاهرة – مصر، 1973م.
- النعيم، نورة عبدالله: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي، دار الشواف، الرياض، 1992م.
- يحيى، لطفي عبدالوهاب: العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة، بيروت – لبنان، 1978.
- يوسف، السيد محمد: علاقات العرب التجارية بالهند منذ اقدم العصور إلى القرن الرابع الهجري، ج1، مج15، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك فؤاد الأول، 1953.

1. Miller J. : The Spice Trade of the Roman Empire 29 B to 641 A. D, OxFord 1969.
2. C Magbul Ahmed: Commercial Relation of India With th Arab Werld 1000B. C. up to modern times Vol. 38, 1964.
3. The, Periplus: of erythrean sea, Translatew From the Greek and Annoyed by wilf, schoff Nwew york. London, Bombay, and Calcutta. 1912.
4. Pliny, (Gaius): Natural History, Trans BY, H. Rackham, Trans BY Eichholz, Loeb Classical Library, Xii, 1971.
5. Crone, patricia: Mecceon trade and th Rise of Islamg Oxford, Basil Blockwell 1979.
6. Simkin, C. G. the traditional Trade Of Asia. London University Press, New york, 1968.
7. Muller, W, W: Arabion Frankincense in According to classical sources, stadies in Hist0ry of Arabia, vol, I, Riyadh, 1979.
8. Jamme, W. F. : Sabaean and Hasaean Unscriptions from Saudi Arabaia University, Roma 1963, p 44.
9. Elisabeth, C, and Casper, D, West World contact with Historical India, PSAS, Vol. 9, London 1979.





حقوق المساجين في مصر وبلاد الشام في عصر الدولة المملوكية 648 - 923هـ/ 1250 - 1517م

د. إسلام إسماعيل عبد الفتاح أبوزيد[1]

الملخص:

قامت الدولة المملوكية بدور هام وحيوي في الحفاظ على حقوق الإنسان، ولقد تجسد ذلك الدور في مدى التزام الدولة المملوكية في تطبيق المبادئ الإسلامية الخاصة بحقوق الإنسان داخل السجن، والبحث يطرح عده تساؤلات وهي، هل شكل الاهتمام بحقوق الإنسان السمة الغالبة في تلك الحقبة؟ أم أن تلك الحقوق كانت منقوصة؟

ولقد تمثلت حقوق الإنسان في الدولة المملوكية في صور متعددة منها على سبيل المثال: أحوال المساجين من حيث الطعام والشراب والملابس والرعاية الصحية وتواصلهم مع المجتمع الخارجي، وأحوالهم وقت المجاعات، وكيفية قضاء أوقاتهم سواء بالعبادة أم اللعب والتسلية، أم التأليف والكتابة، والشعر، وجهود السلاطين المماليك لتحسين أحوال المساجين، وتحدثت أيضًا عن استخدام إدارة السجون للمساجين في الأعمال الشاقة

(1) دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية كلية الآداب – جامعة الإسكندرية.

والتعذيب في فترات بعض السلاطين والأمراء المماليك لحقوق المساجين.

الكلمات المفتاحية، حقوق، المساجين، الدولة المملوكية.

The rights of prisoners in Egypt and the Levant in the era of the Mamluk state 648 - 923 AH/ 1250 - 1517 AD

The Mamluk state played an important and vital role in preserving human rights, and that role was embodied in the extent of the Mamluk state's commitment to applying Islamic principles of human rights in prison. Was the concern for human rights the dominant feature in that era? Or were those rights deficient?

Human rights in the Mamluk state were represented in several forms, for example: the conditions of prisoners in terms of food, drink, clothing, health care, their communication with the outside community, their conditions in times of famine, and how they spend their time, whether in worship, play and entertainment, or writing and writing, poetry, and the efforts of the sultans The Mamluks to improve the conditions of the prisoners, and she also talked about the prison administration's use of prisoners in hard labor and torture during periods of abuse by some Mamluk sultans and princes of the rights of prisoners.

مقدمة:

ألصق المستشرقون بتاريخنا الكثير من التهم والإفتراءات، فاتهم بالظلم والتعسف مع الإنسان، إلا أننا لو كلفنا أنفسنا جهدًا يسيرًا وقلبنا صفحات

تاريخنا لاكتشفنا واقع حقوق الإنسان، فقد سبق الإسلام كل الشرائع والقوانين بتقريره لحقوق الإنسان من خلال النصوص العديدة التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية، والحق أن الإسلام هو أول من قرر المبادئ الخاصة لحقوق الإنسان في أجمل صورة وأوسع نظام، وقد جاءت الشريعة الإسلامية لتقرر الخير للإنسان، ولتبدد من أمامه الشر والأذى حتى يعيش آمنًا مطمئنًا، ومنها ملامح الفترة قيد البحث في بلاد مصر الشام في عصر الدولة المملوكية (648 – 923هـ/ 1250 – 1517م)، ونتحدث عن المساجين نموذجًا.

وفي هذا السياق تسلط الدراسة الضوء على حقوق الانسان في مصر وبلاد الشام في الدولة المملوكية "المساجين نموذجًا" (648 – 923هـ/ 1250 – 1517م)، وحول أوضاع حقوق الإنسان في تلك الحقبة، ومدى التزام الدولة المملوكية في تطبيق المبادئ الإسلامية الخاصة بحقوق المساجين، أم أن تلك الحقوق كانت منقوصة ويوجد فجوة كبيرة بين المبادئ والتطبيق.

وستوفر الدراسة للمتخصصين في مجال الحياة الإجتماعية في العصر المملوكي والمهتمين به ملمحًا جديدًا من ملامح التواصل الاجتماعي بين الدولة والمساجين في العصر المملوكي في مصر والشام، وستلقي الضوء على أحوال المساجين، وجهود سلاطين الدولة المملوكية في رعاية المساجين وتوفير حقوق الإنسان لهم، ولم أتناول أنواع السجون وتنظيماتها والعقوبات والخروج من السجن لأنها سبق تناولها في دراسة عبد الرؤوف جبر القططي في "السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية 567 – 923هـ/ 1171 – 1517م"، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، فلسطين، 2012م.

وقد حددت الفترة في عصر الدولة المملوكية (648 – 922هـ/ 1250 – 1517م) كمجال زمني للدراسة؛ ورغم مكانة حقوق المساجين في مصر

وبلاد الشام في الدولة المملوكية، فإن الدراسات السابقة المتخصصة قليلة في هذا الجانب، ومن أهم الدراسات السابقة التي استفاد منها الباحث دراسة للباحث محمود أحمد غسان: "موقف الدولة الاسلامية من حقوق السجين (1 – 132هـ/ 622 – 749م)"، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة أسيوط، 2012م؛ إلا أنها لم تتناول حقوق المساجين في عصر المماليك، وتوقفت مع نهاية العصر الأموي، ودراسة للباحث ثروت محمد البيك عن حقوق الإنسان في الخلافة العباسية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، 2015م؛ ولم يتناول الباحث بشكل كافٍ دور السلاطين المماليك في إعطاء المساجين حقوقهم، ومن هنا تأتي أهمية دراستنا.

وارتكزتُ في الدراسة على المنهجين الوصفي والتحليلي الاستقرائي، وقسمتها إلى تمهيد التعريف بحقوق الإنسان في اللغة والاصطلاح لحقوق الإنسان، وثلاثة مباحث؛ فعرضت في المبحث الأول: حقوق المساجين من وقت دخولهم الي خروجهم من السجن، وركزت اهتمامي في المبحث الثاني على جهود سلاطين المماليك في إعطاء المساجين حقوقهم، لإتمام الفائدة، ولما للموضوع من دور كبير في الناحية الإجتماعية في العصر المملوكي، وختمت الدراسة بذكر أهم النتائج التي توصلت إليها.

التمهيد:

قبل البدء في الحديث عن الدوافع الشرعية للمماليك لتطبيق حقوق الإنسان، لابد من تعريف حقوق الإنسان كمصطلح مركب من كلمتين حقوق وإنسان، وللتعريف على هذا المفهوم لا بد للرجوع للمعنى اللغوي والإصطلاحى.

أما في اللغة فالحق ضد الباطل أو نقيضه وجمعًا؛ حقوق وحقاق، والحق صدق الحديث، واليقين بعد الشك[1]، وفى المعجم الوسيط[2] اليقين بلا شك، والحق من أسماء الله تعالى أو من صفاته.

كذلك وردت كلمة الحقوق في السنة النبوية، فكلمة الحقوق وهي جمع حق وردت في أحاديث رسول الله ﷺ إحدى وأربعين مرة، وبصيغة المفرد أكثر من ألف مرة، حيث جاءت بمعانٍ مختلفة ومتعددة[3].

كما قيل أيضًا: "إن الحق أمر عام يطلق على صورة فكرية أو قولية مطابقة لما عليه حال الشيء الذي تحكيه هذه الصورة وجودًا أو عدمًا"[4].

وفي الإصطلاح:

هي مجموعة القواعد والنصوص الشرعية التي تنظّم على سبيل الإلزام علاقات الناس من حيث الأشخاص والأموال[5]، وعرّفه البعض بأنه اختصاص

(1) ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: 711هـ) لسان العرب، الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة – 1414هـ، ج10، 52؛ الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: 666هـ)، مختار الصحاح المحقق: يوسف الشيخ محمد الناشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا الطبعة: الخامسة، 1420هـ/ 1999م، ج1/ 77

(2) إبراهيم والزيات وآخرون، المعجم الوسيط، الناشر: دار الدعوة، ج1/ 188.

(3) البيك، ثروت محمد، حقوق الانسان في الخلافة العباسية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، 2015م، ص5.

(4) الدمشقي، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (ت: 1425هـ) الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، دار القلم، دمشق، 1985م، ج1، ص37.

(5) الزرقا، مصطفى أحمد، المدخل الفقهي العام، ب. م، 1425هـ/ 2004م، ج1، ص5.

يقر به الشرع سلطة على شيء أو اقتضاء أراد من آخر تحقيقًا لمصلحة معينة[1].

وهو جزء من حقوق الله على عباده، وهى حقوق تقابلها واجبات، ومن قصّر في واجب ضاع عليه الحق، والحقوق والواجبات فرائض دينية يثاب فاعلها ويعاقب تاركها[2].

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية، أن الحقوق هي الحقوق الشرعية وما يتصل بها من التزامات في الشريعة الإسلامية، على أن يفرق المرء بين حقوق الله أي الحد، وحقوق الإنسان وهى الحقوق المدنية، أما في المصطلح الحديث والمعاصر فتدل الحقوق على القانون[3].

وحقوق الإنسان في الإسلام تنبع من تكريم الله الإنسان، وتفضيله على جميع المخلوقات وهي مبنية كذلك على أساس اعتقادي وهو أن الإنسان أيًّا كان أصله وجنسه ولونه ونسبه، حتى لو كان مرتكب ذنب ومسجونا.

وقد وجه القرآن الكريم ولاة أمور المسلمين من حكام ومسؤولين في جميع المستويات وألزمهم بضرورة توفير حقوق الإنسان للرعية، بل حمايته حتى للمذنبين من المساجين، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[4].

(1) الجبوري، عبد الجبار عبد الوهاب، حقوق الإنسان بين النصوص والنسيان، دار الفرابي، القاهرة، 2015م، ص61، 60.

(2) وشاح، غسان محمود، حقوق الإنسان في الدولة الإسلامية، دار النهضة العصرية، 2019م، ص6.

(3) هوتسما، أرنولد، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الإمارات، 1418 - 1998، ج13/ 4095.

(4) سورة المائدة: الآية 8.

فإن السجون وسيلة من وسائل معاقبة الجناة وتأديبهم، وكف أذاهم عن المجتمع، وكذلك فهي مكان للحفاظ على الأسرى حتى يفصَل في أمرهم باستبدالهم مقابل تحرير أسرى مسلمين من سجون الأعداء، ولا يخلو الأمر من الظلم في بعض الأحيان، وافتقاد المساجين لحقوقهم ووقوعهم تحت التعذيب والإهانة، لذلك حرصت على تسليط الضوء عليهم كنموذج، دراسة أحوال فئة كانت مهمشة في ذلك العصر ألا وهي فئة المساجين، وكيف كانت أوضاعهم وحالة السجون التي كانوا يقبعون فيها.

ولم يكن حال المساجين متشابهًا بالنسبة لحقوقهم من ناحية الطعام والشراب والعناية الصحية وغيرها من متطلبات الحياة، فنجد أنه في أحيان يشدد على السجين حتى يصل إلى حالة الموت في السجن، وفي حالات أخرى نجده تتوفر له ظروف حياة جيدة داخل السجن، ونضرب مثالًا على ذلك:

في سنة 843هـ/ 1439م اعتقل أحد تجار الإسكندرية ويدعى عبد الباسط في برج الإسكندرية بعد أن قرر عليه السلطان جقمق (842 – 857هـ/ 1438 – 1453م) ثلاثمائة ألف دينار، وحبس في برج مظلم وضيق عليه، فأقام مدة، ثم أمر بإخراجه منه، وتسلمه نائب القلعة، فأنزله في غرفة علِّية، وهي أعلى بناء في القلعة، فأقام فيها أكثر من شهر إلى أن أُفرج عنه[1].

ويمكننا تحديد حقوق المساجين في عدد من الحقوق منها:

(1) ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني (ت: 852هـ)، إنباء الغمر، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: د. حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر عام النشر، 1389هـ، ج4، ص133.

المبحث الأول - حق المساجين في العصر المملوكي:

1 – حق المساجين في الطعام والشراب:

كان السجناء في سجون الدولة المملوكية يحصلون على احتياجاتهم من الطعام إما من أهليهم أو صدقات أهل الخير، ويحضر كل من جاءه شيء من الطعام من أهله في مائدة، وأكل كل من في الحبس[1].

وُعِرفَ كثير من أهل الخير بالصدقة على المساجين ومنهم عبداالله بن مشكور الحلبي ناظر الجيش[2] (ت 778هـ/ 1376م) الذي له مآثر معروفة بحلب، منها أنه أوقف أوقافًا على المحبوسين في حبس أولي الجرائم، ومن أهل الخير الذي أوقفوا الأوقاف لصالح السجناء خطيب قرية جرود الذي أوقف وقفًا ينفق جزء من ريعه كل سنة 100 فضة لسجن باب البريد بدمشق[3].

وكان السجناء يخرجون من السجن إلى الطُّرقات وهم مكبلون بالحديد بحراسة الأعوان حتى يشحذوا، وهم يصرخون من شدة الجوع، ويصف المقريزي[4] حال المساجين وهم يتسولون في الطُّرقات قائلاً: "ويرى المرء أحيانًا في الطريق ثلاثة أو أربعة رجال مقيدين بسلسلة حديدية، وهم لصوص يستجدون الناس الطعام".

(1) الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، 1406 – 1986م، ج7، ص400.

(2) ناظر الجيش: هو الذي يتحدث في أمر الجيوش وضبطها، دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ/ 1990م، ص150.

(3) أبو الشعر، هند: واقع الأوقاف في نيابة دمشق في العهد المملوكي (801هـ– 915هـ/ 1398 – 1509م)، مقدم لمؤتمر تاريخ دمشق، كلية الآداب، جامعة دمشق، مطبوع 2005م، ص4.

(4) أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين (ت: 845هـ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ج3، ص328

وكانت الدولة توزع عليهم في بعض الأحيان طعاما مما يجمع من المصادرات، فعـرف عـن البـدر العيني[1] حينمـا كان محتسـب القاهرة أنـه يعزر مـن يخالف أمره بمـصادرة بـضاعته وإطعامها للفقراء والمحابيس[2].

أما المساجين الذين في سجون القلاع وهم من الأمراء، فقد كان القائمون على سجنهم هم من يقومون بتقديم الطعام لهم، وهو على الغالب الماء والخبز، وكان يعين للمساجين خباز مهمته فقط تجهيز الخبز للمساجين[3].

وأرسل نائب الإسكندرية الأمير بكتوت الخزندار[4] للأمير أيدمر الخطيري[5] في أثناء اعتقاله في سجن الإسكندرية سنة 709هـ/ 1310م إناء كبيرًا جدًا من الماء ورغيفًا ليتقوت به عدة أيام، وذلك خشية أن يقوم السلطان بمنع الطعام

---

(1) العيني، محمد بن محمود بن أحمد بن موسى بدر الدين، كان عالمًا إسلاميًا سنيًا في المذهب الحنفي، العيني هو اختصار للعينتابي، في إشارة إلى مدينته الأصلية، ولِيَ الحِسبةَ والقضاء ونظارة الأحباس، موسي شاهين لاشين، البدر العيني ومنهجه، رسالة دكتوراة، كلية الدراسات الإسلامية، جامعة الأزهر، القاهرة، 1980م

(2) السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان ابن محمد (ت: 902هـ) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ب. ت، ج10، ص132.

(3) إحسان عباس: شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، دار الفكر العربي، دمشق، ب. ت، ج2، ص450.

(4) الخِزندار: لقب للذي يتحدث على خزانة السلطان أو الأمير أو غيرهما، وهو مركب من خزانة، وهي ما يخزن فيه المال، وكلمة دار ومعناها ممسك، والمقصود ممسك الخزانة. دهمان: معجم الألفاظ، ص78.

(5) الأمير عز الدين مملوك شرف الدين أوحد بن الخطيري الأمير مسعود بن خطير، انتقل إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون فرقّاه حتى صار أحد أمراء الألوف، بعدما حبسه بعد مجيئه من الكرك إلى مصر مدّة ثم أطلقه وعظم مقداره إلى أن بقي يجلس رأس الميسرة، ومعه أمرة مائة وعشرين فارسًا. المقريزي، الخطط المقريزية، ج3، ص395.

عنه حتى الموت[1]، وأُجري لأبي الخير النحاس كل يوم رغيف بعدما ضيق عليه في سجنه[2].

وعندما كان الأمير حسام الدين[3] في جب قلعة بعلبك كان ينزل إليه في كل يوم قليل خبز وقليل من الماء، وربما أنزل إليه جرزة بقل، وقد حرم هذا الأمير من الطعام والماء مدة من الزمن، ولكن الذي ساعده هو أنه كان يخزن قليل من الخبز والماء في جرة كانت عنده[4].

ولكن في المقابل حصل بعض المعتقلين على امتيازات في الطعام والشراب في أثناء اعتقالهم، كما حدث في سنة 671هـ/ 1273م حينما اعتقل السلطان الظاهر بيبرس رجلًا يدعى الشيخ خضر[5]، اتهم بممارسة الزنى واللواط وفساد

(1) كان الرطل في ذلك الوقت يزن 140 درهمًا/ 437.5غم. هنتس، فالتر: المكاييل والموازين، (ت: كامل العسيلي، منشورات الجامعة الأردنية، 1970، ص31.

(2) المقريزي، تقي الدين المقفي (ت 835هـ/ 1330م)، ت: محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، 1327هـ/ 2006م، ج2، ص366.

(3) حسام الدين لاجين: مملوك من مماليك السلطان نور الدين علي بن أيبك، اشتراه قلاوون الألفي ولقبه "لاجين الصغير"، ثم اعتقه ورقاه في الخدمة ورفع من درجته، فلما تسلطن ولّاه نيابة دمشق، وزوّجه إحدى بناته، ولما تمرد الأمير سيف الدين سنقر الأشقر على السلطان قلاوون ونصّب نفسه سلطانًا بدمشق قبض قلاوون على لاجين وحبسه مدة، ثم عفا عنه بعد انكسار سنقر الأشقر، المقريزي، السلوك، ج2، ص247.

(4) اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت: 726هـ)، ذيل مرآة الزمان بعناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط2، 1413هـ/ 1992م، ص186.

(5) الشيخ خضر بن أبي بكر المهراني العدوي، هو شيخ الملك الظاهر بيبرس، كان حظيًا عنده مكرمًا لديه، له عنده المكانة الرفيعة، كان السلطان ينزل بنفسه إلى زاويته التي بناها له في الحسينية، في كل أسبوع مرة أو مرتين، وبنى له عندها جامعًا يخطب فيه للجمعة، وكان يعطيه مالًا كثيرًا، ويطلق له ما أراد، حتي حدثت فجوة بينهما دخل السجن بعدها. المقريزي، السلوك، ج2، ص224.

الأخلاق، ووضعه في سجن انفرادي لا يرى فيه أحدًا، وكان يقدم له الأطعمة والأشربة الفاخرة والملابس والفواكه، وذلك أنه كان يخبر السلطان بأمور مستقبلية تحدث له، ولما ثبت عليه الدليل لاعتقاله وأراد السلطان عقابه قال له: "يا بيبرس أنا أعلم أن أجلي قد اقترب وكذلك أجلك، وأن بيني وبينك مدة قصيرة، فأينا مات منا قبل الآخر لحقه صاحبه بعد أيام"[1].

ويظهر أن المساجين كانت تشتهي أنواع الطعام الأخرى، حتى إن مجموعة من المساجين في خزانة الخاص بقلعة القاهرة قامت بزراعة البصل في قصريتين وقاموا برعايتها وسقايتها بالماء وذلك سنة 791هـ/ 1389[2].

2 – حقوق المساجين في الملابس

يظهر أن السجين يبقى في ملابسه التي اعتقل فيها داخل السجن، فنرى في حادثة الإفراج عن الأمير شيخون[3] من سجن الإسكندرية يذكر: "وقلع عنه ثياب السجن وهي ملّوطة"[4].

(1) الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك، الدرة الزكية، ت: سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرين، مكتبة عيسى البابي الحلبي، 1402/ 1982، ص223، ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج1، ص154.

(2) ابن تغري بردي بن عبدالله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت: 874هـ)، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ت: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ج1، ص271.

(3) هو أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون. وكان قد جلبه إلى مصر الخواجا عمر فاشتراه الناصر محمد بن قلاوون، ترقى في البلاط حتى صار أحد أمراء المشورة في أيام السلطان حسن، وعظم شأنه وأصبح زمام السلطة بيده، عينه السلطان نائبًا لطرابلس سنة 1350م. ولكنه لم يلبث أن قبض عليه وسجنه في الإسكندرية. المقريزي، الخطط، ج2، ص 314.

(4) الملوطة رداء واسع الكمين طويلهما يلبس فوق لباس يسمى الفرجية وكانت تصنع أحيانًا من الحرير الخالص أو الكتان الرقيق، وكانت لباسًا قوميًا في عصر المماليك. سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المملوكي في مصر والشام، دار المعارف، القاهرة، ب. ت، ص476.

3 – حقوق المساجين في المعاشرة الزوجية

أما عن اتصال السجين بزوجته فعادة لا يستطيع السجين أن يتصل بأهله ولا يجامع زوجته، فنجد عند خروجهم من سجن الأشرف خليل شكوا احتياجهم إلى النساء[1].

وكان من النادر أن تمكث الزوجة مع زوجها في سجنه، ويكون الأمر حينها أن يحجز الأمير المسجون مع عائلته في برج من الأبراج، وعليه حراسة مشددة، ويمنع من الخروج، أو يدخلون إليه زوجته أو جاريته فيقضي حاجته معها ثم تخرج، ونذكر على سبيل المثال:

عند اعتقال الأمير كراي المنصوري[2] بقلعة الكرك أرسل إليه السلطان الناصر فرج بن قلاوون (801 – 815هـ/ 1399 – 1414م) من يخدمه، وجهز إليه جارية سنة 811هـ/ 1409م، وكذلك اعتُقل الخليفة المستكفي بالله العباسي مع عياله في برج بقلعة القاهرة في زمن السلطان الناصر محمد سنة 736هـ/ 1336م، واعتقل ابن عمه إبراهيم في برج بجواره مع عياله أيضًا[3].

---

(1) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، أعيان العصر، أعيان العصر وأعوان النص، ت: علي أبو زيد وآخرون، 1418 – 1998م، ج5، ص465

(2) هو أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر اليمامي الهاشمي مولى المنصور البصري الأخباري أبو العيناء، الأمير كراي المنصوري نائب القدس، كان أميرًا كريمًا صار كراي يمد في كل يوم سماطًا عظيمًا للمقيمين والواردين عليه، فأنفق في ذلك أموالًا جزيلة من حاصله؛ واجتمع عليه بغزة عالم كثير، وهو يقوم بكلفهم ويعدهم عن السلطان بما يرضيهم، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص363.

(3) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت: 748هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المكتبة التوفيقية، ج47، ص270؛ ابن الوردي زين الدين عمر بن المظفر أبو الفداء اسماعيل بن علي، تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، 1969م، ج2، ص252.

وسمح للملك العزيز يوسف أن ترافقه ثلاث جوارٍ لخدمته في سجن الإسكندرية سنة (843هـ/ 1439م)[1]، وفي أول سنة من حكم السلطان الظاهر قانصوه الأشرفي (904 – 905هـ/ 1498 – 1500م) اعتقل قانصوه الأشرفي وأُرسل إلى الإسكندرية، ووضع في البرج، واستمر محبوسًا 17 سنة، وولد له هناك أولاد[2]، مما يعني أنه كان يسمح لزوجته بالدخول إليه.

4 – حقوق المساجين في الرعاية الصحية

كان حال السجن في غالب الأحيان سيئا من الناحية الصحية، فكان من يسجن في سجن دمشق يقاسي شدائد عظيمة من البق والبراغيث، وكان يشم من يمر بجواره رائحة كريهة، ويسمع صراخ المسجونين وشكواهم الجوع والعري والقمل[3].

وكثيرًا ما كان السجناء يصابون بالأمراض التي يسببها طول المكوث في السجن، مثل حدبة في ظهره انحنى ظهره منها في مدة اعتقاله من سنة 726هـ/ 1325م حتى 734هـ/ 1333م[4].

وأحيانًا كان يُشدد على السجين، ويُهمل إهمالًا متعمدًا انتقامًا منه، فيثقَّل بالحديد في رجليه وبالخشب في يديه حتى الوفاة في الاعتقال سنة 619هـ/ 1222م[5].

(1) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة، مصر، 1383/ 1963م، ج15، ص333

(2) الصدفي، رزق الله منقاريوس، تاريخ دول الإسلام، مطبعة الهلال، 1907 – 1908م، ج3، ص88.

(3) ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الكناني، الدرر الكامنة، لدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد، 1349 ج2، ص26.

(4) الصفدي؛ خليل بن أيبك بن عبد الله، الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث العربي، 2007م، ج7، ص148.

(5) ابن خلكان؛ أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي وفيات الأعيان، ت: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، 1972م، ج1، ص181.

وقدم جاستون فييت[1] أوصافًا عن حال سجون القلعة، فقال أحدهم: يرى الإنسان أحباسًا وسجونًا، وهو في الوقت الحاضر عفن نتن حيث تُساء معاملة المسجونين بالسلاسل والمشدودين بالحديد إلى كتل الخشب، وإذا لم يمنحوا صدقات، فسوف يكون مآلهم الموت جالسين على أرض رطبة وعلى القاذورات التي تتكوم في كل مكان.

وكثيرًا ما كان يتعرض السجين إلى الإهمال الصحي إلى أن يتوفى، فقد أصيب ابن النويري[2] بالإسهال الشديد، وقاء دمًا، في أثناء مدة حبسه في سجن حلب، وبقي ملقىً على باب السجن في أسوأ حال، والناس ينظرون إليه أفواجًا، حتى توفي في سنة (853هـ/ 1449م) من دون أن يعالجه أحد، وأخرج إلى المارستان بعد وفاته ليغسل ويصلى عليه[3].

وحدث مرة أن الأمير جمال الدين آقوش الأشرفي[4] حينما كان محبوسًا

---

(1) القاهرة مدينة الفن والتجارة، سينما وفنون وإعلام; القاهرة، ص236.

(2) هو العلامة محمَّد بن محمَّد بن علي بن محمَّد بن إبراهيم ابن عبد الخالق المحب ابن الفاضل الشمس النويري شهرة العقيلي نسبًا المالكي مذهبًا، اشتهر بكنيته فهو أبو القاسم النويري. اشتغل بادئ حياته في نسخ الكتب القيمة، وكان يكتب النسخة من صحيح البخاري ويبيعها بألف دينار، كما عمل في بلاط السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ونال حظوته، ومارس الكتابة والحسبة، تولى جيش طرابلس مما أسهم في توسيع مداركه وأكسبه ذلك معرفة موسوعية. الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ج1، ص165.

(3) ابن العجمي، أبو ذر سبط أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل، موفق الدين (ت: 884هـ) كنوز الذهب في تاريخ حلب، دار القلم ج2، ص215.

(4) الأمير جمال الدين آقوش النجيبي الصالحي النجمي نائب السلطنة بدمشق، أمره مولاه الصالح وجعله أستاذ داره وكان يعتمد عليه، وُلِدَ في حدود العشرين وستمائة، وجعله الظاهر أستاذ دار أول دولته، ثم ناب له بدمشق تسع سنين، وصرف بعز الدين أيدمر فانتقل إلى القاهرة وأقام بداره بطالًا عالي المكانة وافر الحرمة. الزركلي، الأعلام، ص213.

في سجن الإسكندرية ظهرت في رأسه سِلعة، فطالب بإجراء عملية جراحية له لقطعها، فرسم له السلطان بذلك، فقطعوها، فمات في الاعتقال بالإسكندرية سنة 736هـ/ 1336م، وقيل إن السلطان بدلًا من أن يسمح للمزين بقطع السلعة أرسل مقدم الرماة ليقتله[1].

ولكن من ناحية أخرى اعتنى بعض السلاطين بالسجناء وقدموا لهم العناية الصحية، فقد أوصى السلطان قلاوون (678 - 689هـ/ 1279 - 1290م) عند خروجه للغزاة على المعتقلين في قلعة القاهرة من الأمراء، وأكد على ولي عهده مباشرة القلعة بالليل والنهار، وتوفير ما يترتب لهم من طعام وشراب وتفقد مرضاهم "المتحقق مرضه"، وذلك عن طريق أطباء الخدمة، وأمر بتوفير ما يحتاجون إليه، وقد اتخذ حينها في كل قلعة طبيبا بمال معلوم من بيت كسوة "بل تفاض عليهم من أوانها، المال مهمته تطبيب الأمراء وأهل القلعة عند المرض" ويعتبر السبكي[2] (ت771هـ/ 1369م) أن واجبات السجان الرفق بالمحبوسين وإعطاؤهم حقوقهم الآدمية، ولا يمنع المحبوس من شم الرياحين إن كان مريضًا.

أما عن الحمامات ودورات المياه ومكان البول والبراز في السجن، فقد كانت أبراج القلاع مجهزة بدورات المياه، كما هو الحال في أبراج قلعة القاهرة، ومنها برج كركليان الذي بني في عهد الملك العادل الأيوبي، ومن خلال الوصف الهندسي للبرج يقول الباحث خالد عزب إنه "يوجد ممر ضيق يفتح على الذراع الشمالي من التخطيط المتعامد عند نهايته دورتا مياه[3].

(1) المقريزي، المقفي، ج2، ص245.

(2) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت 771هـ)، معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1307هـ/ 1986م ص22.

(3) خالد عزب، سور وقلعة صلاح الدين، دار زهراء الشرق، ص82.

وفي وصف برج الصفة في قلعة القاهرة يقول: "وهو يتكون من قاعة محاطة بأربعة إيوانات مختلفة الأعماق، مع وجود دورات مياه بهما، وكذلك الحال في برج الصحراء حيث يقول: "قاعة كبيرة مستطيلة مغطاة بقبو مدبب تفتح من جهة الجنوب بشباك يطل على داخل القلعة، ملحق بها دورة مياه، وبالجهة الغربية من الممر بابان، أحدهما يصعد منه إلى ممر منكسر عند ناحية الشمال حيث يؤدي إلى قاعة كبيرة ملحق بها دورات مياه"[1].

وإذا لم يوجد في البرج دورات مياه كان المساجين يستخدمون حمامات تسمى المرتفق، خارج برج الاعتقال، ففي قصة اعتقال آل مهنا الذين اعتقلوا في أحد أبراج القلعة، يقول الأمير مظفر الدين موسى بن مهنا: "لما كنا في الاعتقال كان عمي محمد بن عيسى مغرىً بدخول المرتفق والتطويل فيه، وكان المرتفق مقاربًا لدور حريم السلطان أو لبعض الأمراء، فقلت له في ذلك فقال: يا ولد مهنا، لعلي أسمع خبرًا من النسوان، فإنهن يتحدثن بما لا يتحدث به الرجال"[2].

5 – حقوق المساجين في التواصل مع المجتمع الخارجي.

كان يسمح للزوار بزيارة المساجين، فقد كان أحد أشراف الإسكندرية يسمى الشريف السرسنائي يتردد إلى حصن الدين بن ثعلب[3] لتأنيسه وقضاء حوائجه

(1) السبكي، معيد النقم، ص142.

(2) السبكي، معيد النقم، ص143؛ خالد عزب: سور وقلعة صلاح الدين، ص72

(3) الأمير حصن الدين ثعلب أمير الجعافرة ورئيس القوم الذي أنف من سلطنة المماليك الأتراك وثار في سلطنة الملك المعز أيبك التركماني وكاتب الملك الناصر يوسف بن العزيز صاحب دمشق، وجمع عربان مصر، فخرجت إليه المماليك وحاربوه فقبض عليه وسجن بالإسكندرية حتى شنقه الظاهر بيبرس. المقريزي، البيان والإعراب، ص2.

في سجنه، ولكن نهايتهما كانت القتل بعد فرار ابن ثعلب من السجن سنة 663هـ/ 1264م واتهام السرسنائي بمساعدته[1].

وفي سنة 796هـ/ 1394م أرسل الأمير الشريف العنابي رسالة إلى شيخ عرب العائد[2] ويدعى موسى بن محمد بن عيسى العائدي - وكان في السجن - يطلب منه مساندته برجال من عشيرته للخروج على السلطان، وكان مضمون الرسالة: "يا موسى أرسل إلى عربك يجتمعوا ويعسكروا قرب القاهرة، فإذا جاز السلطان قطية[3] أركب أنا ومن معي من المماليك فنملك القاهرة، وتخلص من الحبس، ونتساعد على ذلك، فإذا غلبنا قرنا سلطانًا نتفق عليه، وأستقر أنا خليفة وأحمد بن قايماز أتابك العساكر"، ولكن شيخ العرب لم يوافق وأوصل الورقة إلى الوالي، الذي سلَّمها للسلطان فأمر السلطان بالقبض على الشريف العنّابي وقتله بعدما اعترف بالواقعة[4].

وهذا يوضح لنا أن السجناء كان يحق لهم رؤية أهليهم وخواصهم من خلال الزيارة، حيث إن الشريف العنابي لو لم يكن متأكدًا أن الرسالة سيرسلها شيخ

(1) قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني (ت: 726هـ) ذيل مرآة الزمان بعناية: وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة الطبعة: الثانية، 1413هـ/ 1992م، ج2، ص323.

(2) عرب العائد: وهم بطن من جزام من القحطانية ومن أقدم القبائل العربية في مصر، وقد سكنوا في المنطقة الممتدة بين بلبيس والعقبة بفلسطين، وكانوا يتولون حراسة القوافل في هذه المنطقة. السيد سالم، تاريخ القبائل العربية، ص54.

(3) قطية: قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما، بيوتهم صرائف من جريد النخل وشربهم من ركية عندهم جائفة ملحة، ولهم سويق فيه خبز إذا أكل وجد الرمل في مضغه، فلا يكاد يبالغ في مضغه، وعندهم سمك كثير لقربهم من البحر. ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص378

(4) العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص471.

العرب إلى أيدٍ أمينة لتصل إلى قبيلته، ما كان ليعرض نفسه للخطر ويرسل له رسالة بخطه، ولكن شيخ العرب أحب أن تكون له يد عند المماليك ليخرج من السجن فأفشى سر الشريف العنابي.

وفي أحيان أخرى يكون السجين في معزل عن المجتمع، ولا يحصل على حقوقه في التواصل مع المجتمع الخارجي، ولا تصله الأخبار إلا باستراق السمع والبصر، فعندما حبس آل مهنا في القلعة في زمن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون كانوا يسألون السجانين عن الأخبار، فلا يخبرونهم بشيء، وكان لهم صاحب من العرب، كان يقف قبالة البرج الذي هم فيه، ويومئ إليهم بالإشارات، وفي أحد الأيام جاء صاحبهم وأومأ ثم مد يده إلى التراب وصنع فيه هيئة قبر ونصب عليه عودًا، عليه خرقة صفراء كأنها صنجق سلطاني ثم نكسها وقعد كأنه يبكي، ثم وقف قائمًا ورقص، فعلموا بذلك أن الملك الأشرف خليل قد مات، فلما فُتح عليهم في اليوم التالي سألوا السجانين فأنكروا، ثم اعترف بعضهم[1].

6 – حقوق المساجين في قضاء أوقاتهم بالسجن:

كان المساجين يعملون على تمضية أوقاتهم في السجن في أعمال مختلفة ومنها:

(أ) العبادة والصلاة:

كان من السجناء من يشغل وقته بالذكر وقراءة القرآن، فكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقرأ القرآن ويصلي في سجنه عندما اعتقل، بعدما اعترض

(1) العدوي، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العمري، شهاب الدين (ت: 749هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار الناشر: المجمع الثقافي، أبو ظبي الطبعة الأولى، 1423هـ، ج4، ص318.

على مهادنه الفرنجة، ثُم أفرج عنه[1]، وعرف عن عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الناصر محمد في أثناء فترة سجنه بقوص العفة والتدين والصلاة الدائمة وقراءة القرآن وصيام الإثنين والخميس، حتى خرج سنة 742هـ/ 1341م، وكذلك كان خير بك الأشرفي حينما كان معتقلًا بقلعة دمشق[2].

(ب) التأليف والكتابة:

كان بعض المساجين يشتغلون بالكتابة إذا توفرت لهم أدوات الكتابة، فقد كتب الكاتب إسماعيل بن حامد معجمًا هائلًا في أربع مجلدات ضخمة، صنفه وهو في سجن بعلبك في القلعة[3]، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية في سجنه رسالة في "الرد على الأخنائي"، وهو القاضي عبد االله بن الأخنائي الذي كتب في موضوع زيارة القبور وخاصة قبر رسول االله بما يخالف عقيدة ابن تيمية، فرد عليه ابن تيمية وهو في الحبس برسالة أثبت فيها أن هذا القاضي المالكي قليل البضاعة في العلم ضعيف الحجة، يقول بما لم يقل علماء السلف، فغضب القاضي، واشتكى إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون في فترة حكمه الثالثة (709 - 741هـ/ 1310 - 1340م) فأصدر السلطان مرسومًا بمصادرة جميع ما عند الشيخ من أدوات الكتابة والكتب حتى لا يبقى عنده ما يستعين به في التأليف والكتابة، وفي غرة رجب (728هـ/ 1327م) أرسلت جميع مسوداته

(1) ابن حجر، أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر رفع الإصر عن قضاة مصر المحقق: علي محمد عمر الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، 1418هـ/ 1988م، ص240.

(2) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص207.

(3) الصفدي؛ خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، صلاح الدين الوافي بالوفيات، الناشر: دار إحياء التراث العربي، سنة النشر: 2000م، ج9، ص65.

وأوراقه من المحبس إلى المكتبة العادلية الكبرى، وكان ذلك نحو 60 مجلدًا من الكتب، و14 ربطة كراريس التي كان يشتغل بها دراسة وتأليفا[1].

وكان الأمير علم الدين سنجر الجاولي ينسخ القرآن وكتب الحديث وغيرها في أثناء مدة اعتقاله التي بلغت أكثر من ثماني سنوات، وانتهت بالإفراج عنه سنة 728هـ/ 1327م[2].

كما أملى الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري رسالة في مسألة رفع اليدين في السجود، ومسألة وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة ورسالة في الإمامة[3].

وكان الشمس البساطي في سجن حماة يكتب لأصحابه بخطه بعدما انقطعت مكاتباتهم عنه، وذلك سنة 814هـ/ 1412م[4].

وكتب أبو الخير النحاس في سجنه بطرسوس ربعة ومصحفًا عظيمين سنة 854هـ/ 1450م، وأرسلهما إلى السلطان جقمق ليرق له، فأطلقه فرجع إلى طرابلس، ثم إلى مصر[5].

(ج) الشعر:

وفي بعض الأحيان كان السجين يسلي نفسه ويواسي زملاءه بالشعر، فقد أنشد ودُي بن جماز الحسني أمير المدينة المنورة عندما كان محبوسًا في مصر سنة 729هـ/ 1328م قصيدة مطلعها:

(1) ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد إبراهيم محمد العلي، رجل الإصلاح والدعوة، دار القلم - دمشق، 1421هـ، ص300 - 301.

(2) المقريزي: السلوك، ج3، ص110.

(3) السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص97.

(4) السخاوي، الضوء اللامع، ج7، ص8.

(5) العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب، ج2، ص233.

أنا ابن الكرام الطيبين بني عمر ... ومن بهم في الجدب يستنزل المطر
ومن لهم في فضلهم ولجدهم ... ضجيع النبي المصطفى حسن السير[1]

وكانت هناك مراسلات شعرية بين شرف الدين النابلسي الناسخ عندما كان في السجن، وبين الكاتب صلاح الدين الصفدي، حيث يخبر الصفدي بنفسه قائلًا: "وكان قد كتب إلي - شرف الدين عيسى بن المحب النابلسي - من السجن وأنا بالقاهرة سنة ثمانٍ وعشرين وسبع مئة[2]، كما أنشد الشيخ ابن تيمية أبيات من الشعر ليواسي زميله في سجن دمشق عمر بن عمران بن صدقة البلالي وهي:

تفكرنْ وثق بالله إن له ... ألطافَ دقّت على الأذهان والفطن
يأتيك من لطفه من ليس تعرفه ... حتى تظن الذي قد كان لم يكنِ[3]

ولكن في حالات لم ينجح الشعر في الشفاعة لصاحبه، ففي سنة 759هـ/1358م أرسل الأمير صرغتمش بن عبد الله الناصري من سجنه بالإسكندرية كتابًا إلى الملك حسن يتخضع فيه وفي أوله:

قلبي يحدثني بأنك متلفي ... روحي فداك عرفتَ أم لم تعرفِ

فلم يلتفت الملك الناصر لكتابه وأمر بقتله فقُتل[4].

(د) التسلية بالألعاب:

وكان منهم من يقضي وقته في الألعاب والتسلية، فعندما أُدخل ابن تيمية سجن الديلم بالقاهرة، وجد السجناء مشتغلين بأنواع من اللعب يلتهون بها عما هم فيه

(1) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج6، ص147.
(2) الصفدي، أعيان العصر، ج3، ص719.
(3) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص134
(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص328.

كالشطرنج والنـرد، ونحـو ذلـك مـن تضييـع الصلوات، فأنكـر عليهـم الشـيخ ذلك، وبـدأ يـأمرهم بملازمـة الـصلاة والأعمـال الصالحـة حتـى صـار السـجن مدرسـة، وصـار جماعـة مـن المفـرج عنهـم يعـودون إلـى السـجن لزيارة الشـيخ وأخـذ العلم عنـه حتـى كثـر المـترددون، وامتـلأ السـجن منهـم[1]، كمـا لعـب السـجناء في حبـس بـاب البريـد في دمشـق العديـد مـن الألعـاب مثـل لعبة تسـمى "الطاب والـدك"[2].

7 – حقوق المساجين وقت المجاعات:

وفي أوقـات المجاعـات والغـلاء كان السـلاطين يأمـرون بإطعام المسـاجين كما حـدث فـي سـنة 798هـ/ 1396م حين حـدث غلاء فاحـش فأمر السـلطان برقوق بعمـل الخبـز مـن عشـرين إردبًا[3] مـن القمـح ووزعـت على فقـراء القاهـرة ومصـر وأهـل السـجون وسـكان القرافة[4].

وفي مجاعـة سـنة 822هـ/ 1419م خـرج السـلطان المؤيـد شـيخ ومعه العلمـاء والعامـة ونـصبوا المطابـخ السـلطانية وذبحـوا 150 كبشـا سـمينًا و10 بقـرات وجاموسـتين وجملين وفرقوهـا علـى الجوامـع والخوانـك والزوايـا والفقـراء، وبعـث إلـى السـجون عـدة أرغفـة وقـدور أطعمـة[5].

(1) الألوسي، أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء (ت: 1342هـ) غاية الأماني في الرد على النبهاني، المحقق: أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، 1422هـ/ 2001م، ج2، ص23.

(2) الحنفي، شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي (ت: 953هـ)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ/ 1998م، ص395.

(3) الإردب: مكيال مصري للحنطة، ويتألف من 6 ويبات كل ويبة 8 أقداح كبيرة أو 16 قدحًا صغيرًا، ومن الصعب تحديد الإردب بدقة. هنتس، المكاييل والأوزان، ص58.

(4) المقريزي، السلوك، ج5، ص385.

(5) العسقلاني، إنباء الغمر، ج7، ص357.

كما كان يلزم أرباب الديون بمؤونة المدينين من المساجين، ففي المجاعة التي حدثت سنة 839هـ/ 1435م بمصر كتب القاضي على ورقة اعتقال مدين: "يعتقل بشرط أن يفرض له رب الدين ما يكفيه من المؤونة"، وعندما اشتد الغلاء والمجاعة أُفرج عن المساجين من كثرة شكواهم من الجوع[1].

8 – حقوق المساجين عند الخروج من السجن:

وعند خروج المساجين كانت تعقد الأفراح ومراسيم الاستقبال لهم من قبل أهليهم وأصدقائهم فرحًا بخروجهم، فعلى سبيل المثال، عندما خرج الأمراء الذين كانوا بسجن الإسكندرية إلى القاهرة سنة 742هـ/ 1341م ركب الأمراء إلى لقائهم، وخرجت العامة لرؤيتهم بحيث غلقت الأسواق يومئذ، حتى طلعوا إلى القلعة، فتلقت الأميرة خوند[2] الحجازية زوجها الأمير ملكتمر الحجازي بجواريها وخدمها ومغانيها تضرب بالدفوف والشبابات فرحًا به.

وفي سنة 752هـ/ 1351م لما وصل الأمراء المعتقلون من سجن الإسكندرية وهم سبعة، أسماؤهم كالآتي: منجك الوزير وفاضل أخو بيبغاروس وأحمد الساقي نائب صفد وعمر شاه الحاجب وأمير حسين التتري وولده ومحمد بن بكتمر الحاجب، ركب الأمير طاز ومعه الخيول المجهزة لركوبهم حتى لقيهم وطلع بهم إلى القلعة، فخلع عليهم بين يدي السلطان ابن الناصر محمد بن المنصور قلاوون (752هـ/ 1351م - 755هـ/ 1354م)، ونزلوا إلى بيوتهم فامتلأت القاهرة بالأفراح والتهاني، ونزل الأمير شيخو والأمير طاز والأمير صرغتمش إلى إصطبلاتهم وبعثوا إلى الأمراء القادمين من السجن

(1) المقريزي: المصدر السابق، ج7، ص305.

(2) الخوند: في الفارسية: السيد العظيم أو الأمير، استعملت في العربية لقبًا بمعنى السيد أو السيدة. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص70.

التقادم السنية من الخيول والتعابي القماش[1] والبسط وغيرها، فكان الذي بعثه الأمير شيخو لمنجك خمسة أفراس ومبلغ ألفي دينار[2].

المبحث الثاني - جهود سلاطين المماليك في إعطاء المساجين حقوقهم:

أولًا – جهود السلاطين لتحسين أوضاع المساجيين:

1 – هدم السجون:

كما فعل السلطان المنصور قلاوون (678 – 689هـ/ 1279 – 1290م) منذ توليه السلطنة بهدم حبس المعونة بالقاهرة، وبنى مكانها قيسارية العنبر سنة (680هـ/ 1281م)، وكان يمر بجوار حبس المعونة بالقاهرة في طريقه من بيته إلى قلعة الجبل في زمن دولة الظاهر بيبرس (658 – 676هـ/ 1260م)، وكان يشم رائحة كريهة ويسمع صراخ المسجونين وشكواهم الجوع والعري والقمل، فجعل على نفسه نذرًا إن جعل الله له من الأمر شيئًا أن يبني مكان هذا الحبس مكانًا طيبا[3].

وهدم السلطان المؤيد شيخ سجن خزانة شمائل سنة 818هـ/ 1416م، وبنى مكانه مسجد المؤيد، وذلك بسبب أنه سجن فيها في دولة الناصر فرج بن برقوق (801 – 808هـ/ 1399 – 1412م)، وقاسى بها مصاعب شديدة من الحشرات والبق والبراغيث، فنذر لله إن خلص من هذه الشدائد، وصار سلطانًا أن يهدم هذا السجن ويبنى مكانه جامعًا[4].

(1) التعابي: ومفردها تعبية، أي الثياب أو قطع القماش. عاشور، العصر المماليكي، ص424.
(2) المقريزي، السلوك، ج4، ص144.
(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج4، ص201
(4) المقريزي، المصدر السابق، ج3، ص63.

كما قام الملك الناصر محمد بن قلاوون بهدم جب قلعة الجبل في سنة 729هـ/ 1328م وذلك أن شاد العمائر نزل إليه ليصلح عمارته، فشاهد أمرًا مهولًا من الظلام وكثرة الوطاويط والروائح الكريهة، واتفق مع ذلك أن الأمير بكتمر الساقي كان عنده شخص يسخر به ويمازحه، فبعث به إلى الجب ودلي فيه، ثم أطلعه من بعد ما بات به ليلة، فلما حضر إلى بكتمر أخبره بما عاينه من شناعة الجب، وذكر ما فيه من القبائح المهولة، وكان شادُ العمائر في المجلس فوصف ما فيه الأمراء الذين بالجب من الشدائد، فتحدث بكتمر مع السلطان في ذلك فأمر بإخراج الأمراء منه، ورُدم وعمر فوقه أطباق المماليك[1].

2 - محاولات إصلاح السجون وتجديدها.

وفي رمضان سنة 820هـ/ 1417م حاول الأمير فخر الدين عبد الغني بن أبي الفرج الأستادار أن يخصص سجنًا جديدًا أفضل حالًا من سجن المقشرة، بعدما سمع عما يعانيه السجناء فيه من شدة الضيق وكثرة الغم، فعين قصر الحجازية ليكون سجنًا لأرباب الجرائم، واستأجره بعشرة آلاف درهم عن أجرة سنتين، فشرع البناؤون في عمل سجن وأزالوا كثيرا من معالمه، ثم أُهمل ولم يتخذ سجنًا[2].

كما نجد أن بعض السلاطين والأمراء كانت لهم عناية وشفقة على المساجين فعملوا على تحسين أوضاعهم، خاصة في وقت المجاعات، فقد أمر السلطان برقوق لما كثر الغلاء أن لا يحبس أحد على دين، وأُفرج عن المساجين[3].

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج3، ص186

(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج3، ص130.

(3) العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص84.

وكان الأمير آنص العثماني الجركسي إذا ركب ولقي في طريقه أحدًا من المحابيس[1] الذين يعملون في الأشغال الشاقة، يأخذه من حارسه ويطلقه في الحال من زنجيره، ولا يقدر أحد أن يرده عن ذلك، لأنه والد السلطان برقوق، فأصدر السلطان برقوق أمرًا أن لا يخرج المحابيس للأعمال الشاقة خوفا من أن يطلقهم، وكان إذا رأى أحدًا منهم يسأل: هذا مسلم أم كافر؟ فيقولون له: مسلم؛ فيقول: كيف يفعل بمسلم هكذا في بلاد الإسلام! أطلقوه فيطلق في الحال[2].

وقد كان السلاطين والخلفاء والأمراء يتفقدون أحوال المساجين في المناسبات الدينية مثل شهر رمضان المبارك والأعياد، فكان من عادة بعض السلاطين في غرة رمضان أن تكتب له أوراق بأسماء المحبوسين، ويكون في ذلك فرج لمن يريد الله خلاصه[3].

وكان الظاهر برقوق (784 - 801هـ/ 1382 - 1399م) طوال مدة إمارته وسلطنته يذبح في كلّ يوم من أيام شهر رمضان المبارك خمسا وعشرين بقرة، يتصدق بها بعدما تطبخ، ومعها آلاف من أرغفة الخبز النّقي، تفرق على أهل الجوامع والمساجد والربط وأهل السجون، لكل إنسان منهم رطل لحم مطبوخ، وثلاثة أرغفة[4].

(1) هو والد السلطان برقوق، قدم القاهرة وأسلم وحسن إسلامه، وأقام بعد ذلك دون السنتين ومات. ومع هذه المدة القصيرة من إسلامه أظهر فيها عن دين كبير وخير وصدقات كثيرة ومحبة لأهل العلم وشفقة على الفقراء وأهل الصلاح. وكان لا يدخر شيئا من المال، بل كان مهما حصل في يده فرقه في الحال على الفقراء والمساكين. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص218.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص218

(3) العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في أخبار أهل زمان، (ت) محمود رزق محمود، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2010م، ص227.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص109.

ثانيًا – نماذج سلبية:

1 - القسوة والتعذيب:

شهد عصر سلاطين المماليك في بعض الفترات انتقاصا من حقوق الإنسان بالنسبة للمساجين، تمثل في أنواعًا قاسية وعنيفة من التعذيب الجسدي والمعنوي، تقشعر لوصفه الأبدان، ويجدر الإشارة إلى أن هذا التعذيب مثل: الضرب، وتكحيل الأعين، وعصر الأعضاء، والتشهير والتقريع للمعتقل، وغيرها ليس لها أي مسوغ شرعي في الشريعة الإسلامية، وهي تنافي تعاليم الدين الإسلامي، حيث فيها إهدار للكرامة الإنسانية، إذ لا يجوز تعذيب المجرم فضلًا عن المتهم، لقول النبي ﷺ: "إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا[1]"، كما لا يجوز حمل المتهم على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها، وكل ما ينتزع بوسائل الإكراه باطل، لقول النبي ﷺ: "إن الله وضع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه"[2].

2 - أعمال السخرة:

ومن أمثله ذلك استخدم السلطان الناصر محمد المساجين عمالًا بالسخرة لبناء اصطبل[3] في بركة الفيل، حيث استمر العمل فيه أكثر من عشرة أشهر[4].

(1) مسلم، بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: 261هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج4، ص2018.

(2) ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت: 273هـ)، سنن ابن ماجه، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، ج1، ص659.

(3) الإصطبل: مجموعة من المباني يبنيها الأمير لسكنه وسكن أسرته ومماليكه وخيوله. عاشور: العصر المماليكي، ص413.

(4) الصفدي، أعيان العصر، ص209؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص217.

وفي سنة 713هـ/ 1313م أسر الملك الناصر محمد عددًا كبيرًا من عربان الصعيد بعد أن خرجوا عليه، وسجنهم واستخدم بعضهم في حفر الجسور[1]، وفي سنة 730هـ/ 1329م بدأ الأمير قوصون ببناء جامع قوصون بالقاهرة باستخدام الأسرى[2].

كما نجد من بعض السلاطين تعديات كثيرة على كرامة الإنسان المسجون، وأنواع من التعذيب الشديد، ومن أشد الناس تعذيبًا بالمقارع الوزير موسى بن التاج فقد اعتُقل بسعاية من أحد الأمراء يدعى النشو سنة 731هـ/ 1330م وصودرت ممتلكاته وضرب بالمقارع أكثر من مائتي شيب وسعط بالماء والملح وبالخل والجير حتى ظنوا أنه مات، فأصبح سويًا، ثم عقِّد له شيب المقرعة وضرب بها، فكانت إذا نزلت على جنبه تثقبه، وفي أحد المرات قطعت من ظهره قطعة لحم كمثل الرغيف، حتى ظنوا إنه مات، فوجدوه حيًا، واستمروا على ذلك أشهرًا، ثم عذبوا زوجته وكانت حاملًا فولدت فعاش ولدها حتى كبر، وما زالا في العقوبة حتى هلك[3].

وربما توفي السجين المضروب من شدة الألم والخوف، كما حدث مع إحدى مغنيات مصر وتدعى خديجة الرحابية، التي قبض عليها والي القاهرة يشبك بن حيدر، وكانت من أعيان مغنيات مصر، جميلة حسنة الغناء، ولها حظوة عند أرباب الدولة والرؤساء، فافتتن بها كثير من الناس، فلما قبض عليها يشبك كانت في بعض الأفراح، فلما مثلت بين يديه قال لها: "أنت التي أفسدت

(1) محمود رزق سليم: موسوعة عصر سلاطين المماليك الطبعة. 1، دار المعارف، القاهرة، 2000م، ج2، ص306.
(2) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج4، ص108.
(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج11، ص110 - 112.

عقول الناس"، ثم أمر بضربها بين يديه نحوًا من خمسين عصا، وقرر عليها مبلغًا له صورة[1]، وكتب عليها قسامة أنها لا تغني ولا تحضر مقاما، فلما خلصت من ذلك قامت مريضة مدة من الرجفة التي وقعت لها، ثم ماتت عقيب ذلك، وكان عمرها ثلاثين سنة[2].

وقد ضرب سعد الدين ابن البقري ناظر الخاص سنة 785هـ/ 1383م بالمقارع في حضرة السلطان الملك الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس بن عبدالله الشركسي (784هـ/ 1382م - 790هـ/ 1388م)، ثم أعيد الضرب عليه، فضرب تحت رجليه ثلاثمائة عصا، وعلى ظهره مقترح مثلها وعلى استه مثلها، وصار من شدة الضرب يمرغ وجهه في الحصباء إلى أن أثر ذلك في وجهه أثرًا لم يزل إلى أن مات[3]، وكذلك يلبغا السالمي ضرب مقترح سنة 802هـ/ 1400م[4]، وضرب رجل أعجمي ضربًا مبرحًا مائة عصا وجرس، بسبب أنه قال للسلطان برقوق إن النيل سوف يتوقف ماؤه، فأمر بحبسه وضربه سنة 783هـ/ 1381م[5].

وسُجن جمال الدين الأستادار سنة 812هـ/ 1410م حيث أحضر بين يدي السلطان فرج بن الظاهر برقوق (808هـ/ 1405م - 815هـ/ 1412م) محمولًا لعجزه عن المشي من شدة العقوبة، فقد عوقب بالضرب في رجليه، فدل على أموال قد خبأها وجدت مدفونة في التراب عبارة عن ذهب زنته خمسة وعشرون ألف مثقال، وأموال أخرى وجدت في تسع قفاف مملوءة ذهبًا، كما عذبوا ابنه

(1) مال له صورة: أي كثير. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص487.
(2) ابن إياس: بدائع الزهور، ص506
(3) العسقلاني: إنباء العمر، ج1، ص277
(4) المصدر السابق، ج2، ص104
(5) المصدر نفسه، ج1، ص233

بحضرته فدل على مائتي ألف دينار وغيرها، وبقي يزيد عليه في التعذيب والعصر حتى دل على أموال كثيرة، ثم أعاده إلى سجنه وأمر بمعالجته حتى يبرأ[1].

الخاتمة:

استقصيت في الدراسة عن حقوق الانسان في مصر وبلاد الشام في عصر الدولة المملوكية "المساجين نموذجًا"، بتحليل عدد لا بأس به من المصادر والمراجع التي تناولت جوانب الدراسة من زوايا مختلفة، وارتكازًا على المنهج العلمي والرؤية التاريخية الشاملة لجوانب موضوع حقوق المساجين في العصر المملوكي، يمكننا استخلاص عدد من النتائج، على النحو الآتي:

- أعلت الشريعة الإسلامية من قيم ومبادئ حقوق الإنسان للجميع حتى المساجين.
- اهتمت الدولة المملوكية ببناء السجون لمعاقبة المذنبين مع توفير حقوق الإنسان لهم كمساجين، وأهمها الكفاية في الطعام والشراب.
- حرص سلاطين المماليك على توفير حقوق المساجين من الملابس وكذلك المعاشرة الزوجية وأنواع أخرى من الحقوق.
- وفرت الدولة المملوكية للمساجين في مصر والشام الرعاية الصحية والتواصل للمسجون مع المجتمع الخارجي.
- إعطاء المساجين حقوقهم في قضاء أوقات فراغهم كما يشاؤون، فكان الاهتمام من المساجين بالعبادة والصلاة، وكذلك ظهرت لنا نماذج

(1) المقريزي، السلوك، ج6، ص239.

اهتمت بالتأليف وكتابة الشعر، وأيضا بعضهم مارس الألعاب والتسلية.

- وتأكد لنا فترات المجاعات مدى حرص معظم سلاطين المماليك بدرجة كبيرة على حقوق المساجين في فترات الأزمات والمجاعات، كما كانت تقيم الاحتفالات لهم وقت الخروج من السجن.

- لم تَسِر أوضاع حقوق الإنسان على وتيرة واحدة بالنسبة للمساجين على الرغم من اهتمام سلاطين المماليك بتحسين أحوالهم، إلا أن هناك حالات فردية من إهدار حقوق الإنسان للمساجين ذكرت نماذج للتدليل عليها، فقد مارست عددا من العقوبات الغير الإنسانية تجاه عدد من الأجراء والرعايا في السجون المملوكية في مصر والشام.

قائمة المصادر:

- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن عبد الله الظاهري الحنفي، (ت: 874هـ)، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ت: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د. ت.
- الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري، شذرات الذهب، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (ت: الأرناؤوط)، ت: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، 1406هـ/ 1986م.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الكناني (ت: 852هـ)،
  - الدرر الكامنة، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1349هـ.
  - إنباء الغمر، إنباء الغمر بأبناء العمر، المحقق: د حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1389هـ.
  - رفع الإصر عن قضاة مصر المحقق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1418هـ/ 1988م.
- الدمشقي، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (ت: 1425هـ)، الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، دار القلم، دمشق، د. ت.
- الدواداری، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداری، الدرة الزكية، تحقيق: بيرند راتكه، إدوارد بدين، محمد السعيد جمال الدين، جونهيلد جراف، اريكا جلاسن، دوروتيا كرافولسكي، صلاح الدين المنجد، سعيد عبد الفتاح عاشور، أولرخ هارمان، هانس روبرت رويمر، نشره عيسى البابي الحلبي، 1402هـ/ 1982م.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت: 748هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام المؤلف، المكتبة التوفيقية، د. ت.

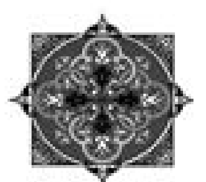
- الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي (ت: 666هـ)، مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت، صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420هـ/ 1999م.
- السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد (ت: 902هـ) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، د. ت.
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت: 771هـ) معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1307هـ/ 1986م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، أعيان العصر، أعيان العصر وأعوان النصر، المحقق: علي أبو زيد نبيل أبو عشمة، محمد موعد، محمود سالم محمد، د. ن، 1418هـ/ 1998م.
- الصدفي، رزق الله منقاريوس، تاريخ دول الإسلام، مطبعة الهلال، القاهرة، 1907 - 1908م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث العربي، 2000م.
- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه الدمشقي الصالحي الحنفي (ت: 953هـ)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان وضع حواشيه: خليل المنصور الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ/ 1998م.
- العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين (ت: 749هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي الطبعة: الأولى، 1423هـ.
- ابن العجمي، موفق الدين أبو ذر سبط أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل (ت: 884هـ)، كنوز الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، د. ت.

- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي (ت: 845هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: 711هـ)، لسان العرب، الطبعة: الثالثة، دار صادر، بيروت، 1414هـ.
- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت: 273هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، د. ت.
- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: 261هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، د. ت.
- ابن واصل، أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصرالله بن سالم المازني التميمي الحموي، مفرج الكروب، المحقق: جمال الدين الشيال، حسنين محمد ربيع، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية – المطبعة الأميرية، القاهرة، 1377 – 1957.
- ابن الوردي، أبو الفداء زين الدين عمر بن المظفر إسماعيل بن علي، تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، النجف، 1969م.
- اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت: 726هـ)، ذيل مرآة الزمان، وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة الطبعة: الثانية، 1413هـ/ 1992م.

قائمة المراجع:

- إبراهيم والزيات وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة، د. ت.
- إحسان عباس، شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، دار الفكر العربي، دمشق، خالد عزب، سور وقلعة صلاح الدين، دار زهراء الشرق، د. ت.
- إبراهيم محمد العلي، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة، دار القلم، دمشق، 1421هـ.

- البيك، ثروت محمد، حقوق الإنسان في الخلافة العباسية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، 2015م.
- جاستون فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، سينما وفنون وإعلام، القاهرة، د. ت.
- الجبوري، عبد الجبار عبد الوهاب، حقوق الإنسان قوق الإنسان بين النصوص والنسيان، الطبعة، الطبعة الأولى، دار الفرابي، بيروت، 2015م.
- الرفاعي، هالة نواف، السجون في مصر في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، 2008م.
- سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
- سليم، محمود رزق، موسوعة عصر سلاطين المماليك، الطبعة: الأولى، دار المعارف، د. ت.
- عبد الرؤوف جبر القططي، السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية، م 567 - 923هـ/ 1171 - 1517م، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، فلسطين، 2012م.
- م. ت. هوتسما، ت. و. أرنولد، ر. باسيت، ر. هارتمان، موجز دائرة المعارف الإسلامية، ت: إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، عبد الحميد يونس، حسن حبشي، عبد الرحمن الشيخ، محمد عناني، مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1418 - 1998م.
- مصطفى أحمد الزرقا، المدخل الفقهي العام، 1425 - 2004م.
- هند أبو الشعر، واقع الأوقاف في نيابة دمشق في العهد المملوكي (801هـ- 915هـ/ 1398 - 1509م)، مقدم لمؤتمر تاريخ دمشق.



اقتباسات ابن حجر العسقلاني من مؤلفات محمد ابن عائذ الدمشقي
(دراسة تحليلية مقارنة)

د. منيرة بنت محمد عسيري[1]

ملخص البحث:

يتناول البحث اقتباسات ابن حجر العسقلاني من مؤلفات محمد بن عائذ الدمشقي المفقودة التي وصل إلينا مقتطفات من بعضها عن طريق مؤلفين حفظوا لنا جزءا مهما من التراث الإسلامي، وكان أحدهم هو: ابن حجر العسقلاني، ونظرا لتركيزه على الحديث نلاحظ أنه اكتفى بإيراد اقتباسات عن العصرين النبوي والراشدي فقط دون العصرين الأموي والعباسي. وتعكس الدراسة صورة عن طبيعة تلك النقولات التي بلغ عددها قرابة مئة وأحد عشر اقتباسًا. وقد بينت الدراسة المضمون التاريخي لها عند ابن حجر، والتي تناولت موضوعاتها العصر النبوي بشقيه المكي والمدني إلا أن التركيز كان على المدني أكثر، بحيث تناولت بداية البعثة، وموقف السيدة خديجة، وأسماء بعض مهاجري الحبشة، وكذلك الهجرة إلى المدينة، ومرحلة تأسيس الدولة

---

(1) أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد في كلية الآداب جامعة الملك سعود.

بناء المسجد النبوي، وعلاقة النبي ﷺ والمسلمين مع قريش، ومع اليهود؛ بينما اقتصر العصر الراشدي على بعض إشارات لأحداث في زمن الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فقط دون ذكره لبقية الخلفاء.

ووضحت الدراسة منهج ابن حجر في التعامل مع تلك الاقتباسات من حيث السند والمتن، ثم مقارنة بين ما اقتبسه ابن حجر واقتباسات بعض المعاصرين واللاحقين له من مؤلفات ابن عائذ.

وخلصت الدراسة إلى بيان أهمية المادة التي اقتبسها ابن حجر وغزارتها مقارنة مع غيره من المؤرخين، إضافة لأن الفترة التي عاش فيها ابن حجر القرن التاسع الهجري، وكذلك القرن العاشر الهجري (ذكره السيوطي) كان كتاب ابن عائذ المغازي لا يزال موجودا ومتداولا بين أهل العلم، وهو مفقود في عصرنا الحالي، بينما لا نجد ذكرا لبقية مؤلفات ابن عائذ، ولعل ذلك يعود لطبيعة موضوعات مؤلفات ابن حجر وغيره وهي مرتبطة بفترة العصرين النبوي والراشدي.

Research Summary:

The research investigates Ibn Hajar Al - Asqalani’s work which was built based on the missing publications by Muhammad ibn A’idh al - Dimashqi. Some of Al - Dimashqi’s missing publications have come to us in the form of excerpts from scholars, such as Ibn Hajar Al - Asqalani, who preserved a vital part of the Islamic heritage. Given Ibn Hajar’s emphasis on narrations (hadith), we have noticed that he only quoted and narrated from the Prophetic and Rashidi eras, excluding the Umayyad and Abbasid eras. The study sheds light on the nature of those quotes and narratives, including one hundred and eleven quotes.

The study revealed that the historical content of the narratives according to Ibn Hajar, whose topics dealt with the Prophet's era, both periods in Mecca and Medina, but the emphasis was more on the Medina period. Furthermore, the Rashidi era was limited only to a few references to events during the two Caliphs, Omar Ibn Al - Khattab and Othman Ibn Affan only. The study clarified Ibn Hajar's methodology in dealing with these quotations and narratives in carrying and writing them (Al - Sanad and Al - Matan), then comparing what Ibn Hajar narrated and other narratives from his contemporaries and successors of the Ibn Aa'idh's publications.

The study concluded by emphasizing the significance of the material related by Ibn Hajar and its abundance in comparison to other historians. In addition to the fact that the period in which Ibn Hajar lived in the ninth and tenth centuries AH (mentioned by Al - Suyuti), the publication of the Ibn A'idh Al - Maghazi's was still present and circulating among scholars at that time, which is currently missing in our time. At the same time, we cannot find narratives of the rest of Ibn A'adh's publications.

المقدمة:

نقل لنا أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت: 852هـ/ 1448م) مرويات عن بعض المؤرخين المفقودة كتبهم وضَمّنها مؤلفاته، وحمل راية العلم وبلغ الغاية القصوى في الدراية والرواية، ومن أشهر هؤلاء المؤرخين محمد بن عائذ الدمشقي (ت: 232هـ/ 847م) الذي فُقدت مؤلفاته ضمن ما فقد من التراث الإسلامي، وقد حفظت لنا بعض المصادر في طياتها بعضا مما تضمنته تلك المؤلفات، وكان من أهمها كتاب تاريخ مدينة دمشق

لعلي بن الحسن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت: 571هـ/ 1176م) الذي نقل لنا عنه قرابة خمسمائة وخمس عشرة رواية. ولا يقل ما نقله ابن حجر أهمية عما وصلنا من طريق ابن عساكر وغيره من المؤرخين أمثال: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة الشهير بابن العديم (ت: 660هـ/ 1262م) وفتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد اليعمري الإشبيلي المعروف بابن سيد الناس (ت: 734هـ/ 1334م) وعماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير (ت: 774هـ/ 1373م) وتأتي أهمية البحث فيما نقله وحفظه لنا ابن حجر عن ابن عائذ في طيات بعض مؤلفاته في قرابة مئة وأحد عشر موضعا تناولت العصر النبوي والعصر الراشدي فقط.

والجدير بالذكر أنه لا توجد دراسة سابقة اختصت بما نقله ابن حجر عن ابن عائذ إلا أنه توجد دراسات مشابهة تناولت مرويات محمد بن عائذ عند ابن عساكر:

أولا – محمد علي صالح: **"مرويات محمد بن عائذ الدمشقي في تاريخ دمشق"** (مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، العراق، العدد 19، م11، 1440هـ/ 2019م) عبارة عن مقال تناول ترجمة مختصرة لابن عائذ وشيوخه ودراسة مروياته عند ابن عساكر وفحص مضمونها التاريخي وكان تركيزه على السيرة النبوية.

ثانيا – عفاف الوذيناني: **مرويات محمد بن عائذ الدمشقي من كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (من البعثة حتى سنة 40هـ) دراسة مقارنة** (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1424هـ/ 2003م). تناولت هذه الدراسة مرويات ابن عائذ في عصر النبوة، وعصر الخلفاء الراشدين من خلال مصدر واحد فقط، وهو كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر.

وهاتان الدراستان لم تتطرقا لما ورد عند ابن حجر من نقولات لابن عائذ التي هي محور هذه الدراسة.

ثالثا – منيرة عسيري: **محمد بن عائذ الدمشقي ومنهجه في الكتابة التاريخية** (150 – 232هـ/ 767 – 847م) وهي عبارة عن (رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الملك سعود، الرياض، 1437هـ/ 2016م) وهي عبارة عن دراسة لمنهج ابن عائذ وكتابته التاريخية، احتوت على التعريف به وبشيوخه وتلاميذه، ورصدت فيها مروياته، وقسمتها حسب العصور، ثم تتبعت منهجيته وكتابته التاريخية، لكن هذه الدراسة لم تناقش اقتباسات ابن حجر على حدة، ونقولات المعاصرين له، وطبيعة المادة التاريخية لديهم.

اتبع البحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي الاحصائي باستقصاء المعلومات من مصادرها الأصلية ومقارنة الروايات التاريخية وتحليلها وفق طبيعة موضوع البحث عصر الدراسة.

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى أربعة مباحث، الأول ترجمة ابن حجر، والثاني ترجمة محمد بن عائذ الدمشقي، والثالث دراسة المضمون التاريخي لاقتباسات ابن حجر ومنهجه في التعامل معها، والرابع مقارنة بين اقتباسات ابن حجر وبعض المعاصرين واللاحقين له من مؤلفات ابن عائذ، ثم خاتمة بها أهم النتائج التي توصلت لها الدراسة، يليها توصيات الباحث، وقائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها الدراسة.

واعتمدت الدراسة على مؤلفات ابن حجر العسقلاني وجهده في الجمع والاطلاع والتأليف، وبعد استقراء قرابة ثلاثين مؤلفًا[1] اتضح أنه نقل عن ابن

(1) وهذه المؤلفات هي: رفع الإصر عن قضاة مصر، العجاب في بيان الأسباب، إنباء الغمر بأنباء العمر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، المعجم المفهرس، سلسلة الذهب (عشاريات

عائذ في ثلاثة منها، وهي: فتح الباري شرح صحيح البخاري وهو الأكثر في النقولات، ويليه الإصابة في تمييز الصحابة، ثم المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية. وهذه المؤلفات الثلاثة وما يحتويه مضمونها لها صلة مباشرة بالعصرين النبوي والراشدي، ففتح الباري عبارة عن شروحات لأحاديث النبي ﷺ عند البخاري، والإصابة تراجم للصحابة المعاصرين لأحداث العصر النبوي، والمطالب العالية عبارة عن جمع الأحاديث الزائدة المتفرقة في كتب الحديث؛ وجميعها تشترك في الاقتباس عن ابن عائذ كونه قد ألّف في المغازي، ولكنها بدرجات متفاوتة. أما بقية المؤلفات فلم يرد فيها اقتباسات عن ابن عائذ؛ وذلك لاختلاف طبيعة موضوعاتها عن الثلاثة السابق ذكرها.

وقد استخدمت في الدراسة بعض الرموز للاختصار وهي:

ص= رقم الصفحة، ت = تاريخ الوفاة، ج= الجزء، م = مجلد، د. ن. ط = دون طبعة، د. ن. د = دون دار نشر، د. ن. م= دون مكان نشر، د. ن. ت= دون تاريخ نشر، تح= تحقيق، تع= تعليق.

ترجمة ابن حجر:

ترجم لابن حجر عدد كبير من معاصريه أو ممن تتلمذ على يديه أو أتى من بعده فضلًا عما كتبه هو عن نفسه في مصنفاته، فترجم له بدر الدين محمد بن إبراهيم

الحافظ ابن حجر)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، نزهة السامعين في رواية الصحابة عن التابعين، نخبة الفكر، نزهة النظر، النكت على ابن الصلاح، المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، المطالب العالية، نزهة الألباب في الألقاب، تبصير المنتبه بتحرير المشبه، الأمالي المطلقة، الأمالي الحلبية، الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع، الزهر النضر في أخبار الخضر، تلخيص الحبير، تغليق التعليق، الدراية في تخريج أحاديث الهداية، اتحاف المهرة، لسان الميزان، طبقات المدلسين، الإصابة في تمييز الصحابة، تقريب التهذيب، تهذيب التهذيب، تعجيل المنفعة، الإيثار بمعرفة رواة الآثار.

البشتكي (ت: 830هـ/ 1427م)[1]، وتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت: 845هـ/ 1442م)[2]، والتقي بن قاضي شهبة (ت: 851هـ/ 1447م)[3]، وأبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت: 874هـ/ 1469م)[4]، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت: 911هـ/ 1505م)[5]، ومحمد ابن عبد الرحمن السخاوي (ت: 920هـ/ 1497م)[6]، وغيرهم[7].

(1) اسم كتاب البشتكي هو: "المطالع البدرية لمن اشتهر بالصناعة الشعرية" لم أتمكن من العثور عليه إنما ذكره عبد المنعم، شاكر محمود. **ابن حجر العسقلاني مصنفاته ودراسة في منهجه وموارده في كتابه الإصابة**، ج1، ط 1، مؤسسة الرسالة، د. ن. م، 1417هـ/ 1997م، ص16.

(2) المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (ت: 845هـ/ 1442م). السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، تح: محمد عبد القادر عطا، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ص17 – 31، ج7، ص459.

(3) وردت ترجمة ابن حجر العسقلاني متفرقة في كتاب طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة الذي كان معاصرا لابن حجر لمزيد من المعلومات انظر: بن قاضي شهبة، أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر (ت: 851هـ/ 1447م)، طبقات الشافعية، ط1، تح: الحافظ عبد العليم خان، د. ن. ط، عالم الكتب، بيروت، 1407هـ.

(4) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت: 874هـ/ 1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 15، د. ن. ط، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر، د. ن. ت، ص532، 533.

(5) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ/ 1505م)، طبقات الحفاظ، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ، ص552؛ نظم العقيان في أعيان الأعيان، ج1، تح: فيليب حتي، د. ن. ط، المكتبة العلمية، بيروت، د. ن. ت، ص45.

(6) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت902هـ/ 1497م)، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، ج1، تح: إبراهيم باجس عبد المجيد، ط 1، دار ابن حزم، بيروت، 1999م، ص101، 102.

(7) لمزيد من المعلومات انظر: عبد المنعم. **ابن حجر العسقلاني**، ج1، ص16، 17.

اسمه هو أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن حجر، يكنى بأبي الفضل ويلقب بشهاب الدين الكناني العسقلاني الأصل، ولد سنة (773هـ/ 1372م) في مصر ونشأ بها[1]، كان والده عالما فاضلا إلا أنه توفي وابنه أحمد في الرابعة من عمره، فنشأ في كنف زكي الدين أبي بكر بن نور الدين علي الخروبي (ت: 787هـ/ 1385م)، وأكمل حفظ القرآن وله تسع سنوات؛ وتعلم وهو صغير السن، لكنه فَتَر وتَرَاخَى لأنه لم يجد من يحثه على مواصلة طلب العلم حتى أكمل سبع عشرة سنة، ثم عاد للاهتمام بالعلم بعد أن لازم أحد أوصيائه من العلماء وحثّه على ذلك.

واشتغل بالحديث بعد أن أكمل ثلاثا وعشرين سنة، وصلى بالناس التراويح في مكة سنة (785هـ/ 1383م)، وبرع في العديد من العلوم مثل: اللغة، والنحو، والأدب، والفقه، والحديث. وله رحلة في طلب العلم، حيث تنقل في الديار المصرية ما بين الصّعِيد[2] والإسْكَندريّة[3] والجِيزَة[4]،

(1) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/ 1442م)، **درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة**، م 1، تح: محمود الجليلي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1423هـ/ 2002م، ص194؛ السخاوي، **الجواهر والدرر**، ج1، ص101، 102.

(2) الصعيد: بمصر بلاد واسعة كبيرة فيها عدة مدن عظام منها أسوان وهي أوله من ناحية الجنوب ثم قوص وقفط وإخميم والبهنسا وغير ذلك. ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت: 626هـ/ 1228م)، **معجم البلدان**، ج3، د. ن. ط، دار الفكر، بيروت، د. ن. ت، ص408.

(3) الإسكندرية: طولها إحدى وخمسون درجة وعرضها إحدى وخمسون درجة وعرضها إحدى وثلاثون درجة وهي في الإقليم الثالث، وقيل إن الإسكندرية في الإقليم الثاني، وقيل طولها إحدى وثلاثون درجة، واختلف في أول من أنشأ الإسكندرية التي بمصر، فقيل الإسكندر وقيل غيره. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج1، ص183 وما بعدها.

(4) الجيزة: بليدة في غربي فسطاط مصر قبالتها ولها كورة كبيرة واسعة، وهي من أفضل كور مصر. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج2، ص200.

كما رحل إلى بعض مدن بلاد الشّام وسمع بها، مثل: غزّة[1]، والقُدس، والخَليل[2]، ونابُلس[3]، والرَّملة[4]، ودِمَشق وغيرها، وكذلك رحل إلى اليَمن، فضلًا عن مَكّة والمَدِينَة، والتقى ابن حجر بشيوخ وعلماء الأماكن التي زارها وأخذ عنهم، أمثال: مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي الفيروز آبادي (ت: 817هـ/ 1415م)، ونجم الدين محمد بن أبي بكر بن علي المعروف بالمرجاني (ت: 827هـ/ 1424م)، وشمس الدين محمد بن محمد ابن محمد بن علي بن يوسف الجزري (ت: 833هـ/ 1429م)[5]، وغيرهم كثر.

وثّقه كثير من العلماء وأثنوا عليه، أمثال: برهان الدين إبراهيم الأبناسي (ت: 802هـ/ 1399م) الذي وصفه بالمحدِّث المتْقِن المحقِّق صَدر المدَرسّين مُفتي المسلمين، وكذلك أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين ابن عبد الرحمن ابن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (ت: 806هـ/ 1404م) الذي

(1) غزة: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل وهي من نواحي فلسطين. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج 4، ص202.

(2) الخليل: اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب البيت المقدس. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج2، ص387.

(3) نابلس: مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها كثيرة المياه لأنها لصيقة في جبل أرضها حجر بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج5، ص248.

(4) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها قد خربت الآن وكانت رباطا للمسلمين وهي في الإقليم الثالث طولها خمس وخمسون درجة وثلثان وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وثلثان وقال المهلبي الرملة من الإقليم الرابع. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج 3، ص69.

(5) السخاوي، **الجواهر والدرر**، ج1، ص107، 108، 146 – 161.

قال عنه: الفَاضِل المبْدع المفِيد الضابط الثقة المأمون[1]، وغيرهم كُثر ممن يصعب حصرهم[2].

وتولى عددًا من الوظائف مثل: القضاء، والتدريس، وله كثير من المؤلفات والتخاريج؛ فقد خرّج لنفسه معجما لشيوخه، ذكر فيه ترجمة كل شيخ أخذ عنه، والعلم الذي أخذه عنه، وكذلك "الأربعين المتباينة بشرط السماع المتصل" وغير ذلك، وتولى تدريس الحديث، وكانت له مجالس لإملاء الحديث، وتدريس الفقه في المدرسة الشيخونية[3] فضلاً عن أنه كان ينظم الشعر، توفي سنة (852هـ/ 1449م) وألفت كثير من الأشعار في رثائه[4].

ترجمة محمد بن عائذ الدمشقي:

اسمه هو محمد بن عائذ بن عبد الرحمن بن عبيد الله الدمشقي القرشي[5]

(1) السخاوي، **الجواهر والدرر**، ج1، ص264، 268 – 270.

(2) لمزيد من التفاصيل عن ثناء العلماء عليه انظر. السخاوي، **الجواهر والدرر**، ج1، ص264 – 337.

(3) هي خانقاه شيخو ثم أصبحت المدرسة الشيخونية، بناها الأمير الكبير رأس نوبة الأمراء الجمدارية سيف الدين شيخو العمري، ابتدأ عماراتها في المحرم سنة (756هـ/ 1355م) وفرغ من عمارتها في سنة سبع وخمسين وسبعمائة ورتب فيها أربعة دروس على المذاهب الأربعة، ودرس حديث، ودرس قراءات ومشيخة إسماع الصحيحين. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ/ 1505م)، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، ج2، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1387هـ/ 1969م، ص266.

(4) المقريزي، **درر العقود الفريدة**، م1، ص195 – 199؛ السخاوي، **الجواهر والدرر**، ج1، ص121 – 195.

(5) البخاري، محمد بن إسماعيل (ت: 256هـ/ 870م)، **التاريخ الكبير**، ج1، تح: مصطفى عبد القادر، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1429هـ/ 2008م، ص206؛ ابن أبي حاتم، عبد الرحمن (ت: 327هـ/ 939م)، **كتاب الجرح والتعديل**، ج8، ط 1، دار الكتب

يكنى أبا عبد الله[1] وقيل أبو أحمد[2]، وقد عمل في الخراج ولذلك اشتهر بلقب الكاتب[3]، وُلِدَ محمد بن عائذ سنة (150هـ/ 767م) في مدينة دِمشق، ونشأ وعاش بها، ولذلك عرف بالدمشقي نسبةً لها[4]. لم يذكر من ترجم له تحصيله العلمي، إلا أن والده عائذا كان من رواة الحديث، فقد روى

العلمية، بيروت، 1372هـ/ 1953م، ص52؛ ابن ماكولا، علي بن هبة الله (ت: 475هـ/ 1082م)، **الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**، ج6، تع: عبد الرحمن بن يحيى، ط 2، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1414هـ/ 1993م، ص11؛ ابن عساكر، علي بن الحسن (ت: 571هـ/ 1176م)، **تاريخ دمشق**، ج53، تح: محب الدين أبي سعيد، ط 1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1418هـ/ 1998م، ص288؛ المزي، جمال الدين أبو الحجاج (ت: 742هـ/ 1341م)، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال** ج25،، تح: بشار عواد معروف، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1431هـ/ 1992م، ص427؛ الذهبي، محمد بن أحمد (ت: 748هـ/ 1347م)، **سير أعلام النبلاء**، ج2، تع: نعيم حسين، المكتبة العصرية، بيروت، 1428/ 2007م، ص1173؛ ابن حجر: أحمد بن علي (ت: 852هـ/ 1448م)، **تهذيب التهذيب**، ج5، ط 2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1413هـ/ 1993م، ص156؛ الخزرجي، صفي الدين أحمد بن عبد الله (ت: 923هـ/ 1517م)، **خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، ج1، تح: عبدالفتاح أبو غدة، ط 5، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، 1416هـ، ص343؛ الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، ج6، ط 17، دار العلم للملايين، بيروت، 1428هـ/ 2007م، ص179.

(1) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج 2، ص1173.

(2) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج53، ص288؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج2، ص1173، 1174؛ الزركلي، **الأعلام**، ج6، ص179.

(3) أبو زرعة، عبد الرحمن بن عمر (ت: 281هـ/ 894م)، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، ج1، تح: شكر الله القوجاني، د. ن. ط، د. ن. د، د. ن. م، د. ن. ت، ص289؛ ابن حبان، محمد بن حبان (ت: 354هـ/ 965م)، **كتاب الثقات** ج9، ط 1، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1398هـ/ 1978م، ص75؛ ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج53، ص292.

(4) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج2، ص1174.

عن مطعم بن المقدام بن غنيم الصنعاني الشامي[1] وعاصره بعض شيوخ محمد بن عائذ، ووثقه كثير من العلماء[2]، ولعل ابنه محمد كان يحضر دروس الحديث عند والده. ومن المحتمل أن ابن عائذ قد تعلم في سن صغير، حيث إن أحد شيوخه[3] قد توفي وعُمْر ابن عائذ آنذاك حوالي سبع عشرة سنة.

وبلغ عدد شيوخه الذين تعلم على أيديهم حوالي خمسة وثلاثين شيخا تقريبا، معظمهم من الثقات، أمثال: أبي العباس الوليد بن مسلم الدمشقي (ت: 194هـ/ 809م)[4]، وأبي مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي (ت: 218هـ/ 833م)[5]، وأبي أحمد الهيثم بن حميد الغساني (ت: 190هـ/

(1) المزي، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، ج28، ص74 – 76.

(2) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج 26، ص169؛ المزي، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، ج8، ص74 – 77.

(3) سعيد بن عبد العزيز التنوخي كان أول شيوخ ابن عائذ وفاة، فقد توفي سنة (167هـ/ 783م) يعني بعد سبع عشرة سنة من ولادته. ابن حبان، محمد بن حبان (ت: 354هـ/ 965م)، **مشاهير علماء الأمصار**، تع: مجدي منصور، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416هـ/ 1995م، ص216.

(4) ابن سعد، محمد (ت: 230هـ/ 844م)، **الطبقات الكبرى**، ج7، تق: إحسان عباس، ط 1، دار صادر، بيروت، 1418هـ/ 1998م، ص470، 471؛ ابن خياط، خليفة بن أبي هبيرة (ت: 240هـ/ 854م)، **طبقات خليفة**، تح: أكرم ضياء العمري، ط 1، مطبعة العاني، بغداد، 1387هـ/ 1967م، ص317؛ ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ج63، ص274 – 285؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج2، ص775؛ العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى (ت: 855هـ/ 1451م)، **شرح سنن أبي داود**، ج2، تح: أبو المنذر خالد بن إبراهيم، ط 1، مكتبة الرشد، الرياض، 1999م، ص222.

(5) البخاري، **التاريخ الكبير**، ج5، ص345؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج7، ص473؛ ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج33، ص421 – 425؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج2، ص973 – 975؛ ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، ج3، ص313، 314؛ العيني، **شرح سنن أبي داود**، ج2، ص222.

805م)[1]، وأبي محمد سعيد بن عبد العزيز التنوخي الدمشقي (ت: 167هـ/ 783م)[2]، وأكثرهم من أهل الشام.

وثّقه كثير من العلماء وأثنوا عليه، وخاصة علماء الجرح والتعديل، وهم من رجال الحديث الذين يتبعون منهجية دقيقة في التعامل مع السند والمتن، أمثال: أبي زكريا يحيى بن معين بن عون بن زياد (ت: 232هـ/ 847م) فقد قال عنه: ثقة، وعبد الرحمن بن إبراهيم بن عمرو بن ميمون أبي سعيد القرشي الدمشقي المعروف بدحيم بن اليتيم (ت: 245هـ/ 859م) قال: صدوق، وكذلك أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ الرازي (ت: 264هـ/ 878م) قال عنه: صدوق، وقال أحمد بن شعيب النسائي (ت: 303هـ/ 915م): ليس به بأس[3]؛ ووثقه سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني المشهور بأبي داود (ت: 275هـ/ 892م)[4]، واعتبره محمد ابن حبان (ت: 354هـ/ 965م) من الثقات[5].

(1) البخاري، **التاريخ الكبير**، ج8، ص103؛ ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج74، ص107 - 115؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج2، ص973 - 975؛ ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، ج6، ص60، 61.

(2) ابن أبي حاتم، **كتاب الجرح والتعديل**، ج4، ص43، 42؛ ابن حبان، **مشاهير علماء الأمصار**، ص216.

(3) ابن أبي حاتم الرازي، **كتاب الجرح والتعديل**، ج8، ص52؛ ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، ج5، ص156، 157؛ العيني، **شرح سنن أبي داود**، ج2، ص222.

(4) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 3، ص181؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج 2، ص1173؛ ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، ج5، ص157.

(5) ابن حبان، **الثقات**، ج9، ص75؛ المزي، **تهذيب الكمال**، ج25، ص428، 429.

شغل عددا من الوظائف منها: التعليم، والفتوى، وكذلك تولى ديوان الخراج في الشام[1]، وله عدد من المؤلفات، إلا أنها فُقدت ضمن ما فقد من التراث الإسلامي، ولم يبقَ منها سوى روايات متناثرة في بطون الكتب، من هذه المؤلفات: المغازي، والفتوح، والصوائف، والجمل وصفين، وملح النوادر[2]. توفي سنة (232هـ/ 847م)[3].

المضمون التاريخي لاقتباسات ابن حجر ومنهجه في التعامل معها:

بلغ عدد اقتباسات ابن حجر ونقولاته عن ابن عائذ حوالي مئة وأحد عشر اقتباسا وردت في ثلاث مؤلفات، وهي: فتح الباري شرح صحيح البخاري وهو الأكثر، فكان عددها ثمانية وسبعون اقتباسا، ويليه الإصابة في تمييز الصحابة ثلاثون اقتباسا، ثم المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ثلاثة اقتباسات، أما عن مضمونها التاريخي فقد تناولت العهد النبوي وجزءا من العهد الراشدي حتى خلافة عثمان رضي الله عنه.

(1) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج53، ص292؛ المزي، **تهذيب الكمال**، ج25، ص427، 429؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج2، ص1173؛ ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، ج5، ص157.

(2) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج53، ص288؛ المزي، **تهذيب الكمال**، ج25، ص427؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج2، ص1174، 1173؛ ابن سيد الناس، **عيون الأثر**، ج2، ص439، 440؛ البغدادي، إسماعيل باشا، **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، ج2، د. ن. ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ن. ت، ص12؛ كحالة، عمر رضا، **معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية**، ج9، د. ن. ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ن. ت، ص117.

(3) ابن زبر الربعي، محمد بن عبد الله (ت: 379هـ/ 989م)، **تاريخ مولد العلماء ووفياتهم**، ج2، تح: عبد الله أحمد، ط 1، دار العاصمة، الرياض، 1410هـ/ 1989م، ص512.

أ. المضمون التاريخي لاقتباسات ابن حجر:

انقسمت اقتباسات العصر النبوي إلى قسمين: العهد المكي، والعهد المدني، وشملت نقولات العهد المكي بداية النبوة ونزول جبريل على النبي ﷺ في غار حراء، ودور السيدة خديجة رضي الله عنها في طمأنة النبي ﷺ[1]، والإسراء والمعراج[2]، وأسماء بعض مهاجري الحبشة[3]؛ بينما شملت نقولات العهد المدني قدوم بعض المهاجرين إلى المدينة[4]، وخروج النبي ﷺ مهاجرا إلى المدينة، وخط سيره، ثم وصوله ﷺ وبقائه عند بني عمرو بن عوف بقُبَاء[5]، ودخوله المدينة، وبناء المسجد النبوي وأن النبي ﷺ كان يرتجز وهو ينقل اللبن في أثناء البناء[6]، ثم ينتقل إلى غزوة بدر سنة (2هـ/ 623م) ومقولة الأنصار للنبي ﷺ بأنهم معه، ثم يورد بعض أحداث المعركة، وأسر العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ[7] والغنائم والاختلاف حول تقسيمها[8]، وسبب قتل كعب بن الأشرف اليهودي

(1) ابن حجر، أحمد بن علي (ت852هـ/ 1448م)، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج4، تح: علي محمد البجاوي، ط 1، دار الجبل، بيروت، 1992م، ص386.

(2) ابن حجر، أحمد بن علي (ت: 852هـ/ 1448م)، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج7، تح: محب الدين الخطيب، د. ن. ط، دار المعرفة، بيروت، د. ت. ن، ص259، 263، 269، 271.

(3) ابن حجر، **الإصابة**، ج1، ص665، 693، ج3، ص46، 107، 170.

(4) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص324، 326.

(5) قباء: وأصله اسم بئر هناك عرفت القرية بها، وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج 4، ص301.

(6) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص287 - 289، 293، 296، 297 - 299، 301، 304، 306 - 309، 343.

(7) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص358، 359، 384، 375، 385، 402، 407.

(8) ابن حجر، أحمد بن علي (ت: 852هـ/ 1448م)، **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، ج9، تح: سعد بن ناصر الشثري، ط 1، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، 1419هـ، ص534.

النضري لأنه كان يهجو النبي ﷺ والمسلمين ويحرض قريشا عليهم، ومن نفّذ المهمة من الصحابة[1]، وبعض أحداث غزوة أحد سنة (3هـ/ 624م) وإصابة النبي ﷺ وخوفه على قومه من العذاب في حال سقط شيء من دمه على الأرض، واستغفاره لهم بأنهم لا يعلمون، ووصف حمزة بن عبد المطلب بن هاشم (ت: 3هـ/ 624م) عم النبيﷺ في الحرب، ووصف وحشي بن حرب الحبشي وأين كمن لحمزة ثم اختفاؤه حتى توفي النبي ﷺ[2]، وغزوة يهود بني قريظة سنة (5هـ/ 626م) وحُكم سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل سيد الأوس فيهم، وأعداد القتلى[3]، وسبب قتل سلام بن أبي الحقيق اليهودي المكنى بأبي رافع لأنه أحد الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين في غزوة الأحزاب، وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة[4]؛ وقصة إسلام الحارث بن أبي ضرار واسمه حبيب، بن الحارث بن عائذ بن مالك بن جذيمة، وهو زعيم بني المصطلق سنة (6هـ/ 627م)[5]، وإرسال النبي ﷺ كتابا إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الغساسنة بغوطة دمشق (ت: 8هـ/ 630م) يدعوه إلى الإسلام سنة (6هـ/ 627م)[6]، وتوقيت خروج النبي ﷺ إلى خيبر سنة (6هـ/ 627م) بأنه بعد الحديبية بعشر ليال[7]، وقتل كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق - هو من

(1) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص420 - 423.

(2)

() ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص448، 450، 457 - 461، 466.

(3) ابن حجر، **الإصابة**، ج4، ص482، 483؛ **فتح الباري**، ج7، ص462، 463، 515 - 517.

(4) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص425، 426، 428.

(5) ابن حجر، **الإصابة**، ج1، ص673، 674.

(6) ابن حجر، **الإصابة**، ج6، ص266.

(7) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص580.

بني النضير خرج إلى خيبر بعد إجلاء بني النضير من المدينة -[1]، وبعض أحداث غزوة مؤتة[2] سنة)8هـ/ 629م)[3]، ثم فتح مكة سنة (8هـ/ 629م) وتخيير قريش قبلها بين ثلاث: أن يدفعوا دية قتيل خزاعة، أو يبرئوا من حلف بكر، أو ينبذ إليهم على سواء واختيارهم الخيار الثالث، وإرسالهم لأبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس (ت: 31هـ/ 652م) إلى المدينة ليجدد العهد، وما قوبل به من الرفض، وأسماء القبائل التي خرجت مع النبي ﷺ في فتح مكة، وخروج أبي سفيان، وحكيم بن حزام بن خويلد ابن أسد بن عبد العزى (ت: 54هـ/ 674م)، وبديل بن ورقاء بن عمرو بن ربيعة الخزاعي[4] لاستقصاء خبر المسلمين، وإرسال النبي ﷺ من يقبض على جواسيس قريش، وبعد دخوله مكة أمر ﷺ بقتل عبد الله بن خطل الفهري، وأعطى مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة بن عبد الله بن عبد العزى (ت: 41هـ/ 661م)[5]، ثم ذكر بعض من ثبت مع النبي ﷺ في غزوة حنين سنة (8هـ/ 629م)، وأخذ أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري (ت: 44هـ/ 664م) اللواء بعد مقتل عمه أبي عامر عُبَيْد بن سُلَيم بن حَضَّار الأشعري، والحوار الذي دار بين النبي ﷺ والأنصار بعد تقسيم غنائم حنين، وإصابة عين أبي سفيان يوم الطائف سنة (8هـ/ 629م)[6]، وتوقيت غزوة تبوك سنة (9هـ/ 630م) أنها بعد الطائف بستة أشهر، وتخلف

(1) ابن حجر، **الإصابة**، ج6، ص36.

(2) مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام وقيل مؤتة من مشارف الشام. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج5، ص220.

(3) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص643.

(4) لم أعثر على تاريخ وفاته.

(5) ابن حجر، **المطالب العالية**، ج 3، ص29، ج5، 463.

(6) ابن حجر، **فتح الباري**، ج8، ص5 - 10، 20 - 24.

كعب بن مالك الأنصاري (ت: 50هـ/ 670م) عن الخروج للغزوة[1]، وخروج النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار وصلاته عليه[2]، كما ورد ذكر علامة من علامات الساعة، وهي نزول عيسى بن مريم عند باب دمشق الشرقي[3].

أما نقولات العصر الراشدي فورد فيها: وصف لعمرو بن معد يكرب ابن عبد الله بن عمرو الزبيدي (ت: 21هـ/ 641م) في الحرب، وإيفاده على الخليفة عمر بعد فتح العراق[4]، وبعض المعارك التي حضرها عبد الله بن الزبير بن العوام (ت: 73هـ/ 692م)[5]، ومنع عمر بن الخطاب المسلمين الفاتحين في بلاد الشام من الزراعة[6]، وكيفية تقسيم دمشق بين الفاتحين ومراعاة المسلمين للمهزومين[7]، وعزل عمر لخالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي (ت: 21هـ/ 641م)، والحوار الذي دار بين عمر وعلقمة بن علاثة العامري (ت: 20هـ/ 640م)[8]، وتسمية عمر بن الخطاب لعمير بن سعد بن عبيد بن النعمان الأنصاري (مات في عهد عمر بن الخطاب) بنسيج وحده لإعجابه به[9]، ووفاة أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري (ت: 18هـ/ 639م)[10]، ومشورة

(1) ابن حجر، **الإصابة**، ج1، ص341، 342، ج3، ص94، ج4، ص77، ج5، ص551؛ **فتح الباري**، ج8، ص52 - 54، 95، 64.
(2) ابن حجر، **الإصابة**، ج4، ص461؛ **فتح الباري**، ج8، ص138، 141 - 145، 149، 152، 153.
(3) ابن حجر، **الإصابة**، ج6، ص325.
(4) ابن حجر، **الإصابة**، ج4، ص570، 571.
(5) ابن حجر، **الإصابة**، ج3، ص108.
(6) ابن حجر، **الإصابة**، ج5، ص65.
(7) ابن حجر، **الإصابة**، ج 3، ص26.
(8) ابن حجر، **الإصابة**، ج4، ص458، 459.
(9) ابن حجر، **الإصابة**، ج4، ص596.
(10) ابن حجر، **الإصابة**، ج3، ص478.

أبو عبد الله عمرو بن العـاص السـهمي القرشـي (ت: 43هـ/ 664م) فيمـن خـرج مـن أهـل مصـر - في زمـن الخليفــة عثمان بن عفـان - [1].

ويتضح لنا مما سبق أن الاقتباسات في معظمها تناولت العهد المدني، ووضحت من خلالها الهجرة إلى المدينة ومرحلة تأسيس الدولة ببناء المسجد النبوي وكذلك علاقة النبي ﷺ والمسلمين مع قريش، ومع اليهود، وبعض القبائل العربية، فضلا عن نزول عيسى بن مريم في آخر الزمان؛ بينما نجد العصر الراشدي اقتصر على إشارات لبعض الأحداث في زمن الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فقط، دون ذكر لبقية الخلفاء رضي الله عنهم أجمعين.

ب. منهج ابن حجر في التعامل مع اقتباساته عن ابن عائذ:

يظهر منهـج ابـن حجـر في التعامـل مـع الاقتباسـات في ثلاثـة نـواحٍ: ذكـره لاسـم المؤَلّـف الـذي اقتبـس منـه، والتعليـق على سلسـلة السـند، وكذلـكَ التعليـق على المتـن. ولعـل لبراعـة ابـن حجـر في علـم الحديـث الأثـر الواضـح على منهجيته في انتقـاء الاقتباسـات عـن ابـن عائـذ، وحتـى في التعليـق عليهـا، فنجـده حريصًـا على ذكـره اسـم مؤلّـف ابـن عائـذ الـذي أخـذ عنـه وهـو كتـاب المغـازي، حيـث صـرّح بذلـك حوالـي اثنتيـن وثلاثيـن مـرة، ولـم يكتـف بذلـك فقـط، إنمـا يذكـر مصـدر روايـة ابـن عائـذ، ومثـال ذلـك لا الحصـر قولـه: من طريـق محمـد بن مسـلم بن عبيد الله بن عبـد الله ابـن شـهاب الزهـري (ت: 124هــ/ 741م) عن سـعيد بن المسيب بـن حـزن ابـن أبـي وهـب القرشـي المخزومـي المـدني (ت: 94هـ/ 712م)[2]، من طريـق الوليـد ابـن محمـد الموقـري (ت: 182هـ/ 798م) عـن الزهـري[3]، من

(1) ابن حجر، **الإصابة**، ج3، ص108.

(2) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص259.

(3) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص293.

طريق أبي الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان (ت: 69هـ/ 688م) عن عروة ابن الزبير بن العوام (ت: 94هـ/ 712م)[1]، عن محمد بن شعيب بن شابور الدمشقي (ت: 200هـ/ 815م) عن عبد الله بن زياد[2]، عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز[3]، وغيرها كثير. كما أنه يقارن بين ما يجده عند ابن عائذ وغيره لزيادة تأكيد صحة الحدث ومن ذلك: عند ابن أبي حاتم وابن عائذ[4]، وعند ابن عائذ وسليمان بن أحمد الطبراني (ت: 360هـ/ 971م) في الأوسط[5]، روى البخاري في تاريخه وابن عائذ في المغازي[6].

أما بالنسبة للسند، فيلاحظ أن أغلب الاقتباسات تنتهي سلسلة سندها إلى ابن عباس، مما يعكس لنا حرص ابن حجر في الحصول على معلومات من مصدر موثوق[7]، ولكنه لا يُسَلِّم بذلك مطلقًا، إنما يعلق على السند في حال كان مرسلا[8] ومثال ذلك: وروى ابن عائذ في المغازي من طريق مرسل[9]،

(1) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص407.
(2) ابن حجر، **الإصابة**، ج1، ص673، 674.
(3) ابن حجر، **الإصابة**، ج3، ص94.
(4) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص271.
(5) ابن حجر، **فتح الباري**، ج8، ص54.
(6) ابن حجر، **الإصابة**، ج2، ص37.
(7) ابن حجر، **الإصابة**، ج4، ص107؛ **فتح الباري**، ج7، ص296، 297، 301، 304، 306، 326.
(8) المرسل هو: أن يقول التابعي الكبير: قال رسول الله ﷺ كذا وفعله، فهذا يسمى حديثا مرسلًا، فإن انقطع قبل التابعي واحد أو أكثر، فلا يسمى كذلك. والمرسل يختص بالتابعي عن النبي، فإن سقط قبله فهو منقطع. السيوطي، جلال الدين (911هـ/ 1505م)، **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، ج1، تح: نظر الفريابي، ط 2، مكتبة الكوثر، الرياض، 1415هـ/ 1994م، ص219.
(9) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص402.

ورأيت في هذا الحديث زيادة من وجه آخر مرسل أخرجها ابن عائذ[1]، وعند ابن عائذ من مرسل المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومي (ت: 120هـ/ 737م)[2]، وذكر محمد بن عائذ في المغازي بسند فيه إرسال[3]؛ وأحيانا يكون السند منقطعًا[4]، ومثال ذلك: وذكر ذلك ابن عائذ في المغازي عن محمد بن شعيب عن عبد الله بن زياد منقطعا[5]، ثم وجدت في مغازي ابن عائذ بسند منقطع[6]؛ وأحيانًا يكون السند ضعيفًا ومثال ذلك: وروى ابن عائذ بسند ضعيف إلى ابن عباس[7]، وقوله لكن يعكر ذلك ما أخرجه محمد بن عائذ في المغازي من طريق عثمان ابن عطاء بن أبي مسلم الخراساني (ت: 155هـ/ 771م)... كذا قال، لكن عثمان ضعيف[8]، ولا يتردد في التعليق على صحة السند، ومثال ذلك: أخرج أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت: 235هـ/ 867م) وابن عائذ وابن السكن أبو علي سعيد بن عثمان بن سعيد (ت: 353هـ/ 964م) وسيف بن عمر التميمي (ت: 180هـ/ 796م) والطبراني وغيرهم بسند صحيح[9].

(1) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص448.

(2) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص450.

(3) ابن حجر، **الإصابة**، ج6، ص226.

(4) المنقطع هو: ما لم يتصل إسناده على أي وجه كان انقطاعه، وأكثر ما يستعمل في رواية منْ دون التابعي عن الصحابي. وقيل: هو ما اختل منه رجل قبل التابعي محذوفًا كان أو مبهمًا. السيوطي: **تدريب الراوي**، ج1، ص235.

(5) ابن حجر، **الإصابة**، ج 1، ص673، 674.

(6) ابن حجر: **فتح الباري**، ج7 ص643.

(7) ابن حجر: **الإصابة**، ج4 ص461.

(8) ابن حجر: **الإصابة**، ج6 ص476.

(9) ابن حجر، **الإصابة**، ج4، ص570.

أما ما يختص بالتعليق على المتن، فنلاحظ أنه لا يقبل بالرواية كما هي، بل يقوم بتصحيحها في حال كانت له وجهة نظر، ومثال ذلك: "وأما ما رواه ابن عائذ، ومن طريقه مُحمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده (ت: 395هـ/ 969م)، من رواية عطاء بن أبي مسلم الخراساني (ت: 135هـ/ 752م) عن أبيه عن ابن عباس في مهاجرة الحبشة: الحارث بن معمر، فولد له حاطب بن الحارث فهو غلطٌ بيّن، والذي ولد له هو حاطب، والمولود الحارث بن حاطب"[1]، وقوله "كذا رواه ابن عائذ وزاد" يحدد ما أضافه ابن عائذ على الرواية في مقارنة مع ما ورد عند غيره[2]. كما أنه يعلق بعبارة "وقد أفرده ابن عائذ في المغازي"[3] إذا وجد ما انفرد به مما يدل على استخدامه المقارنة، فضلًا عن ذكره سبب تسمية بعض المواضع الجغرافية، ومثال ذلك: أنه في أثناء مسير الجيش المتجه إلى مؤتة مروا بقرية قَتل أهلها رجلا من المسلمين، وفي أثناء عودتهم مروا بتلك القرية، وفيها حصن فحاصرهم المسلمون وفتحوه عنوة، وقتل خالد بن الوليد مقاتلتهم، فسمي ذلك المكان نقيع الدم إلى اليوم"[4]، وكذلك إذا نقل شك ابن عائذ في الرواية فيعلق عليها "لكنه صدّره بقوله زعموا"[5].

ويظهر لنا مما سبق بروز شخصية ابن حجر في اقتباساته وتعليقاته، وهذا يعطي دلالة على ما وصل إليه من سعة العلم والاطلاع والمعرفة، وتأثره بعلم الحديث.

(1) ابن حجر، **الإصابة**، ج1، ص693.
(2) ابن حجر، **الإصابة**، ج3، ص46.
(3) ابن حجر، **الإصابة**، ج4، ص458، 459.
(4) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص293.
(5) ابن حجر، **فتح الباري**، ج7، ص643.

مقارنة بين اقتباسات ابن حجر وبعض المعاصرين واللاحقين له من مؤلفات ابن عائذ:

اقتبس عن ابن عائذ بعض من المؤرخين المعاصرين واللاحقين لابن حجر في عدد من مؤلفاتهم، ولعل من أبرز المعاصرين: العيني (ت: 855هـ/ 1451م) في مؤلفه "عمدة القارئ" والبقاعي (ت: 885هـ/ 1451م) في مؤلفه "نظم الدرر"؛ أما المتأخرون فمن أبرزهم: السيوطي (ت: 911هـ/ 1505م) في مؤلفين هما: "جامع الأحاديث" و"الخصائص الكبرى"، والشامي (ت: 942هـ/ 1535م) في مؤلفه "سبل الهدى والرشاد"، والهندي (ت: 975هـ/ 1567م) في مؤلفه "كنز العمال". وقد تفاوتت تلك الاقتباسات والنقولات في العدد والموضوعات، وتفصيلها كالتالي:

ورد عند العيني قرابة ست اقتباسات، كانت موضوعاتها في العصر النبوي فقط، ولعل ذلك يعود لطبيعة مؤلفه؛ لأنه شرح لصحيح البخاري، تناولت: هجرة بعض الصحابة إلى المدينة، ثم توجه بعضهم إلى الشام[1]، وغزوة بدر في موضعين، أحدها: خوف عبدالرحمن بن عوف القرشي الزهري (ت: 32هـ/ 656م) من أن يؤتى الناس من جهته؛ لأنه بين غلامين صغيري السن، والآخر أسر العباس عم النبي ﷺ في الغزوة[2]، وموقف أبي بصير عُتبة بن أُسيد بن جارية الثقفي (توفي في حياة النبي ﷺ) في صلح الحديبية وما حصل له[3]، وكذلك تخلف كعب بن مالك عن

(1) العيني، بدر الدين محمود بن أحمد (ت855هـ/ 1451م)، **عمدة القارئ شرح صحيح البخاري**، ج17، د. ن. ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت. ن، ص60.

(2) العيني، **عمدة القارئ**، ج17، ص98، 116.

(3) العيني، **عمدة القارئ**، ج14، ص15.

غزوة تبوك في موضعين منها إعراض النبي ﷺ عنه، والآخر إرسال جَبَلة بن الأيهم ملك غسان في الشام إلى كعب يدعوه للقدوم عليه وترك النبي ﷺ[1].

تشابهت موضوعات العيني مع ما ورد عند ابن حجر في أربع منها، إلا أنه انفرد بذكر أبي بصير في أحداث صلح الحديبية، وكذلك أن من أرسل لكعب بن مالك ليقدم عليه في الشام هو جبلة بن الأيهم. أما من حيث المنهجية فالعيني كان حريصا على ذكر مؤلف ابن عائذ الذي نقل عنه وهو المغازي أسوة بابن حجر بحيث وضح ذلك في جميع المواضع التي اقتبسها ومثال ذلك قوله: في مغازي ابن عائذ[2]، وروى ابن عائذ في المغازي[3]. كما أنه كان يعلق على السند مثل: عن الأوزاعي أبي عمرو عبدالرحمٰن بن عمرو بن يُحمد (ت: 157هـ/ 774م) عن الزهري[4]، أخرج هذه القصة مطولة بإسناد منقطع[5]، من طريق مرسل[6]، بإسناد له عن ابن عباس[7].

وورد ذكر ابن عائذ عند البقاعي في موضع واحد فقط، نقله ابن سيد الناس عن ابن عائذ، حول إرسال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب بإعطاء فرصة أربعة أشهر ليرجع كل قوم إلى مأمنهم ولا يطوف بالبيت عريان، ثم لا أمان لأحد بعدها، لكن المشركين لما فرض ذلك الأجل رفضوا وقالوا: بل الآن، وتبرأوا

(1) العيني، **عمدة القارئ**، ج18، ص53.
(2) العيني، **عمدة القارئ**، ج17، ص98، ج18، ص53.
(3) العيني، **عمدة القارئ**، ج17، ص60، 116.
(4) العيني، **عمدة القارئ**، ج14، ص15.
(5) العيني، **عمدة القارئ**، ج17، ص98.
(6) العيني، **عمدة القارئ**، ج17، ص116.
(7) العيني، **عمدة القارئ**، ج17، ص60.

من علي ومن محمد[1]. ويبدو أن البقاعي هنا لم يطلع على مؤلف ابن عائذ، إنما نقل عن ابن سيد الناس فقط الذي بدوره نقل عن ابن عائذ.

وذكر السيوطي عددًا من الأحداث وردت عنده في كتابين هما: الخصائص الكبرى، وجامع الأحاديث، اقتبسها عن ابن عائذ؛ فمنها ما يختص بالعصر النبوي، وهي ثلاثة؛ ومنها ما يختص بالعصر الراشدي وهو حدث واحد. وبالنسبة للنبوي فقد ورد عنده قدوم الحارث ابن أبي ضرار لفداء ابنته بعد المريسيع[2] وإسلامه، ويبدو أنه قد نقل عن ابن عساكر الذي نقل الكثير عن ابن عائذ حيث ورد عنده: "أخرج ابن عساكر من طريق ابن عائذ أخبرني محمد ابن شعيب. . . "[3]. وقد ذكر ابن حجر هذا الحَدث. كما ورد عنده أحداث عن غزوة مؤتة، وخاصة في استشهاد القادة الثلاثة وهم: زيد بن حارثة بن شراحيل، وعبدالله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، وجعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي، ثم تولي خالد بن الوليد القيادة، وهذا الاقتباس ذكر فيه أنه

(1) البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر (ت 855هـ/ 1451م)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج3، تح: عبد الرزاق غالب المهدي، د. ن. ط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ص264.

(2) المَرَيْسِيع: ماء لبني خزاعة من ناحية قَديد إلى الساحل. ابن هشام عبد الملك بن قريب (ت: 218هـ/ 833م): **السيرة النبوية**، تح: محمد علي قطب وزميله ج3، د. ن، ط، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1998م، ص264؛ وهو جزء من حورة أحد روافد ستارة، وستارة وقديد وادٍ واحد، إنما الذي أوهم الباحثين في تحديده هو قول ابن إسحاق: (إلى الساحل)، والواقع أنه داخل عن الساحل، بينه وبين سيف البحر 80 كيلًا بين جبال تهامة، وأهله اليوم سُليم. البلادي، عاتق بن غيث، **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**، ط 1، دار مكة، مكة المكرمة، 1982م، ص290، 291.

(3) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ/ 1505م)، **الخصائص الكبرى**، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م، ص392.

ذكر ذلك ابن عائذ وابن عساكر عن العطاف بن خالد المخزومي (ت: 179هـ/ 795م) وبسند مرسل[1]؛ فهو يعلق على السند بأنه مرسل. وكذلك ذكر غزوة ذات السَّلاَسِلِ[2] سنة (8هـ/ 629م) من مشارف الشام بقيادة عمرو بن العاص، ثم أمدهم النبي ﷺ بمدد من المهاجرين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وإطاعة أبي عبيدة لعمرو بن العاص[3]، إلا أنه سبقها عن ابن عائذ وذكر السند كاملا حتى عروة، ولم يرد ذلك عند ابن حجر. وقد اقتبس ابن حجر غزوة مؤتة عن ابن عائذ، لكن دون تفاصيل سوى سبب تسمية موضع نقيع الدم بهذا الاسم؛ لأنه وجد عنده توضيحا للتسمية.

أما العصر الراشدي فقد أورد عن ابن عائذ اقتباسا واحدا، ذكر فيه تسيير أبي بكر الصديق لجيش أسامة بن زيد بن حارثة (ت: 54هـ/ 673م) بعد انتهاء البيعة، وبداية الردة سنة (11هـ/ 632م)[4]. سبقها عن ابن عائذ، وذكر السند كاملا حتى عروة. وهو بذلك قد اقتبس عن ابن عائذ، لكنه لم يحدد اسم المؤَلف الذي أخذ عنه، ولم يُعلق. ولم يرد ذلك عند ابن حجر.

---

(1) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ/ 1505م)، **جامع الأحاديث (الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير)**، ج2، جمع وترتيب: عباس أحمد وأحمد عبد الجواد، د. ن. ط، دار الفكر، د. م. ن، 1994م، ص93.

(2) ذات السلاسل: ماء بأرض جذام يقال له السلسل؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج4 ص239؛ وذات السلاسل من أرض بني عُذرة، والسلسل ماء بأرض جذام، والقبيلتان متجاورتان، فديار عُذرة كانت من وادي القرى (وادي العلا اليوم) إلى تبوك إلى تيماء، وتقرب من خيبر شمالا، وديار جذام كانت بين تبوك والبحر. البلادي، **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**، ص159.

(3) السيوطي، **جامع الأحاديث**، ج21، ص84.

(4) السيوطي، **جامع الأحاديث**، ج13، ص216، 217؛ ج18، ص439، 440.

ورد ذكر ابن عائذ عند الشامي في كتابه "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد" عدة مرات قرابة إحدى وأربعين مرة، تناولت جميعها سيرة النبي ﷺ، وهي كالتالي: اقتباسان عن العهد المكي، والبقية عن العهد المدني، أما بالنسبة للموضوعات فتناول المكي حادثة شق الصدر في بلاد بني سعد، والمعراج، فذكر أن النبي ﷺ رأى إبراهيم في السماء السابعة، والأواني الثلاثة المغطاة[1]، أما المدني فورد فيه: مكوث النبي ﷺ في بني عمرو بن عوف، والمسجد الذي أسس على التقوى[2]، وأول من أتى النبي ﷺ من اليهود أبو ياسر بن أخطب النضري ورفض اليهود إطاعته[3]، وسرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب إلى رابغ[4] سنة (1هـ/ 622م)[5]، وسرية سعد بن أبي وقاص سنة (2هـ/ 623م) إلى حي من قبيلة كنانة[6]، وبعض أحداث غزوة بدر في ستة مواضع، منها: المدة التي قضتها قريش في مسيرها، ومقولة المشركين لما رأوا قلة عدد المسلمين، وما قاله النبي ﷺ بعد قتل أبي جهل، والاختلاف في تقسيم الغنائم، وتسمية بعض من شهد بدرا[7]، وسبب قتل كعب بن الأشرف اليهودي أنه حالف قريش على

(1) الشامي، محمد بن يوسف الصالحي (ت: 942هـ/ 1535م)، **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، ج2، ج3، تح: عادل أحمد وعلي محمد معوض، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1414هـ، ج2، ص51؛ ج3، ص114.

(2) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج3، ص267.

(3) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج3، ص383.

(4) رابغ: بين الحجفة وودان، وقيل رابغ واد من دون الجحفة، يقطعه طريق الحاج من دون عزور، وقيل بطن رابغ واد من الجحفة له ذكر في المغازي وفي أيام العرب على عشرة أميال من الجحفة فيما بين الأبواء والجحفة. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج3 ص11.

(5) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج6، ص13.

(6) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج6، ص17.

(7) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج4، ص20، 28، 33، 52، 58، 92.

قتال المسلمين عند أستار الكعبة[1]، وفي غزوة أُحد موضعان هما: الأسهم التي رمى بها سعد بن أبي وقاص، عدد الصحابة الذين بقوا حول النبي ﷺ[2]، وذكر ممن استشهد في بئر معونة في نجد سنة (4هـ/ 625م) المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح، ذكر ابن عائذ في استشهاده في بني قريظة[3]، وإسلام الحارث بن أبي ضرار[4]، وموضعين في سرية الغمر[5] عند ماء لبني أسد سنة (6هـ/ 627م) بقيادة عكاشة بن محصن الأسدي (ت: 11هـ/ 632م) التي ورد عند ابن عائذ أن الأمير هو ثابت بن أقرم بن ثعلبة (ت: 11هـ/ 632م) وتعداد لأسماء بعض الصحابة فيها[6]، وثلاثة مواضع عن غزوة بني قريظة، وفيها النداء للمسلمين للخروج "يا خيل الله اركبي"، وحكم سعد بن معاذ في بني قريظة[7]، وفي غزوة الحُديبية موضعين، أحدهما: عن المدة التي أقامها النبي ﷺ، والآخر: مدة الصلح بينه وبين المشركين من قريش[8]، وسرية إلى اليسير بن رزام سنة (6هـ/ 628م) كان فيها عبد الله بن عتيك بن قيس بن الأسود الأنصاري (ت:

(1) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج6، ص26.
(2) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج4، ص201، 249.
(3) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج6، ص61.
(4) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج4، ص354.
(5) الغَمْر: واد بنجد. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج4 ص211؛ ذكر البلادي أنها غَمْرة وهي محطة من محطات الحاج العراقي قديما، على الضفة الشرقية لوادي العقيق، حين يمر بين عُشيرة والمسلح شمال شرقي مكة على ست مراحل. وهذا عقيق عُشيرة. البلادي، **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**، ص228.
(6) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج6، ص77.
(7) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج5، ص4، 11، 97.
(8) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج5، ص57، 76.

12هـ/ 633م)[1]، وفي غزوة خيبر سنة (7هـ/ 628م) أورد المدة التي أقامها النبي ﷺ بعد الرجوع من الحديبية[2]، وسرية مؤتة في موضعين أحدهما: اختيار خالد بن الوليد لتولي القيادة، والآخر: فتح الحصن الذي هاجم أهله المسلمين وهم في طريق ذهابهم إلى مؤتة[3]، وفتح مكة في أربعة مواضع، وهي: ندم قريش على عون بني نفاثة بعد تخييرهم بين ثلاث: أن يدفعوا دية قتيل خزاعة، أو يبرئوا من حلف بكر، أو ينبذ إليهم على سواء، واختيارهم الخيار الثالث، ونزول النبي ﷺ ومن معه من المسلمين مر الظهران، وأمره لأصحابه بإيقاد عشرة آلاف نار، وإعطاء النبي ﷺ عثمان بن طلحة مفاتيح الكعبة، وطلب علي بن أبي طالب من النبي ﷺ أن يجمع لهم السقاية والحجابة[4]، واقتباسان عن غزوة حنين سنة (8هـ/ 629م) وهما: إرسال النبي ﷺ على خيل الطلب بعد هزيمة المشركين أبا عامر وأبا موسى الأشعري، وأن ابن دريد بن الصمة من قبيلة هوازن هو من قتل أبا عامر[5]، وثلاثة اقتباسات عن غزوة تبوك، وهي: أن مهدي بن عبد الرحمن هو أحد البكائين، وتخلف كعب بن مالك عن الغزوة، وتوقيت الغزوة أنها بعد الطائف بستة أشهر[6]، واقتباسان هما عبارة عن دعائين، أحدهما لمعاوية بن أبي سفيان (ت: 60هـ/ 679م) بالحُلم، والآخر لثابت بن يزيد (ت: 45هـ/ 665م) لأن رجله عرجاء فاستوت مع الأخرى[7].

(1) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج6، ص111.
(2) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج5، ص153.
(3) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج6، ص151، 155.
(4) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج5، ص204، 205، 214، 244.
(5) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج6، ص107، 206.
(6) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج5، ص439، 474 – 476، 479.
(7) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج7، ص381، ج10 ص204.

وبناء على ما ورد عند الشامي من اقتباسات، نلاحظ أنه تشابه مع ابن حجر في بعضها من حيث المضمون التاريخي، ومثال ذلك: حادثة المعراج، إلا أن ابن حجر ذكرها بتفصيل أكثر، ومكوث النبي ﷺ في بني عمر بن عوف إلا أن ابن حجر أيضا ذكر ذلك بتفاصيل أكثر مع خط سير الهجرة النبوية، وورد عندهما قدوم أبي ياسر بن أخطب إلى النبي ﷺ ورفض قومه اتباعه، وفي غزوة بدر ورد عندهما الاختلاف في تقسيم الغنائم، إلا أن الشامي أضاف تفاصيل لم ترد عند ابن حجر، وسبب قتل كعب بن الأشرف، إلا أن ابن حجر أضاف من نفذ المهمة من الصحابة، وورد عندهما أيضا الأسهم التي رمى بها سعد بن أبي وقاص، وعدد الصحابة الذين بقوا حول النبي ﷺ في غزوة أحد، إلا أن ابن حجر أضاف تفاصيل أكثر للغزوة، وكذلك ورد لديهما إسلام الحارث بن أبي ضرار، وأيضا غزوة بني قريظة وحكم سعد بن معاذ فيهم، واتفقا على المدة التي بقيها النبي ﷺ بعد الرجوع من الحديبة ثم خرج إلى خيبر، أما مؤتة فتشابها في فتح الحصن الذي هاجم أهله المسلمين في طريق ذهابهم، إلا أن ابن حجر أورد تفاصيل أكثر، أما في فتح مكة فيتشابهان في ندم قريش على اختيارهم خيار الحرب، ونزول المسلمين بمر الظهران، وإعطاء عثمان بن طلحة مفاتيح الكعبة؛ إلا أن ابن حجر يورد تفصيلات أكثر، وتشابها أيضا في إرسال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري وأبي عامر لطلب المشركين بعد حنين، إلا أن ابن حجر وردت لديه تفاصيل أكثر، وكذلك تشابها في ذكر تخلف كعب بن مالك عن الخروج في غزوة تبوك.

ومما سبق يتبين أن الشامي قد تشابه مع ابن حجر في المضمون التاريخي لكثير من الاقتباسات إلا أن ابن حجر يورد تفاصيل أكثر؛ وفي المقابل انفرد

الشامي باقتباسات لم يذكرها ابن حجر مثل: ذكره عددا من السرايا، وبالأخص سرية عبيدة بن الحارث، وسرية سعد بن أبي وقاص، وكذلك بئر معونة، وسرية عكاشة بن محصن، والسرية المرسلة إلى اليسير بن رزام.

أما من حيث السند فيلاحظ أن الشامي تختلف طريقته في إيراد اقتباسات ابن عائذ، ففي بعض الأحيان يورد اقتباسه عن ابن عائذ مباشرة دون ذكره للسند وهو الأغلب، ومثال ذلك: وروى ابن عائذ[1]، قال ابن عائذ[2]، ولفظ ابن عائذ[3]، عند ابن عائذ[4]، ذكر ابن عائذ[5]؛ وفي أحيان أخرى، وهي الأقل يذكر السند كاملا، لكنه يعلق عليه إذا كان مرسلًا أو صحيحًا أو حسنًا، ومثال ذلك: روى ابن عائذ عن يحيى بن حمزة بن واقد الحضرمي الحميري (ت: 183هـ/ 799م) مرسلا عن سعد بن أبي وقاص[6]، روى ابن عائذ عن المطلب بن عبد الله مرسلا[7]، وعند ابن عائذ والطبراني بسند حسن عن أبي موسى، وعند ابن عائذ والطبراني في الأوسط بسند حسن من وجه آخر عن أبي موسى الأشعري[8]؛ أما

(1) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج 3، ص335، ج4 ص52، 383، 249، ج5، ص205، 244.

(2) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج 4، ص28، 33، 92، ج5، ص57، ج6، ص155، ج7، ص381.

(3) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج 4، ص58.

(4) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج3، ص114، 267، ج5، ص11، 474، 476، 479، ج6، ص206.

(5) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج 6، ص17، 26، 61، 77، 111، 151.

(6) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج4، ص201.

(7) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج 4، ص249.

(8) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج 6، ص107، 206.

مؤلف ابن عائذ الذي اقتبس منه فلم يصرح بذكره سوى في ثلاثة مواضع هي: ووقع في مغازي ابن عائذ، وذكر ابن عائذ في مغازيه[1]. كما أن الشامي يعلق على المعلومات التي يقتبسها، ومثال ذلك: يعلق ويضيف أن ختم النبوة قد وضع في موضعين من جسد النبي، وكذلك يعلق على ما ذكره ابن حجر في وصفه لخاتم النبوة بأنه "كأثر المحجم أو كالشامة السوداء أو الخضراء مكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أو سر فإنك المنصور"، بأنه لم يثبت من ذلك شيء[2]، وذكر ابن عائذ فيهم - يقصد البكائين - مهدي بن عبد الرحمن، يعلق الشامي أنه لم ير له ذكرًا فيما وقف عليه من كتب الصحابة[3]، ذكر ابن عائذ - في سرية سعد بن أبي وقاص - فيهم سهل بن بيضاء، ولم يذكر سهيلا ولا خالدا ولا عكاشة[4]، زاد ابن عائذ لقيط بن أعصم حليف بني عمرو بن عروة، فيعلق عليه الشامي، ولم أر فيما وقفت عليه من كتب الصحابة من اسمه لقيط واسم أبيه أعصم، ولكن الذي رأيته لقيط بن عصر[5].

وورد ذكر ابن عائذ عند الهندي في مؤلفه "كنز العمال" في موضعين عن العهد النبوي المدني، الأول: غزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل، والمدد الذي أرسله النبي ﷺ بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح، وقد ذكر السند كاملا، وتفاصيل للغزوة وإطاعة أبي عبيدة لعمرو، ولم يرد ذلك عند ابن حجر[6]، والثاني

(1) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج2، ص51، ج5 ص76، ج6، ص151.

(2) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج2، ص51.

(3) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج5، 439.

(4) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج6، ص17.

(5) الشامي، **سبل الهدى والرشاد**، ج 6، ص77، 78.

(6) الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين (ت: 975هـ/ 1567م)، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، ج10، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ص252.

غزوة تبوك، ومن كانت موجهة لهم، ومدة إقامة النبي ﷺ، وقدوم وفد أذرح[1] وأيلة[2]، ومصالحة النبي ﷺ لهم على دفع الجزية، وقد ذكر السند كاملا إلا أنها دون تفاصيل[3]، كما أنه لم يعلق على السند أو يذكر مؤلف ابن عائذ المقتبس منه، وقد ذكر ابن حجر غزوة تبوك بتفاصيل أكثر.

ومما سبق يتضح لنا أن ابن حجر لم يكن هو من اقتبس عن ابن عائذ فقط، إنما كان هناك عدد من المؤرخين المعاصرين واللاحقين له اقتبسوا عنه أيضا، وقد تفاوتت اقتباساتهم من حيث العدد إلا أنها تلتقي في الفترة الزمنية وهي العصر النبوي. باستثناء السيوطي الذي وردت عنده اقتباسات عن العصر الراشدي.

الخاتمة:

توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج من أهمها:

- اهتمام ابن حجر بالتقصي والبحث عن المصادر المتقدمة التي كان كتاب المغازي لابن عائذ واحدا منها.
- حرص ابن حجر على التدقيق في الاقتباسات والتعليق عليها سواء للسند أو المتن.

(1) أَذْرُح: بلد في أطراف الشام، من أعمال الشراة ثم من نواحي البلقاء وعمّان، مجاورة لأرض الحجاز. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج1 ص129؛ وهي قرية أردنية تجاور الجرباء. البلادي، **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**، ص21.

(2) أيْلَة: مدينة على ساحل بحر القلزم، مما يلي الشام، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام، وهي مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج1 ص292؛ وهي العَقَبة حاليا. ذيب: **معجم أسماء المدن والقرى في بلاد الشام الجنوبية**، ص207، 208.

(3) الهندي، **كنز العمال**، ج10، ص252.

- أن التركيز في المضمون التاريخي للاقتباسات عند ابن حجر كان عن العهد النبوي المدني أكثر من المكي والعصر الراشدي.
- أن المضمون التاريخي لاقتباسات الشامي هو الأكثر تشابها مع ما ورد عند ابن حجر من بقية المؤرخين، وكذلك في منهجية الكتابة إلى حد كبير أكثر من البقية.
- ورود ذكر كتاب المغازي لابن عائذ في تلك الفترة المتأخرة ما بعد منتصف القرن العاشر الهجري، يعطينا دلالة على أنه ما زال متداولا بين العلماء، ولا نعلم سبب فقدانه مع غيره من مؤلفات ابن عائذ التي لم يرد لها ذكر سوى عند من ترجم له.

التوصيات:

حث الباحثين في مجال الدراسات التاريخية على إبراز بعض المؤلفات المفقودة وهيكلتها وإعادة تجميعها عبر من نقل عنهم وحفظ لنا جزءا مهما من مؤلفاتهم؛ لمحاولة سد بعض الثغرات، وإبراز أدوار بعض المؤرخين المطمورين الذين لم يعد لهم ذكر بسبب فقدان مؤلفاتهم، والذين كانوا فيما مضى مقصدا لطلاب العلم.

قائمة المصادر والمراجع:

1. البخاري محمد بن إسماعيل (ت: 256هـ/ 870م)، **التاريخ الكبير**، تح: مصطفى عبد القادر، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1429هـ/ 2008م.
2. البغدادي، إسماعيل باشا، **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، د. ن. ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت. ن.
3. البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (ت: 855هـ/ 1451م)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، تح: عبد الرزاق غالب المهدي، د. ن. ط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م.
4. البلادي، عاتق بن غيث، **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**، ط 1، دار مكة، مكة المكرمة، 1982م.
5. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت: 874هـ/ 1469م)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج 15، د. ن. ط، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر، د. ن. ت.
6. ابن أبي حاتم، عبد الرحمن (ت: 327هـ/ 939م)، **كتاب الجرح والتعديل**، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1372هـ/ 1953م.
7. ابن حبان، محمد بن حبان (ت: 354هـ/ 965م)، **كتاب الثقات**، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1398هـ/ 1978م.
8. ابن حبان، محمد بن حبان (ت: 354هـ/ 965م): **مشاهير علماء الأمصار**، تع: مجدي منصور، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416هـ/ 1995م.
9. ابن حجر، أحمد بن علي (ت: 852هـ/ 1448م)، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تح: علي محمد البجاوي، ط 1، دار الجبل، بيروت، 1992م.
10. ابن حجر: أحمد بن علي (ت: 852هـ/ 1448م)، **تهذيب التهذيب**، ط 2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1413هـ/ 1993م.
11. ابن حجر، أحمد بن علي (ت: 852هـ/ 1448م)، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تح: محب الدين الخطيب، د. ن. ط، دار المعرفة، بيروت، د. ت. ن.

12. ابن حجر، أحمد بن علي (ت: 852هـ/ 1448م)، **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، تح: سعد بن ناصر الشثري، ط 1، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، 1419هـ.

13. الخزرجي، صفي الدين أحمد بن عبد الله (ت923هـ/ 1517م)، **خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تح: عبد الفتاح أبو غدة، ط5، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، 1416هـ.

14. ابن خياط، خليفة بن أبي هبيرة (ت: 240هـ/ 854م)، **طبقات خليفة**، تح: أكرم ضياء العمري، ط 1، مطبعة العاني، بغداد، 1387هـ/ 1967م.

15. الذهبي، محمد بن أحمد (ت: 748هـ/ 1347م)، **سير أعلام النبلاء**، تع: نعيم حسين، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت، 1428/ 2007م.

16. الذيب، منير، **معجم أسماء المدن والقرى في بلاد الشام الجنوبية**، د. ن. ط، دار العراب، د. ن. م، 2011م.

17. ابن زبر الربعي، محمد بن عبد الله (ت: 379هـ/ 989م)، **تاريخ مولد العلماء ووفياتهم**، تح: عبد الله أحمد، ط 1، دار العاصمة، الرياض، 1410هـ/ 1989م.

18. أبو زرعة، عبد الرحمن بن عمر (ت: 281هـ/ 894م)، **تاريخ أبي زرعة الدمشقي**، تح: شكر الله القوجاني، د. ن. ط، د. م. ن، د. ت. ن.

19. الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، ط 17، دار العلم للملايين، بيروت، 1428هـ/ 2007م.

20. السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت: 902هـ/ 1497م)، **الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر**، تح: إبراهيم باجس عبد المجيد، ط 1، دار ابن حزم، بيروت، 1999م.

21. ابن سعد، محمد (ت: 230هـ/ 844م)، **الطبقات الكبرى**، تق: إحسان عباس، ط 1، دار صادر، بيروت، 1418هـ/ 1998م.

22. السيوطي، جلال الدين (ت: 911هـ/ 1505م)، **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، تح: نظر الفريابي، ط 2، مكتبة الكوثر، الرياض، 1415هـ/ 1994م.

23. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ/ 1505م)، **جامع الأحاديث (الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير)**، جمع وترتيب: عباس أحمد وأحمد عبد الجواد، د. ن. ط، دار الفكر، د. م. ن، 1994م.
24. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ/ 1505م)، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1387هـ/ 1969م.
25. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ/ 1505م)، **الخصائص الكبرى**، د. ن. ط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.
26. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ/ 1505م)، **طبقات الحفاظ**، ج 1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
27. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ/ 1505م)، **نظم العقيان في أعيان الأعيان**، تح: فيليب حتي، د. ن. ط، المكتبة العلمية، بيروت، د. ن. ت.
28. الشامي، محمد بن يوسف الصالحي (ت: 942هـ/ 1535م)، **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، تح: عادل أحمد وعلي محمد معوض، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1414هـ.
29. ابن عساكر، علي بن الحسن (ت: 571هـ/ 1176م)، **تاريخ دمشق**، تح: محب الدين أبي سعيد، ط 1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1418هـ/ 1998م.
30. عبد المنعم، شاكر محمود، **ابن حجر العسقلاني مصنفاته ودراسة في منهجه وموارده في كتابه الإصابة**، ط 1، مؤسسة الرسالة، د. م. ن، 1417هـ/ 1997م.
31. العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى (ت: 855هـ/ 1451م)، **شرح سنن أبي داود**، تح: أبو المنذر خالد بن إبراهيم، ط 1، مكتبة الرشد، الرياض، 1999م.
32. العيني، بدر الدين محمود بن أحمد (ت: 855هـ/ 1451م)، **عمدة القارئ شرح صحيح البخاري**، د. ن. ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت. ن.

33. كحالة، عمر رضا، **معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية**، د. ن. ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت. ن.

34. ابن ماكولا، علي بن هبة الله (ت: 475هـ/ 1082م)، **الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**، تع: عبد الرحمن بن يحيى، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1414هـ/ 1993م.

35. المزي، جمال الدين أبو الحجاج (ت: 742هـ/ 1341م)، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تح: بشار عواد معروف، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1431هـ/ 1992م.

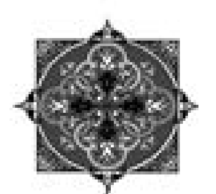
36. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت: 845هـ/ 1442م)، **درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة**، تح: محمود الجليلي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1423هـ/ 2002م).

37. المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (ت: 845هـ/ 1442م)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تح: محمد عبد القادر عطا، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

38. الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين (975هـ/ 1567م)، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.

39. ابن هشام، عبد الملك بن قريب (ت: 218هـ/ 833م)، **السيرة النبوية**، تح: محمد علي قطب وزميله، د. ن. ط، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1998م.

40. ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت: 626هـ/ 1228م)، **معجم البلدان**، د. ن. ط، دار الفكر، بيروت، د. ن. ت.



التحصينات العسكرية لمدن حضرموت

من القرن 6 - 10هـ/ 12 - 16م (دراسة تاريخية)

أ. د. طه حسين عوض هُديل[1]

الملخص:

شهدت بلاد حضرموت في تاريخها الإسلامي العديد من الصراعات القبلية والغزوات الخارجية التي تضررت منها مدنها التاريخية الشهيرة الواقعة على سواحلها، وفي أوديتها وصحاريها المعروفة، مما توجب على حكامها ومشايخها ضرورة تحصينها عسكريًا، وحمايتها بإحاطتها بالأسوار العالية، والخنادق، والقلاع التي توزعت في أطراف الأسوار ليحتمي بها العسكر، ولمراقبة تحركات العدو، في حين فضّل بعض حكام الحضارم بناء مدنهم على قمم الجبال العالية؛ لتشكِّل قلاعًا حصينة يصعب على العدو الوصول إليها وغزوها، وقد حاولنا في هذه الدراسة التعرف على طبيعة تلك التحصينات العسكرية ودراستها دراسة تاريخية للتعرف على أهمها، ومسمياتها، وتاريخ إنشائها، ودورها التاريخي والعسكري في حماية حضرموت من الغزوات الداخلية والخارجية التي تعرضت لها في مدة الدراسة.

---

(1) أستاذ التاريخ الإسلامي وحضارته - كلية التربية/ جامعة عدن.

Military Fortifications for Hadhramauts' cities
From the 6 - 10 century AH/ 12 - 16 AD (A historical study)

Summary:

Hadramawt city witnessed during its greatest Islamic history in the Western desert a lot of tribal conflicts and foreign invasions, which affected its famous historical cities located on its coasts, valleys and well - known deserts. This required its rulers and sheikhs to fortify them militarily and protect them by surrounding them with high walls, trenches, and castles that distributed on the outskirts of the walls for the soldiers to take shelter in. This action was in order to monitor the enemy's movements and reactions, while some of the Hadramis rulers preferred to build their cities on the tops of highest mountains to form fortified fortresses, which will be difficult for the enemy to reach and invade. In addition, its historical and military role in protecting Hadhramaut from the internal and external invasions exposed to during the study period.

المقدمة:

تميزت حضرموت عبر التاريخ بتنوع مظاهرها الحضارية التي لم تكن محصورة في جانب معين ومحدود، أو نمط معين، وقد حرص الحضارم منذ القدم على الظهور بالمظهر الذي يليق بهم على مستوى منطقتهم الجغرافية التي ينتمون إلى ترابها أو على مستوى البلاد التي انتقلوا إليها وعاشوا فيها، ناقلين معهم كل ما يتعلق بحياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، مكونين بذلك صورة طيبة لدى الشعوب التي ارتبطوا بها.

وعلى الرغم من أن المجتمع الحضرمي كان مجتمعًا قبليًا خالصًا، منذ تكوينه الأول، إلا أنه استطاع أن يضع بصمات مختلفة في جميع مظاهر حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، وكانت المظاهر الحضارية التقليدية العسكرية من بين أهم المظاهر التي أبدع فيها أهالي حضرموت منذ تاريخهم القديم، وفي حقبة التاريخ الإسلامي - موضوع دراستنا - .

وعلى أية حال، فقد دفعت الصراعات القبلية الشديدة بين قبائل حضرموت نفسها، أو بينها وبين الجماعات التي جاءت غازية إلى أرضها في العصر الإسلامي؛ زعماءها إلى تنظيم أنفسهم والاهتمام بالنواحي العسكرية، فراحوا يضعون أسسها الأولى، وقواعدها المختلفة، حتى يتمكنوا من تحقيق انتصارات ساحقة على أعدائهم، فنظموا أنفسهم في صورة عسكر أو جنود يحتكمون بأوامر السلطان أو الشيخ، وأقاموا الحصون حول مدنهم وقراهم، وسوروا ما يحتاج منها لتسوير، وحفروا الخنادق حول بعضها، وجهزوا أنفسهم بالعتاد من السلاح والخيول والطعام، وعدت مثل هذه التجهيزات العسكرية مظهرا حضاريا مهما في مواكبة حالة التطور الذي كانت تشهدها المنطقة المحيطة بحضرموت، لا سيما منطقة ظفار الحبوظي في الشرق، والدولة الأيوبية ومن بعدها الرسولية في الغرب، وغيرها من الكيانات الموجودة في المنطقة، التي كان لها على حضرموت وأهلها فضل كبير في تطور بعض جوانبها الحضارية العسكرية وغيرها، كما كان لحضرموت فضل كبير على هذه الكيانات في جوانب حضارية أخرى.

ومن بين أهم الأسباب التي دفعتني لكتابة هذا البحث رغبتي في التعرف على مختلف التحصينات العسكرية والحربية للمدن الحضرمية في العصر الإسلامي، على اعتبار أن هذه التحصينات تُعد واحدة من بين أهم المظاهر الحضارية العسكرية التقليدية في هذه المنطقة عبر التاريخ، في محاولة للتعرف على هذه

التحصينات، وتاريخ نشأتها وبداياتها الأولى، وأنواعها، وأهميتها العسكرية والحربية الدفاعية، بعدما شدني لها بعض العبارات التي قرأتها في كتب التاريخ الحضرمي وغيرها في المدة الزمنية المحددة للدراسة.

ونظرا لما لهذه التحصينات من أهمية عسكرية في حماية المدن والقرى الحضرمية، حاولنا البحث أولًا عن المظاهر الأولى للحياة العسكرية في هذه المنطقة، وملامحها التي تشير إلى أن حضرموت قد عرفت الجيوش النظامية، وتقسيماتها، وفروعها، ومعداتها المتعارف عليها، وأخذنا في تتبع الإشارات المصرية التي تؤكد ما ذهبنا إليه من معرفة حضرموت وقبائلها للتنظيم العسكري والحربي على بساطته في ذلك الوقت، مبرزين ذلك في نقاط منظمة، ومدعمة بأمثلة تؤكد ما ذهبنا إليه في هذا الجانب المهم، ومن ثَم توجهنا للبحث عن أهم تلك التحصينات، ومواصفاتها، وأنواعها، وأشكالها المختلفة، التي حرص الحضارم على بنائها لحماية مدنهم العريقة، ولتكون مظهرا مهما من مظاهر هذه المنطقة الحضارية، على الرغم من تطبعها بالطابع العسكري الدفاعي.

ولتحقيق الهدف المنشود من هذه الدراسة الموسومة بـ: "التحصينات العسكرية لمدن حضرموت من القرن 6 – 10هـ/ 12 – 16م (دراسة تاريخية)"، قمت بتقسيم بحثي هذا إلى مقدمة ومبحثين رئيسيين، تناولت في المبحث الأول منها المظاهر الأولى للحياة العسكرية في حضرموت في العصر الإسلامي، وخصصت المبحث الثاني لدراسة التحصينات العسكرية لمدن حضرموت، ومميزاتها الخاصة والعامة، وبحثت عن أهم هذه التحصينات وأنواعها ومواقعها، ودورها في التاريخ، وما شهدته من معارك ووقائع مختلفة وثّقتها كتب التاريخ، لا سيما القور والحصون والقلاع، والأسوار، والخنادق وغيرها من التحصينات، وأنهيت دراستي هذه بخاتمة استخلصت فيها أهم النتائج والاستنتاجات التي توصلت إليها، وبعض الصور لعدد من هذه التحصينات الحضارية العسكرية.

المبحث الأول: المظاهر الأولى للحياة العسكرية في حضرموت في العصر الإسلامي

من الصعب جدًّا دراسة الأوضاع العسكرية لبلاد حضرموت دون التعمق في معرفة التاريخ السياسي لهذه المنطقة، وأهم الأحداث التي شهدتها في المدة موضوع الدراسة، إذ إن المطّلع على تاريخ حضرموت في العصر الإسلامي، يلاحظ أن الصراع السياسي في تلك الحقبة التاريخية كان على أشده بين قبائل المنطقة، ولم تكن الأمور تستقر حتى تعود الصراعات مرة أخرى، ومما لا شك فيه أن تلك الصراعات القبلية لم تأخذ الطابع العسكري المنظم، والقائم على التخطيط والتنظيم والترتيب العسكري المعروف اليوم في إطار الجيوش النظامية، ومع ذلك شكّلت تلك الصراعات اللبنات الأولى لملامح الحياة العسكرية التي - على ما يبدو - اتضحت صورتها مع ظهور بعض الكيانات التي وجدت في حضرموت منذ مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

ومن أهم تلك الكيانات السياسية التي ظهرت في حضرموت في ذلك الوقت: إمارة آل راشد التي عرفت بإمارة آل قحطان بتريم (400 - 635هـ/ 1009 - 1048م)، وإمارة آل إقبال (آل فارس) في الشحر (547 - 677هـ/ 1152 - 1287م)، وإمارة آل دغار في شبام (460 - 605هـ/ 1067 - 1208م)، وإمارة بني الأعلم بن يماني الحارثية الكنْدية في شبام (605 - 619هـ/ 1208 - 1222م)، وإمارة بني سعد الكنديين في شبام (623 - 842هـ/ 1226 - 1421م)، وإمارة آل يماني في شبام (621 - 926هـ/ 1224 - 1519م)[1].

---

(1) انظر: الحامد، صالح، تاريخ حضرموت، ط2، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1423هـ/ 2003م، 2/ 403 - 428.

وتجدر الإشارة إلى أن مدة بقاء الوجود الأيوبي في حضرموت (575 – 621هـ/ 1180 – 1224م)[1]، ثم الوجود الرسولي (636 – 858هـ/ 1453 – 1238م) كان له الأثر الأكبر في بناء الكيان العسكري للمنطقة، وترسيخ النظم العسكرية بين أهلها، لما عُرف عن هاتين الدولتين من قدرات عسكرية متميزة، شملت مختلف مجالات البنية التحتية للجيش، سواء في جانب التنظيم العسكري والقيادي، وتقسيم الجيش إلى فرق اختلفت مهام كلٍّ منها بين مهام قتالية أو دفاعية أو هجومية، أم من جانب الترسانة العسكرية المتنوعة التي امتلكتها قوات هاتين الدولتين، من أسلحة خفيفة وثقيلة، هجومية ودفاعية، فضلًا عمّا تميزوا به من تفوق بحري، وأسطول تنوعت أدواته القتالية بين سفن تعددت أشكالها وأحجامها، وبلغ بعضها سواحل حضرموت لتكون بداية لكسب خبرات في هذا الجانب بين أهالي حضرموت[2].

وقد يرى بعضهم أن الوجود الأيوبي والرسولي لم يكن له دور يذكر في بلاد حضرموت، لاسيما في الحقبة الأيوبية التي لم يعرف عنها في حضرموت إلا القتل والسجن للعلماء والمشايخ وغيرهم، والدمار لكل من يقف في طريق جيوشهم[3]، وفي الحقيقة أنه من دراستنا للتاريخ الأيوبي والرسولي في حضرموت

(1) هُديل، طه حسين عوض، حضرموت في ظل الوجود الأيوبي 575 – 621هـ/ 1179 – 1224م، المؤتمر العلمي الدولي الأول: "التاريخ والمؤرخون الحضارم من القرن السادس حتى القرن العاشر الهجريين"، مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، المكلا، 20 – 21 ديسمبر 2016م، ص5 – 24.

(2) انظر: العراشي، عبد الحكيم محمد ثابت، الجيش في اليمن في عصر الدولة الرسولية 626 – 858هـ/ 1228 – 1454م، ط1، دار الوفاق، عدن، 1435هـ/ 2014م، ص49 وما بعدها.

(3) الجعدي، عمر بن علي بن الحسن بن سمرة، طبقات فقهاء اليمن: تحقيق: فؤاد سيد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1401هـ/ 1981م، ص220 – 221.

لاحظنا أن أهالي حضرموت ومشايخ قبائلها قد استفادوا من هذا الوجود، وإن كان بصورة غير مباشرة، فقد اكتسبوا خبرات إدارية وتنظيمية وقيادية من القوات العسكرية والحاميات التي كانت تعسكر في مناطق حضرموت المختلفة، وكان لاختلاطهم بهم، وتعاملهم معهم أثره الواضح في أخذ ما هو مفيد من القوات المرابطة هناك، حتى صاروا جزءًا لا يتجزأ من تلك القوات وتنظيمها العسكري بعد لحاق العديد من أبناء قبائل حضرموت بهذه القوات العسكرية الأيوبية أو الرسولية.

وعلى أية حال، فإنه من خلال تتبعنا لما جاء من إشارات يسيرة عن بعض الأحداث والصراعات السياسية والحربية والعسكرية لقبائل حضرموت فيما بينها، أو مع غيرها من قبائل المنطقة أو القوى الغازية لمناطقهم، والوارد ذكرها في المصادر التاريخية في العصر الإسلامي، وما صاحب تلك الأحداث من ترتيبات أولية وتجهيزات ووقائع ونتائج مختلفة، فإننا من الممكن أن نلاحظ أن هناك بدايات أولية قد تشكلت لملامح حياة عسكرية في بلاد حضرموت في مدة الدراسة، وذلك عبر المظاهر الآتية:

أولًا – ظهور الأحلاف القبلية:

وهي أحلاف أقامتها القبائل الحضرمية ذات النسب الواحد مع بعضها بعضًا، أو مع غيرها من قبائل المنطقة التي لا ترتبط معها بقرابة أو نسب، إلا المصلحة والحاجة لتشكيل قوة قبلية حربية مهابة في المنطقة، حتى أصبح التداعي بين القبائل عند اشتداد الأمور وتأزمها، وعند الحروب، أمرا واجبا ومعروفا لنجدة بعضها بعضًا، أو لمساعدة الضعيف منها، وتورد لنا كتب التاريخ العديد من الأمثلة لمثل تلك الأحلاف التي من الممكن أن نعدها أحلاف عسكرية دفاعية أو هجومية، خضعت لتشكيلات شبه نظامية من رجال القبائل والزعامات ذات

المكانة الاجتماعية والقبلية في ذلك الوقت، ومن أبرز تلك الأحلاف - على سبيل المثال لا الحصر - قبائل نهد وبني عبيدة من قبائل تجيب، وبني حارثة، ضد عبد الله بن راشد سنة 599هـ/ 1202م[1]، وحلف آل عمر بن مسعود، وولد محمد بن أحمد من آل يماني مع الصبرات ضد آل جسّار في سنة 773هـ/ 1371م[2]، وغيرها من التحالفات التي ورد ذكرها في بعض المصادر التاريخية، التي سنشير لبعضها عند حديثنا عن بعض الوقعات والمعارك التي شهدتها حضرموت باعتبار أنها تعد مظهرا من المظاهر الأولى للحياة العسكرية في المنطقة.

ثانيًا - تعدد الوقائع[3] الحربية بين قبائل حضرموت:

مصطلح (وقائع) من المصطلحات الحربية التي كثيرًا ما يرد ذكرها في كتب التاريخ دليلًا على معارك قامت بين طرفين مختلفين، وفي موضع أو مكان معين، اشتهرت به هذه المعركة أو تلك، وقد شهدت مناطق حضرموت المختلفة ومدنها العديد من المعارك الحربية التي كانت تقوم بين قبائل المنطقة، أو التحالفات المناطقية والقبلية الخاضعة لبعض زعامات المنطقة، وعرفت مثل تلك المعارك باسم الوقائع، وقد حاولنا رصد أشهر أسماء تلك الوقائع التي

(1) شنبل، أحمد بن عبدالله (ت: 920هـ)، تاريخ حضرموت المعروف بـ: تاريخ شنبل، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، ط2، مكتبة صنعاء الأثرية، صنعاء، 1424هـ/ 2003م، ص83.

(2) ابن حسان، عبد الرحمن بن علي (ت: 818هـ)، البهاء في تاريخ حضرموت (أقدم تاريخ حضرمي مرتب على الحوادث والسنين)، عنى بتحقيقه وقدم له: عبدالله محمد الحبشي، دار الفتح للدراسات والنشر، عمّان، 1441هـ/ 2020م، ص165.

(3) الوقعة في اللغة: هي الملحمة في الحرب، وموضع القتال. انظر: ابن سيده المرسي، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت: 458هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م، 3/ 373.

اشتهرت في تاريخ حضرموت، على اعتبار أنها تأكيد على وجود بعض مظاهر الحياة العسكرية، لا سيما أن بعضها قامت بدعم من سلاطين بعض الكيانات التي ظهرت في حضرموت في ذلك الوقت.

ومن بين أشهر تلك الوقائع، وأكثرها صيتًا في تلك المدة الزمنية: وقعة الحميراء قرب شبام سنة 504هـ/ 1111م، بين آل إقبال وبعض قبائل حضرموت، وقتل فيها شخص يسمى نصر بن أبي مطروح، وجماعة من أخدام راشد بن أقبال[1]، كما حدثت في أواخر سنة 563هـ/ 675م وقعة شهيرة عرفت بوقعة ضمم دون أن يحدد شنبل[2] موقع تلك الوقعة، وبين أيٍّ من قبائل حضرموت، ووقعة مريمة[3] بالسَّرير سنة 567هـ/ 1171م، دون تحديد أطراف النزاع فيها ونتائجها[4].

ومن الوقائع الشهيرة التي شهدتها حضرموت في ذلك الوقت وقعة الخبة بشبام سنة 573هـ/ 1178م، التي قُتل فيها عبد الباقي ين فارس بن راشد بن أحمد الدغار، وجماعة من أهل شبام[5]، ووقعة قصعان بالقرب من عندل في سنة 579هـ/ 1183م[6]، ووقعة العجلانية التي أدت إلى هزيمة تريم في سنة 584هـ/ 1188م[7].

(1) شنبل، تاريخ شنبل، ص31.

(2) المصدر نفسه، ص60.

(3) مَرْيَمة: تقع جنوب شرق سيئون، وتبعد عنها بنحو (8كم). السقاف، عبد الرحمن ابن عبيد الله، إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، دار المناهج، بيروت، 1425ه/ 2005م، ص750، حاشية (1).

(4) للمزيد من المعلومات عن تلك الوقعات انظر: ابن حسان، البهاء، ص69.

(5) انظر: شنبل، تاريخ شنبل، ص64.

(6) المصدر نفسه، ص69.

(7) المصدر نفسه، ص72.

وفي سنة 594هـ/ 1197م شهدت حضرموت عددا من الوقائع الحربية، من أهمها: وقعة مرمض تحت شبام، ووقعة مسح، ووقعة بور، ووقائع الحدبة[1]، كما شهدت سنة 595هـ/ 1189م وقعة شهيرة هي وقعت الشعبة التي هزمت فيها نهد وعسكر عبدالله بن راشد، وخربت سيئون بسببها[2]، وشهدت سنة 604هـ/ 1207م العديد من الوقائع، منها: وقعة حاصر تحت مريمة، قُتل فيها محمد بن راشد بن أبي الليل بن يماني مع جماعة من رجاله بعد محاصرته لمدة سبعين ليلة، ووقعت شغرة جفل التي قتل فيها العديد من رجال شبام[3].

كما شهدت حضرموت في شهر ذي الحجة سنة 605هـ/ 1208م وقعة شهيرة عرفت باسم وقعة جفل، قتل فيها راشد بن أحمد بن النعمان في جماعات من كندة وشبام، وقتل أبناء شماخ عمرو ومنصور وشرية بن معين، ورجال من ظبيان قريبًا من ثلاثين رجلا، وأدخل أهل شبام بني حارثة في ذلك اليوم إلى شبام، وملكها آل يماني بن الأعلم[4]، كما شهد العام نفسه وتحديدًا في شهر محرم وقعة أخرى عرفت بالمقيف، قتل فيها سالم بن واصل، ومن بني سعد منصور بن سليمان بن خليفة[5].

ومن وقائع حضرموت الشهيرة التي حدثت في مدة الدراسة وقعة القطن[6] التي حدثت في سنة 613هـ/ 1216م، وهُزم فيها بنو حارثة وبنو سعد، وقُتل

(1) لتفاصيل أكثر عن تلك الوقعات انظر: ابن حسان، البهاء، ص80.

(2) شنبل، تاريخ شنبل، ص79.

(3) ابن حسان، البهاء، ص89.

(4) انظر: شنبل، تاريخ شنبل، ص90.

(5) المصدر نفسه، ص89.

(6) القطن: منطقة تقع في ملتقى سيول الأودية الأربعة الرئيسة، كوادي عمد والعين ودوعن، وتمتد من بروج غربًا إلى العنين شرقًا، على شريط ضيق يقع على ضفاف مجرى الوادي، وسكانها من قبائل نهد ويافع. انظر: السقاف، إدام القوت، 483.

فيها يماني بن الأعلم أحد أبرز شخصيات ذلك الزمن[1]، ووقعة مهينم قرية من قرى الريدة سنة 736هـ/ 1335م، انتصر فيها بنو معيبد على بني حرام[2]، وشهدت سنة 817هـ/ 1414م وقعة أخرى عرفت بوقعة برمان بين الصبرات وآل كثير وآل جميل ودويس، وأخذوا زانة (عدة) الحرب كلها، وقُتل فيها نحو ثلاثين من رجال تلك القبائل[3]، وفي سنة 882هـ/ 1477م حدثت وقعة ملقاة بين آل أحمد والصبرات في النخل المسمى العراقي بالعجز[4]، وقُتل فيها من أصحاب آل جسار نحو تسعة قتلى[5]، وشهدت حضرموت في سنة 902هـ/ 1496م وقعة عُرفت بالخبة بشبام، بين آل محمد بن عبدالله بن علي بن عمر الكثيري وآل عامر[6]، ومن الملاحظ مما ذُكر من وقائع مختلفة أن هناك إعدادا مسبقا لها، وتجهيزات وتخطيطات وتدريبات للرجال والخيول وغيرها، مما يؤكد لنا أن هناك مظاهر حياة عسكرية كانت موجودة في حضرموت، منذ مدة مبكرة من التاريخ الإسلامي.

---

(1) ابن حسان، البهاء، ص103.

(2) الكندي، سالم بن محمد بن سالم بن حميد (ت: 1310هـ)، تاريخ حضرموت المسمى العدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، ط1، مكتبة الإرشاد، صنعا، 1424هـ/ 2003م، 1/ 124.

(3) شنبل، تاريخ شنبل، ص206.

(4) قرية العجز في نواحي مدينة تريم، على مقربة من سيئون. انظر: المقحفي، إبراهيم بن أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 1422هـ/ 2002م، 2/ 1020.

(5) ابن حسان، البهاء، ص249.

(6) باسنجلة، عبد الله بن محمد بن أحمد (ت: 986هـ)، تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1428هـ/ 2007م، ص20.

ثالثًا – وجود المصطلحات الحربية والعسكرية:

عرفت حضرموت العديد من المصطلحات العسكرية التي كانت متداولة بين قبائل المنطقة في ذلك الحين، دون أن يكون لتلك المصطلحات طابع عسكري تنظيمي كما هو متعارف عليه اليوم في الجيوش النظامية، وقد حاولنا البحث عن تلك المصطلحات بين سطور المصادر، ووجدنا من بين تلك المصطلحات: مصطلح جيش، الذي على ما يبدو أنه كان من المصطلحات المتداولة، فقد أورد المؤرخ شنبل[1] أن راصع بن دويس جيِّش أعدادا من قبائل المنطقة لمهاجمة بعض المناطق في سنة 774هـ/ 1372م، ثم أخذ هذا المصطلح ينتشر ويتكرر ذكره بين زعامات القبائل الحضرمية[2]، ومع التطورات التي شهدتها حضرموت أخذ مصطلح الجيش بالتطور والتوسع في الحقب اللاحقة؛ ليطلق على الجماعات القبلية التي قادها بعض سلاطين حضرموت، مثلما يُذكر عن جيش السلطان محمد بن أحمد الذي جهزه على تريم ليحاصر عمه راصع في حصنها الشهير سنة 884هـ/ 1479م، وقد قسّم هذا الجيش إلى فرق منظمة، وتكون من (120) فارسا، و (1000) راجل من مختلف قبائل حضرموت[3].

كما ورد أيضًا ذكر لبعض المصطلحات العسكرية في حضرموت رغم طابعها القبلي، مثل مصطلح: العسكر والعساكر[4]، وقد وجدنا أن هذا المصطلح كان يستخدم بكثرة في حضرموت، ويطلق على الجماعات التي تتبع جهة معينة؛ أكان سلطانا أم أمير أم زعيم قبيلة معروف بإمكانياته الاجتماعية والمالية، وكانت

(1) تاريخ شنبل، ص176.

(2) شنبل، تاريخ شنبل، ص189.

(3) ابن حسان، البهاء، ص253.

(4) انظر: شنبل، تاريخ شنبل، ص79، 80، 98، 107، 113، 116، 123، 179، 180، 183.

المهام القتالية لهؤلاء العسكر لا تنحصر في خوض المعارك فقط، بل وفي حصار المدن والقرى، ومما يؤكد ذلك الإشارة التي أوردها ابن حسان[1] عند حديثه عن أحداث سنة 597هـ/ 1200م، التي أورد فيها عن سير عسكر حضرموت إلى ظفار، ومحاصرتهم لها مدة خمسين يومًا، في حين أطلقت بعض قبائل المنطقة مصطلح عسكر على جماعات من أفرادها امتهنوا القتال، وصاروا يشكّلون القوة القتالية للقبيلة التي يعتمد عليها في حماية أفرادها، والمهيأة لأي طارئ قد تشهده ديار القبيلة في أي وقت، مثلما كان يذكر عن عسكر قبيلة جنب[2].

وتؤكد لنا بعض الأحداث التي شهدتها بلاد حضرموت أن بعض سلاطينها اعتمدوا في صراعاتهم ومعاركهم مع أعدائهم على أعداد من العساكر الغير النظامية التي يعود انتماؤها ونسبها لبعض قبائل المنطقة، وشكّل هؤلاء العسكر قوة ضاربة يتجه بها السلطان حيثما أراد، مقابل أموال معينة تصرف لهم – على ما يبدو – من قبله، أو مكافأتهم بالأموال التي تُغنَم بعد كل معركة ينتصرون فيها[3].

كما شهدت القوى القبلية المتصارعة في حضرموت تنظيما عسكري خاص لرجالها الذين كانوا يعتمدون عليهم عند اشتداد المعارك، حتى إنهم كانوا يقسمونهم إلى فرق مختلفة تحمل الطابع العسكري، ومن هذه الفرق فرقة الرماة ممن يحملون الرماح أو الأقواس والأسهم لرميها على أعدائهم في المعارك[4].

ومما لا شك فيه، أنه بدخول بني أيوب (575هـ/ 1179م) ومن بعدهم بنو رسول (636هـ/ 1238م) إلى حضرموت ازدادت معرفة الناس بالفروسية

(1) البهاء، ص82.
(2) شنبل، تاريخ شنبل، ص96، 100.
(3) المصدر نفسه، ص100.
(4) المصدر نفسه، ص92.

وركوب الخيل التي تعد من بين أهم المصطلحات العسكرية التي عرفتها حضرموت، والتي تطلق على كل فارس جاء للقتال على فرس، وأصبحت هناك فِرَق خاصة بالفروسية تتولى المهام الهجومية في المعارك، قد تصل الفرقة منها إلى خمسين فارسا إن لم يكن أكثر[1]، كما وجدت فرق عسكرية أخرى راجلة، وهو ما يبين لنا أن بعض القوى القبلية في صراعاتها كانت تقسم عساكرها إلى فرقتين هما: فرقة الفرسان، وفرقة راجلة[2].

رابعًا – انتشار الأسلحة المختلفة:

عرفت حضرموت في العصر الإسلامي أنواعا مختلفة من الأسلحة التي كانت في متناول أيدي قبائل المنطقة كضرورة حربية يؤمن بها سكان حضرموت أنفسهم، وتورد لنا المصادر إشارات إلى بعض تلك الأسلحة والعتاد العسكري والحربي، الذي كان يستخدم في المعارك المختلفة في حضرموت في مدة الدراسة من: سيوف ورماح ونبال وغيرها، ولم تكن الأسلحة الخفيفة هي ما عُرف في حضرموت فقط، بل عَرفت المنطقة الأسلحة الثقيلة التي كانت تعرف باسم المنجنيق، ومما لا شك فيه أن معرفة حضرموت لمثل هذا النوع من الأسلحة الثقيلة جاء بعد وصول الأيوبيين إليها، إذ أدخلوها معهم لتكون من الأسلحة التي يُرهبون بها الناس، ويدمرون بها الأسوار والحصون عند حصارها، علمًا أن هذا النوع من الأسلحة – الشبيهة بالمدافع اليوم – تحتاج إلى أعداد من الجند ما بين خمسين إلى مئة رجل لقيادتها وتحريكها وتجهيزها والرمي بها[3]، ومما

(1) المصدر نفسه، ص88.

(2) المصدر نفسه، ص180.

(3) الملك المظفر، يوسف بن عمر بن علي بن رسول (ت: 694هـ/ 1294م)، المخترع في فنون من الصنع، دراسة وتحقيق: محمد عيسى صالحية، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، 1989م، ص141.

يؤكد ذلك الإشارة التي أوردها ابن حسان[1] عند سرده لأحداث سنة 625هـ/ 1227م، حيث يشير إلى أن مسعود بن يماني خرج بالعسكر إلى هينن والهجرين، فسلّم أهل الهجرين البلاد إليه، وحاصر هينن التي رفضت الاستسلام والخضوع، مما اضطره إلى استخدام المنجنيق ورميها إما بالحجارة أو بكُرات النار المبللة بالنفط، كما كان معروف في تلك المدة في اليمن وكثير من البلاد الإسلامية، ولما ورد من إشارة إلى أن استخدام هذا النوع من الأسلحة أخرب هينن وأحرقها.

وفي الوقت نفسه، تميز أهالي حضرموت بلبسهم العسكري الخاص بالحروب، الذي كان يستخدم عند الخروج للمعارك، وتعد الدروع والزنات من بين أهم تلك الملابس العسكرية في ذلك الوقت[2].

وركب أهالي حضرموت الخيول والبغال والجمال في معاركهم العسكرية، وتحركوا بها لسرعتها، لاسيما الخيول التي وجدت ودربت خصيصًا لعمليات الكر والفر، علمًا أن قبائل حضرموت امتلكت ثروة عظيمة من الخيول والجمال لما لها من أهمية شخصية وعسكرية يتباهون بها في حياتهم، ومع غيرهم من قبائل المنطقة، لهذا كان اغتنام تلك الدواب من الانتصارات التي تباهت بها قبائل حضرموت، مثلما حدث في سنة 603هـ/ 1206م[3]، وكان للمعارك والحروب أثره في فقدان وقتل العديد من هذه الخيول، كما حدث في سنة 790هـ/ 1388م في وقعة الحسيسة بين آل يماني أنفسهم، التي قُتل فيها العديد منهم، بما فيها خيولهم التي فُقد منها الكثير، حتى إن أعداد قتلاها فاقت أعداد القتلى من البشر[4].

(1) البهاء، ص114.

(2) شنبل، تاريخ شنبل، ص251.

(3) ابن حسان، البهاء، ص88، 89.

(4) شنبل، تاريخ شنبل، ص189.

كما عرفت حضرموت الآلات الموسيقية، مثل الطبول والنقر التي - على ما يبدو - كانت تستعمل عند الحروب، أو عند استعراض الفرق العسكرية والجيوش، أو عند خروج موكب السلطان أو قادته وضيوفه، ويذكر أن أول من ابتدع مثل هذه الآلات هو السلطان عبد الله بن علي الكثيري (ت: 850هـ/ 1446م) الذي يذكر أيضًا بأنه أول من تلقب بالسلطان في حضرموت[1].

خامسًا - الاهتمام بالتحصينات العسكرية:

سعى أهالي حضرموت منذ القدم إلى تأمين أنفسهم، وحماية مدنهم من هجمات الغزاة التي كانت تصل إليهم بهدف السيطرة أو التدمير، فراحوا يعملون التحصينات الضرورية للحد من أي هجوم مفاجئ، وقد تنوعت تلك التحصينات بين قلاع وحصون أو مصانع كما كان يطلق عليها في ذلك الوقت[2]، أو أسوار ودروب، أو خنادق وأخاديد وغيرها من أنواع التحصينات التي حافظوا بها على مدنهم وقراهم وأوديتهم المهمة، حتى شكلت تلك التحصينات لاسيما الحصون منها أساس بقاء المدن أو زوالها في حالة سقوطها بيد الغزاة من القبائل أو أي عدو خارجي، وقد تميزت بلاد حضرموت بكثرة حصونها الشهيرة والمعروفة في المنطقة، والتي ميزتها عن باقي مناطق بلاد اليمن الأخرى بطابعها المعماري الطيني الخاص، وقد انتشرت تلك الحصون ليس على مداخل المدن فقط، أو على أسوارها، بل وجدت في الأودية والسهول والجبال والسواحل كتحصينات دفاعية ذات طابع عسكري ومدني، وبني حول بعضها العمران

(1) المصدر نفسه، ص228.

(2) الخزرجي، أبو الحسن علي بن الحسن (ت: 812هـ/ 1409م)، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، عنى بتصحيحه: محمد بسيوني عسل، مطبعة الهلال، القاهرة، 1329هـ/ 1911م، 1، 208.

المدني بعد أن أمنت المناطق التي بنيت فيها، للتطبع بالطابع المدني فضلا عن مهامها الدفاعية[1].

سادسًا – قدرات الحضارم في التعامل مع البحر وصناعة السفن الحربية:

كانت لطبيعة حضرموت الجغرافية والاستراتيجية الواقعة على سواحل بحر العرب والمحيط الهندي أثرها في معرفة الحضارم للتعامل مع البحر وركوبه، ومعرفة طقوسه وأجوائه ومواسم الرياح فيه واتجاهاتها، وكان امتلاك بعض حكام الكيانات التي حكمت المناطق الساحلية لأساطيل بحرية تعدّ كبيرة في ذلك الزمن رغم بساطتها، بهدف حماية سواحل المنطقة، أو الغزو بها إذا ما دعت الحاجة إلى مناطق ومدن ساحلية أخرى.

وقد كانت مدينة الشحر من أكثر المدن الحضرمية التي تتعامل مع البحر بحكم وقوعها عليه، ومما لا شك فيه أن هذه السواحل شهدت عمليات بناء وصناعة لمختلف أنوع السفن والمراكب الحربية والتجارية والشخصية، حتى أصبحت ترسوا فيها أشكال وأحجام هذه السفن، لاسيما العسكرية منها، ومما يؤكد ما ذهبنا إليه الأسطول البحري الذي تحرك به صاحب الشحر أبو دجانة محمد بن سعد بن فارس الكندي سنة 861هـ/ 1456م حين أراد مهاجمة مدينة عدن، فضلًا عمّا تحتويه تلك السفن من معدات حربية وعسكرية، وقوى عسكرية بشرية كبيرة، وقد بلغ عدد السفن الحربية التي رافقت أبا دجانة إلى عدن تسعة مراكب أعدت إعدادا كاملا لهذه المهمة القتالية[2]، ويرجح أن هذه السفن ماهي إلا جزء من أسطول كان على ما يبدو راسيًا في سواحل مدينة الشحر.

(1) سيأتي الكلام بالتفصيل عن هذه التحصينات في المبحث الثاني.

(2) الحداد، علوي بن طاهر بن عبد الله بن طه، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، دراسة وتحقيق وفهرسة: محمد يسلم عبد النور، ط1، مطبعة وحدين الحديثة للأوفست، المكلا، 1437هـ/ 2016م، 2/ 551.

وخلاصة القول، إن مناطق حضرموت ومدنها منذ فجر عصرها الإسلامي شهدت العديد من المظاهر العسكرية الحضارية التي تؤكد لنا وجود حياة عسكرية هناك، على الرغم من قبلية المجتمع الحضرمي، الذي تفنن أفراده ببعض تلك المظاهر لاسيما التحصينات العسكرية التي بنيت بأشكال وأحجام وأنماط مختلفة في كل مدينة وقرية ووادٍ وساحل، لتبين لنا حضارية هذا المجتمع القبلي، وقدرات رجاله المتواضعة على الإبداع في هذا الجانب المعماري والحضاري العسكري والدفاعي - كما سنوضح لاحقًا - .

المبحث الثاني: التحصينات العسكرية لمدن حضرموت

عُرفت حضرموت بتعدد مدنها العتيقة الضارب جذورها في أعماق التاريخ، حتى بلغ صيت بعضها الآفاق، وصارت تحكى عنها الحكايات، لأزلية تاريخها، وقدم بنائها، وندرة نمطها المعماري العتيق، ومما لا شك أنه قد مر على بعض هذه المدن العديد من الأحداث، والمراحل الصعبة، والمعارك الشديدة التي أثرت عليها وعلى نمطها، ومع هذا ظلت هذه المدن باقية وصامدة، وما تبقى اليوم منها دليل على ذلك.

ومن الطبيعي أن بقاء بعض مثل هذه المدن وصمودها جاء بسبب ما كانت تحاط بها من تحصينات عسكرية، وأسوار منيعة حافظت عليها من غزوات القبائل، وحملات الأعداء القادمين إليها من خارج أراضيها، علمًا أن حضرموت اشتهرت بتحصيناتها العسكرية منذ مدة سابقة لمدة الدراسة، وتعد مثل تلك التحصينات من أهم المظاهر الحضارية العسكرية التي تميزت بها حضرموت عبر التاريخ، لما كان لها من دور مهم في صناعة التاريخ. ومن دراستنا لتاريخ مدن حضرموت في العصر الإسلامي، وما شهدتها من أحداث ومعارك متعددة، وجدنا ذكر للعديد من هذه التحصينات، سواءً كانت حصونا

(قلاعا) أم مصانع كما كان يطلق عليها في مناطق حضرموت المختلفة، أم أسوارا ودروبا بنيت خصيصًا للحفاظ على هذه المدن وحمايتها من الأعداء، علمًا أنه مع ذكر المصادر التاريخية الحضرمية لمثل هذه التحصينات، إلا أن منها - كما لاحظنا - ما كانت مهمته عسكرية دفاعية، ومنها ما بني لدوافع مدنية وعسكرية، كما كانت بمنزلة مقرات وسكن للأمراء والسلاطين وغيرهم مثلما استنتجنا من بعض الأحداث والعبارات التي أشارت إلى مثل هذه التحصينات، ومن هنا يمكن حصر أهم هذه التحصينات في الآتي:

أولًا – القور أو القارات:

حرص أهالي حضرموت على بناء مدنهم وحصونهم في مواقع معينة، وعلى مساحات أمنة، وبموجب مواصفات خاصة، حرصًا منهم على أن تكون في زوايا دفاعية، ومواقع مهمة واستراتيجية، تمتاز بالارتفاع عن مستوى الأرض، كقمم بعض المرتفعات الجبلية، أو القرون الجبلية - كما كان يطلق عليها وما زال -، في حين ركز بعضهم على بناء هذه المدن والحصون على مرتفعات جبلية عرفت عند أهالي حضرموت وبعض مناطق جنوب الجزيرة العربية باسم القارة[1]، والتي تعرفها كُتب اللغة ومعاجمها بأنها: جبل صغير، منفرد أسود مستدير ململوم طويل في السماء، شبه الأكمة، وجمعها قارات أو قار أو قُور[2]، ويعرفها بعضهم بأنها الجبل الصغير، المنقطع عن الجبال[3].

(1) السقاف، إدام القوت، ص569.

(2) الزَّبيدي، أبو الفيض مرتضى محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ت، 13/ 488؛ إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة، (د. ت)، 2/ 766.

(3) الدمشقي، أحمد بن مصطفى (ت: 1318هـ)، معجم أسماء الأشياء المسمى اللطائف في اللغة، دار الفضيلة، القاهرة، (د. ت)، ص260.

ومن هذا التعريف يتبين لنا مدى حرص الحضارم على ضرورة بناء بعض مدنهم في مواقع مرتفعة، لتكون أولًا محصنة، ويصعب الصعود إليها، إلا من طريق واحد، وعادة ما يكون محميًا وأمنًا، ولتكون مطلة على المناطق التي حولها، أو المنطقة التي بنيت لحمايتها من ناحية ثانية، ولتشرف على كل ما حولها، ومما لا شك فيه أن كِبر مساحة بعض تلك القور دفعت بعض تلك القبائل إلى اتخاذها مكان إقامة لهم ولأسرهم وسكنا آمنا، بعد أن وفروا فيها كل متطلبات الحياة من مساكن، وآبار وصهاريج، ودور عبادة ومدارس وحصون وغير ذلك من مقومات الحياة المدنية، مع الحصانة الطبيعية والعسكرية للمنطقة - كما سنلاحظ لاحقًا -، وقد حاولنا رصد أهم تلك القُور التي كان لها دور كبير في تاريخ حضرموت في العصر الإسلامي وتحديدًا في مدة الدراسة، والبحث عن تاريخها ودورها العسكري والحضاري، على اعتبار أنها جزء من التاريخ الحضاري للحضارم، وقد وجدنا أن من أبرز تلك القُور وأهمها في الحقبة الإسلامية:

1 - **قارة العر أو العز أوالغُز**[1]: وهي صخرة جبلية عالية في وسط وادي حضرموت، بجوار بلدة السوم، وشرقي قرية مريمة الواقعة بالشمال الشرقي من مدينة سيئون، ويقع بأعلاها حصن العر الذي تميز بحصانته العسكرية[2]، ويذكرها ابن حسان[3] باسم قارة الغُز، وأن بناءها كان في سنة 577هـ/ 1181م، واستمرت عملية تجديد عمارتها في فترات زمنية لاحقة كما حدث في سنة 602هـ/ 1205م[4].

(1) انظر: ابن حسان، البهاء، ص73؛ شنبل، تاريخ شنبل، ص68.
(2) المقحفي، معجم البلدان، 2/ 1035.
(3) البهاء، ص73.
(4) شنبل، تاريخ شنبل، ص84.

وقد تعرضت هذه القارة للعديد من الأحداث التي أدت إلى تدميرها، لما ورد من إشارة عن بنائها وإعادة إعمارها من قبل ابن مهدي[1] سنة 619هـ/ 1222م بعد خرابها[2]، بسبب غزو تعرضت له على ما يبدو، وتغفل المصادر ذكر هذه القارة حتى سنة 655هـ/ 1257م، حيث يرد أنه أعيد بناؤها من قبل شخص يسمى نصار، يبدو أنه من القيادات الرسولية في حضرموت، كما قام بربطها بغيرها من المناطق، وبنى تحتها دارًا، قد تكون له[3]، ويذكر شنبل[4] أن هذه القارة تعرضت في العام الذي يليه سنة 656هـ/ 1258م للخراب، وشرد أهلها عنها، دون أن يحدد على يد من خربت، والسبب في ذلك.

ويصف لنا المقحفي[5] قارة العز قائلاً أنها قلعة متهدمة اليوم، وتحتوي على صهريج لحفظ المياه، وبئر قديمة، وبقايا أبنية متهدمة، مبعثرة حول قمة التل، وتحتوي على نقوش وكتابات وصور لفرسان يحاربون الأسود، وصور لوعول وغير ذلك، كدليل على قدم تاريخها، وأسبقية بنائها لحقبة التاريخ الإسلامي.

2 - **قارة الأشباء**: وتُعد من أقدم قور بلاد حضرموت، التي اختلفت المصادر فيمن بناها، فيذكر الهمداني[6] أنها لقبيلة كندة الحضرمية، في حين يورد شنبل[7]

(1) وهو عمر بن مهدي الحميري اليمني (ت: 621هـ/ 1224م). للمزيد من التفاصيل عنه انظر: ابن حاتم، بدر الدين محمد بن حاتم اليامي الهمداني، السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، تحقيق: ركس سميث، لندن، 1974م، ص189.

(2) شنبل، تاريخ شنبل، ص104.

(3) ابن حسان، البهاء، ص127.

(4) تاريخ شنبل، ص124.

(5) معجم البلدان، 2/ 1035.

(6) الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت: 360هـ/ 970م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد ابن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1410ه/ 1990م، ص168.

(7) تاريخ شنبل، ص160.

في أحداث سنة 749هـ/ 1348م أن حسن بن يماني بنى قارة الأشباء لآل حسن، كما يذكر أنه في سنة 808هـ/ 1405م بنيت قارة الأشباء من قبل آل جميل[1]، ويشير في موضع آخر في أثناء سرده لأحداث سنة 827هـ/ 1423م أن شخصا اسمه محمد بن علي بن عمر بنى قارة الأشباء[2]، وهو ما يدفعنا إلى القول إن هذه القارة بنيت قديمًا من قبل قبيلة كندة - بحسب ما أورده الهمداني -، وما جاء عن المؤرخ شنبل يدل على أن هناك من أعاد ترميمها أو استحدث مباني جديدة فيها، وزيادات ضُمّت لهذه القارة ونسبت إلى بناتها من آل يماني أو آل جميل أو غيرهم.

وقد ظلت قارة الأشباء ملجأ للعديد من الأسر والقبائل التي قد تتجه إليها في حالة تعرضها لأي ظلم لحصانتها العسكرية، كالجماعات التي أخرجت من شبام سنة 771هـ/ 1369م من آل جميل فتوجهت إلى هذه القارة الحصينة، ليكونوا في حماية سكانها من آل حسن[3].

وعلى ما يبدو، فإن هذه القارة بتحصيناتها قد شكلت خطرًا تأذى منه بعض مشايخ حضرموت وكبار زعمائها، حتى إن بعضهم سعى إلى تدميرها لأهداف عسكرية، ومما يؤكد ذلك ما أورده المؤرخ ابن حسان[4] في أحداث سنة 840هـ/ 1436م بقوله: "أخرب ابن كثير قرن باهزيل مكان بالعروض، وقارة الأشبا، وهما يومئذ تحت يده".

(1) المصدر نفسه، ص201.
(2) ابن حسان، البهاء، ص209.
(3) المصدر نفسه، ص164.
(4) المصدر نفسه، ص219.

وتعد تلك الإشارة توضيحا لما كان لمثل تلك القور أو القرون الجبلية، وما يبنى عليها من حصون ذات أهمية عسكرية وتأثير دفع بالخصوم إلى ضرورة التخلص منها.

وفي الوقت نفسه، يذكر السقاف[1] أن هذه القارة هي ما يعرف باسم حصن آل الرباكي، ويصفه اليوم بأنه: "أطلال حصن دائر، بقُلّة قارة شاهقة، فيها بئر عميقة، وبجانب تلك القارة غار يصل إلى البئر، وكأن أحدًا حاصر الحصن، ولما أعياه.. حفر بجانب القارة حتى انتهى إلى البئر فقطع على أهله الماء". ويبين لنا ذلك الوصف أن مثل تلك القور التي تشيد عليها الحصون كانت تجهز تجهيزًا كاملًا بكل مرافقها، ويتم بناؤها وتحصينها، وتأمين البقاء فيها بحفر الآبار، وتوفير المياه، تحسبًا لأي حرب أو حصار قد يستمر لمدة زمنية طويلة[2].

3 - **قارة الشناهز**: كما برز في تاريخ بلاد حضرموت في العصر الإسلامي أسماء لبعض القور التي كان لها دور حضاري وعسكري كبير، لما دونته المصادر التاريخية من أحداث دارت حولها، ومعارك طاحنة اشتهرت بها، مما يؤكد لنا الأهمية الاستراتيجية والعسكرية التي تميزت بها بين بقية التحصينات الحضارية الحربية والعسكرية في المنطقة، ومن أشهر هذه القور القارة المعروفة بقارة الشناهز[3]، في نواحي مدينة سيئون بوادي حضرموت[4]، ويذكرها

(1) إدام القوت، ص569.

(2) انظر الملاحق.

(3) شنبل، تاريخ شنبل، ص79؛ بامخرمة، أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، إصدار وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 1425هـ/ 2004م، 3/ 3165.

(4) المقحفي، معجم البلدان، 2/ 879.

الشاطري[1] باسم قارة الصناهجة، وأنها تبعد عن تريم بنحو (10) أميال، وقد عرفتها بعض المعاجم اللغوية بأنها قلعة في حضرموت[2]، وهي مَبَانٍ على قارة فاردة لها ثلاثة رؤوس، وفي جنوبها جبل بسفحه قرية لا بأس بها، وحواليها مزارع كثيرة[3]، وعلى ما يبدو أن قارة الشناهز وجدت بها قلعة اشتهرت في ذلك الوقت، وارتبط تاريخها بالمنطقة التي وجدت فيها وعرفت بها (الشناهز)، وقد اختلف المؤرخون في سنة تعمير الشناهز، ومن أول من بناها، مع تأكيد بعضهم على أنها شيدت في التاريخ القديم[4]، ونتيجة لما لها من موقع ظلت هذه القارة من بين أهم المظاهر الحضارية والعسكرية في حضرموت في العصر الإسلامي، وتظهر لنا بعض الإشارات حول ما تعرضت له من حصار ومعارك مدى دورها العسكري، وصمود أهلها أمام غزوات القبائل التي كانت كثيرًا ما تهاجمها بهدف السيطرة عليها، في محاولة لإخضاعها لسلطتهم، كما ورد في أحداث سنة 595هـ/ 1198م، وسنة 598هـ/ 1201م[5].

وقد كان للتركيبة الجبلية لهذه القارة دوره في قوة بأس أهلها، وحنكتهم العسكرية والحربية، لما لها من طبيعة قاسية انعكست على طبيعة أهلها القتالية، حتى إنهم كانوا يغزون منها إلى بقية المناطق القريبة منهم، مع بعض الأحلاف القبلية التي عرفتها المنطقة، مثلما حدث في سنة 605هـ/ 1208م عندما خرجوا

(1) محمد بن أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي، ط3، دار المهاجر للنشر والتوزيع، تريم، 1415هـ/ 1994م، ص212.

(2) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت: 817هـ/ 1414م)، القاموس المحيط، تحقيق: مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوس، ط6، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1419هـ/ 1998م، ص661؛ الزبيدي، تاج العروس، 15/ 181.

(3) السقاف، إدام القوت، ص815.

(4) انظر: المرجع نفسه، ص816 – 817.

(5) شنبل، تاريخ شنبل، ص79، 82.

مع بعض قبائل حضرموت ليقاتلوا بعض خصومهم، ويخربوا بلادهم ودورهم، وقد أثبتت هذه الوقعة ما تميز به أهل الشناهز من قوة ومقدرة على القتال والحصار للمدن والقرى المحصنة[1].

وعلى أية حال، فقد تعرضت هذه القارة رغم حصانتها لحالات ضعف واختراق، أدت إلى سقوطها بيد بعض سلاطين المنطقة وقبائلها، مثلما حدث في سنة 748هـ/ 1347م، عندما هاجمها السلطان أحمد بن يمان ليسقطها ويخرج أهلها، ويشردهم في المنطقة[2]، كما تعرضت في سنة 773هـ/ 1371م لهجوم بعض قبائل حضرموت، لاسيما حلف آل كثير وآل جميل وغيرهم من قبائل نهد الذين دخلوها عنوة وقتلوا عددا من رجال قبائلها[3].

ومهما يكن من أمر، فقد أصاب قارة الشناهز وحصونها وحكامها الضعف والوهن حتى صارت عرضة لغزوات قبائل المنطقة وزعماءها، حيث يذكر أنه في سنة 791هـ/ 1388م هاجمها السلطان راصع بن دويس وأخذها بكل سهولة ويسر، دون أن تذكر المصادر أي مقاومة تذكر ضده[4]، كما شهدت هذه القارة في سنة 793هـ/ 1390م مقتل يماني بن محمد بن أحمد على يد أخدام ابن عمه راصع بن دويس[5].

4 - **قارة آل عبد العزيز**[6]: وهي من القور التي اشتهرت في حضرموت كمعلم حضاري حصين بمبانيها المختلفة وحصونها المنيعة، وتقع في جنوب مدينة شبام، وتنسب إلى سكانها آل عبد العزيز من آل كثير من قبيلة آل عامر

(1) عن هذه القبائل والأحلاف انظر: شنبل، المصدر نفسه، ص79، 82.
(2) المصدر نفسه، ص159.
(3) ابن حسان، البهاء، ص165 - 166.
(4) شنبل، تاريخ شنبل، ص190.
(5) المصدر نفسه، ص191.
(6) السقاف، إدام القوت، ص550 - 551.

الشنافر[1]، الذين ترجع أصولهم إلى قبيلة همدان، وهو ما أكده الهمداني[2] بقوله: "والقارة لهمدان، قرية عظيمة في وسطها حصن"، وقد تعرضت هذه القارة بحصنها للتدمير من قبل بعض قبائل حضرموت في حقب تاريخية مختلفة، منها ما حدث لها سنة 917هـ/ 1511م عندما هاجمها الشنافرة من آل محمد الكثيري بن أحمد بن سلطان من بلاد تريم، ودمروا حصنها الشهير بحصن آل عبد العزيز، وأحرقوا الكثير من نخلها[3].

5 - **قارة جُشيب أو جُشير**: وكانت من قور حضرموت الشهيرة، وعرفت باسم سكانها من قبائل كندة[4]، الذين كانوا فيها، فضلا عن قبائل أخرى سكنت هذه القارة، مثل قبائل: آل هذيل الذين كانوا يشكلون حلفًا قبليًا قويًا في حضرموت مع بعض قبائل حضرمية أخرى، مثل: بني حارثة وكحلان وبني حرام[5]، ويبدو أن تاريخ بناء هذه القارة كان مع بداية العصر الإسلامي، إذ سكنها السيد أحمد بن عيسى المهاجر (جد السادة العلويين الحضارم) أول القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، عند قدومه من العراق مباشرة[6]، وقد ظلت هذه القارة عامرة حتى تعرضت بكل مكوناتها ومنشآتها للتخريب في سنة 605هـ/ 1208م بعد مهاجمتها من طرف قبائل الشناهز والكسر وشبام[7]، ومع ذلك ظل لهذه القارة ذكر في عدد من المصادر في بعض أحداث حضرموت[8].

(1) المقحفي، معجم البلدان، 2/ 1234.
(2) صفة جزيرة العرب، ص169.
(3) شنبل، تاريخ شنبل، ص308.
(4) المقحفي، معجم البلدان، 2/ 1235.
(5) شنبل، تاريخ شنبل، ص90.
(6) المقحفي، معجم البلدان، 2/ 1235.
(7) ابن حسان، البهاء، ص94.
(8) انظر: شنبل، تاريخ شنبل، ص122.

6 - **قارة الحبوظي**، وهي من أشهر قور حضرموت التي عرفت في التاريخ الإسلامي، واشتهرت بعمرانها الكبير وآثارها الواقعة في سفح الجبل الشمالي، غربي صليلة[1]، وشرقي حصون آل الصقير، ويذكر السقاف[2] أن بهذه القارة بقايا آثار عمارات قديمة، وبئر في أعلاها، ومما لا شك فيه أن تعمير هذه القارة ارتبط بالوجود الحبوظي في حضرموت سنة 673هـ/ 1274م، حتى إنهم كانوا من بين أهم سكانها في العصر الإسلامي[3].

7 - **قور أخرى:**

أ - **قارة باجنادة:** وهي من قور حضرموت التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية في مدة الدراسة، وقد جاء عنها أنه قد أخذها آل عامر في أثناء الحرب التي وقعت بين آل عمر ومذحج سنة 792هـ/ 1389م[4].

ب - **قارة آل مخاشن:** جاء ذكرها في المصادر التاريخية الحضرمية، ويبدو من بعض الإشارات التي وردت عنها أنها كانت من القور التي شهدت بعض الأحداث، إثر الصراعات القبلية التي شهدتها المنطقة، وكان أهلها من أكثر المتضررين من هذه الصراعات، مثلما حدث لهم في سنة 795هـ/ 1392م[5]، كما تعرضت هذه القارة لهجوم في سنة 822هـ/ 1419م من قبل بعض قبائل المنطقة مثل آل عامر، وقتل على إثره شماخ بن عيسى الذي - على ما يبدو - كان من زعامات هذه القارة[6].

(1) صليلة: أحد قرى مديرية سيئون في حضرموت. الدليل الشامل لمحافظة حضرموت، مديرية سيئون، 2019م، عبر ويكيبيديا (صليلة سيئون).
(2) إدام القوت، ص760.
(3) انظر: الخزرجي، العقود اللؤلؤية، 1/ 181، 183.
(4) ابن حسان، البهاء، ص183.
(5) انظر: شنبل، تاريخ شنبل، ص193.
(6) المصدر نفسه، ص211.

ج - **قارة البيضاء**: كانت من بين القور المهمة في حضرموت، ولأهميتها العسكرية والتحصينية بُني عليها حصن بناه السلطان بدر بن عبد الله الكثيري (ت: 882هـ/ 1477م) سنة 860هـ/ 1455م، بعد اشتداد الصراع بينه وبين صاحب مريمة إحدى قرى سيئون، وقد انحاز لصاحب مريمة آل حبوظة وعقدوا صلح معهم، ودخلوا في حلف قوّى موقفهم أمام الكثيري، وأدى ذلك إلى خراب حصن البيضاء وتدميره[1].

وخلاصة القول، إن تلك القور لم تكن هي الوحيدة في حضرموت، بل وجد إلى جانبها قور أخرى كثيرة، لا يسعفنا المقام هنا ذكرها كلها في هذه الدراسة، إذ اكتفينا بأبرزها ذكرًا في مدة الدراسة، لما شهدته هذه القور من أحداث سياسية وحربية بحكم طبيعتها العسكرية والتحصينية التي بنيت لأجلها، لاسيما أن أكثر حصون حضرموت ومصانعها وقلاعها عُمرت على مثل هذه التحصينات الطبيعية المعروفة باسم القور.

ثانيًا - الحصون (المصانع):

كانت الحصون (القلاع) والمصانع[2] من أكثر التحصينات العسكرية الحضارية

(1) المصدر نفسه، ص237.

(2) هي الحصون، والحِصْنُ: كل مَوضِع حَصين لا يُوصل إلى ما في جَوفه، يقال: حَصُنَ الموضع حصانةً وحَصَّنْتُه وأحصنْتُهُ. وحِصنٌ حَصين: أي لا يُوصل إلى ما في جَوْفه. ينظر: الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (ت: 170هـ)، كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت، 3/ 118؛ الهروي، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري (ت: 370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001م، 4، 143. والقلعة حصن مشرف. ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 1/ 218. والمَصْنَعَةُ: صيغة اسمية تعني الحصن أو القلعة أو القرية الحصينة والمحصَّنة. الحميري، نشوان بن سعيد اليمني

التي عرفتها مدن حضرموت وقراها وأدويتها في تاريخها الإسلامي، مع العلم أن الحاجة إلى الأمن والاستقرار هي التي دفعت معظم قبائل حضرموت إلى التكلف وبذل الجهد والمال لتعمير مثل هذه الحصون حول مدنهم وعلى بعض مرتفعاتهم الجبلية القريبة منهم، لاسيما أن الكثير من مدن حضرموت الكبرى قد اشتهرت بمواقعها الاستراتيجية المهمة، وصار بعضها مراكز تجارية رابحة بعد انتعاش أسواقها، وانتشار صيتها تجاريًا وصناعيًا وزراعيًا، فضلًا عما عرف عنها كمراكز علمية، وهجر علم يتوافد إليها طلاب العلم والمعرفة لتلقي العلوم من منابعها، لما اشتهر عن علمائها من خبرات بكل أنواع العلوم، ومن الطبيعي جدًا أن تسعى القوى التي تحكم بعض هذه المدن إلى إرساء الأمن والاستقرار فيها، لتنعم بالأمن والأمان، وكجانب عسكري وتحصين أمني شيدت الحصون المنيعة حول تلك المدن، لتكون حاميا منيعا لأهلها والوافدين إليها من تجار وطلاب علم وعلماء وغيرهم، ونُشرت الحاميات العسكرية في مثل تلك الحصون، لتكون مقرات أمنية تحمي تلك المدن، أو تكون بمنزلة تحصينات يلجأ إليها الناس عند اشتداد الأمور.

وشكلت الحصون في حضرموت مظهرا حضاريا وعسكريا قديما، حتى إن بعضها ورد ذكره منذ القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، عند أحداث

(ت: 573هـ)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإرياني، د. يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1420هـ/ 1999م، 6/ 3833؛ 8/ 5598، 5609؛ الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي (ت: 666هـ)، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط5، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، 1420هـ/ 1999م، ص259.

حركة الردة في أواخر عهد النبي ﷺ، مثل حصن النجير الذي تحصّن فيه قوم من كندة كانوا قد ارتدوا عن الإسلام[1].

ولم تكن تلك الحصون مجرد مبانٍ عادية، أو مقرات ذات طابع عسكري أو مدني تقليدي، بل على العكس من ذلك؛ فقد ارتبط وجود مثل هذه الحصون بالمدن الحضرمية، وشكلت جزءا من عزة هذه المدن وصمودها، وبلغ من مكانتها أنه متى ما سقطت تلك الحصون سقطت المدينة مباشرة، وإن لم تدخلها أي قوات عسكرية أو حاميات[2].

وقد بنيت حصون بلاد حضرموت بموجب مواصفات عسكرية خاصة، عكست الجوانب الحضارية المتناسبة وطبيعة المنطقة الصحراوية أو الجبلية، وما شيدت لأجله، مع حرصهم على إطلاق اسم: حصن أو مصنعة[3] عليها لتميزها عن أي مبانٍ ومنشآت عسكرية أخرى.

وقد تنوعت مهام مثل تلك الحصون، وجمع بعضها بين وظيفتي السكن للحاكم، والموقع الدفاعي للمدينة، وشكل ما بني منها في قمم الجبال ملاجئ للسلاطين عند اضطراب مناطقهم، يهربون إليها، ويتحصنون بها حتى تستقر الأمور وتعود لطبيعتها، كما جاء في قصة الأمير راشد بن شجعنة بن إقبال الذي اضطر إلى الهروب إلى قمم جبال مدينة الشحر بعد مهاجمة قوات بني رسول لها سنة 677هـ/ 1278م، واستمر متحصنا في تلك الجبال وحصونها مدة من الزمن حتى استقرت الأوضاع[4].

(1) الجندي، أبو عبدالله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب، السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1414هـ/ 1993م، 1/ 111.

(2) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، 1/ 208.

(3) الجندي، السلوك، 1/ 111.

(4) شنبل، تاريخ شنبل، ص133.

وقد انتشرت مثل تلك الحصون حول بعض المدن الحضرمية العتيقة، مثل مدينتي شبام وتريم التاريخية[1]، ومن الإشارات التي تتحدث عنها يتبين لنا أن أعدادا كبيرة من هذه الحصون بنيت حول مدن حضرموت المذكورة وغيرها وعلى أطرافها، وعلى قمم الجبال القريبة منها للمراقبة والحماية، وقد تعرض أهالي هذه الحصون والمناطق القريبة منها في مدة الدراسة للعديد من المتاعب والمعاناة لما شهدته من معارك أثرت عليهم وعلى استقرارهم الاجتماعي[2]، مما أدى في بعض الأحداث إلى نزوحهم عنها، أو الحامية التي كانت تقيم فيها، مثلما حدث مع آل جميل سنة 771هـ/ 1369م عندما أخرجوا رتبة السلطان من حصن شبام وطردوهم عنه[3].

كما مرت بعض تلك الحصون بمواقف شديدة، ولحظات عصيبة، نتيجة لحصار ساكنيها، لفترات زمنية طويلة، تصل لدرجة انعدام الضروريات منها، من ماء وغذاء ومؤن، ووصل الأمر بأهلها إلى أكل كل ما يجدونه أمامهم لسد جوعهم، والبقاء أطول مدة ممكنة بسبب شدة الحصار.

ومن أشهر محطات الحصار التي تعرضت لها بعض حصون حضرموت في المدة موضوع الدراسة؛ الحصار الذي تعرض له آل حسن سنة 774هـ/ 1472م في شبام من قبل آل جميل، الذين كانوا قد سيطروا على معظم بلاد شبام إلا حصنا لجأ إليه آل حسن بعد أن قُتل العديد منهم، وقد ظلوا فيه محاصرين قرابة شهرين من الزمان، حتى نفد منهم كل ما كان بحوزتهم من ماء وطعام، مما اضطرهم إلى أن يأكلوا الحمير والجلود[4]، وقد تكررت عمليات محاصرة مثل هذه الحصون،

(1) الحامد، تاريخ حضرموت، ص495.
(2) شنبل، تاريخ شنبل، ص174، 175.
(3) ابن حسان، البهاء، ص164.
(4) الكندي، العدة المفيدة، ص130؛ باحنان، محمد بن علي بن عوض، جواهر تاريخ الأحقاف، دار المنهاج، جدة، 1420هـ/ 2008م، ص443.

وتعب أهلها بسبب ذلك، مما اضطرهم إلى الدخول في صلح مع الجهات المحاصرة لهم تجنبًا لتدهور الأوضاع وانهيارها، مثلما حدث في سنة 791هـ/ 1388م، عندما حط السلطان راصع بن دويس بتريم، وحاصر حصنها بمن فيه من أهالي، مما دفع بهم إلى مصالحته، لفك ذلك الحصار عن حصنهم[1].

وقد حظيت حصون هاتين المدينتين (شبام وتريم) باهتمام السلاطين ورعايتهم لما لها من أهمية عسكرية دفاعية، ولزيادة تأمينها؛ قام بعض هؤلاء السلاطين بحفر الآبار لتوفير المياه لسكانها والحاميات الموجودة فيها إذا ما تعرضت لأي حصار مفاجئ، ومن تلك الآبار البئر التي حفرها السلطان الكثيري في حصن شبام في سنة 836هـ/ 1432م[2].

وعلى أية حال، فقد ظلت حصون شبام وتريم قائمة وثابتة في أثناء مدة الدراسة يتحصن بها أهلها في أوقات الأزمات الشديدة، مثلما حدث في سنة 926هـ/ 1519م مع أهالي مدينة تريم عندما هاجمها السلطان بدر بن عبد الله ابن جعفر على رأس قوة تركية يتزعمها قائد تركي يسمى رجب التركي، مما اضطر أهالي تريم إلى اللجوء إلى مثل هذه الحصون نحو عشرين يومًا، والمكوث فيها، ونتيجة لشدة الحصار اضطروا إلى الاستسلام وبذل فروض الطاعة والولاء مقابل حفظهم وسلامتهم[3].

وفي الوقت نفسه، عرفت مدينة الشحر التاريخية بحصونها العسكرية الشهيرة والتي يعود تاريخ بناء بعضها إلى الحقبة الإسلامية أو أقدم من ذلك، مثل: حصن المصبح، وهو من أقدم حصون الشحر، وقد بني في القرن

(1) شنبل، تاريخ شنبل، ص190.

(2) المصدر نفسه، ص221.

(3) باسنجلة، العقد الثمين، ص38 - 39.

السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وتحديدًا سنة 670هـ/ 1271م في عهد السلطان المظفر الرسولي يوسف بن نور الدين عمر بن رسول، وقد كان إلى جانب الدور الدفاعي والعسكري لهذه المعالم دور آخر اجتماعي؛ يتمثل في إقامة أهالي الشحر مناسباتهم المختلفة واحتفالاتهم فيها، فيجتمعون في ساحاتها وغرفها في بعض المناسبات، ومن الملاحظ - كما يشير بعض المهتمين - أن بناء مثل هذه الاستحكامات العسكرية بنمطها الدفاعي المتقن إنما يدل على الخبرة العظيمة التي تميز بها أهالي هذه المنطقة، فضلًا عما تميزوا به من قيادة وفروسية، وصناعة لأنواع الأسلحة من سيوف ودروع وغيرها، وتقع بقايا هذا الحصن اليوم غربي حصن بن عيّاش، جنوبي دار السينما، وهو تل عالٍ من التراب[1].

وقد حاولنا في دراستنا هذه البحث والتقصي أيضًا عن أهم الحصون الحضرمية التي ورد لها ذكر في المصادر التاريخية، في محاولة لحصر المهم منها، لما تمثله من دور عسكري وحضاري بارز في مدة التاريخ الإسلامي، وتحديدًا مدة الدراسة، ووجدنا أن من أهم تلك الحصون وأشهرها هي:

حصن مريمة: ويُعد من الحصون الحضرمية القديمة التي كان لها دور سياسي وحضاري كبير، ومن الملاحظ أنه اشتهر بتحصيناته الشديدة، حتى إنه صار مقرًا يحتجز فيه أبرز الشخصيات القبلية المعارضة في حضرموت، فضلا عن الزعامات القبلية المتمردة، وتورد المصادر التاريخية إشارات إلى أنه قد سجن في هذا الحصن العديد من الشخصيات الحضرمية من سلاطين وحكام الوادي في فترات تاريخية مختلفة، ومن أشهر هؤلاء: السلطان عبد الله بن راشد الكثيري سنة

(1) الهندي، خالد يوسف، الشحر حضارة وتاريخ ومعْلم، ط2، مطابع حضرموت الحديثة، الشحر، 1436هـ/ 2015م، ص92.

614هـ/ 1217م[1]، كما سجن فيه السلطان محمد بن بدر بن محمد بن عبد الله، ومات مقيدًا فيه في سنة 943هـ/ 1536م، ويقال سنة 946هـ/ 1539م[2].

حصن الرملة[3]: كان من حصون حضرموت التي كان لها دور في تاريخ المنطقة في المدة موضوع الدراسة، ويذكر أن من قام ببنائه آل جميل في سنة 757هـ/ 1356م، وقد تعرض هذا الحصن للحصار من قبل آل حسن وأحلافهم من قبائل حضرموت، الذين خيموا تحته حتى أسقطوه وسيطروا عليه، ثم أخربوه، لما كان يمثل لهم من خطر لحصانته[4].

حصن الريدة[5]: من حصون حضرموت التي كان لها ذكر في المدة موضوع الدراسة، إذ شهد العديد من الأحداث في العصر الإسلامي، منها أحداث سنة 765هـ/ 1363م التي قتل فيها مبارك بن بادجانة، ومبارك بن سليمان، ونحو خمسة وعشرين من أصحابهم[6]، كما توفى فيه في السنة التي تليها سنة 766هـ/ 1364م الأمير أحمد بن الحاجب الذي كان مقيمًا فيه[7].

حصن الرناد: وهو من الحصون القديمة في حضرموت، لما اكتشف فيه من آثار تدل على أصالة تاريخه، ومما وجد فيه رأس تمثال لحيوان من الرخام،

(1) الصبان، تعريفات تاريخية، ص23.
(2) باسنجلة، العقد الثمين ص57.
(3) الرملة: قرية في أرباض تريم في شمال حصن العز إلى الشرق. انظر: السقاف، إدام القوت، ص847.
(4) شنبل، تاريخ شنبل، ص165.
(5) الريدة: هناك العديد من المناطق التي حملت اسم الريدة في حضرموت، دون أن تشير المصادر إلى أي ريده منها يقصد المؤرخ. انظر عن بعض المناطق التي سميت بالريدة: الحداد، الشامل، 3/ 1089 - 1090.
(6) شنبل، تاريخ شنبل، ص169.
(7) المصدر نفسه والصفحة.

وفي أعلاه كتابات مسندية[1]، وعلى ما يبدو فإن هذا الحصن شهد العديد من الأحداث في المدة موضوع الدراسة، فكسب أهمية خاصة بين حصون حضرموت في ذلك الزمن، على الرغم من قدمه، فبلغ من أهميته إلى درجة أن يتم إعادة بنائه وترميمه في مدة الدراسة، ومن ذلك ما جاء عن السلطان عبد الله ابن راشد القحطاني أنه أعاد بناء هذا الحصن وترميمه، وهو الذي ورد ذكره باسم حصن أو مصنعة الرناد[2].

حصن العُر: ويقع في أعلى قارة العُر، ويتميز بحصانته العسكرية، وتذكر المصادر التاريخية أن آثاره ما زالت باقية، وقد بني من الحجارة المنحوتة[3]، ويبدو أنه كان له دور في حقبة التاريخ الإسلامي.

حصن الدَّوِيْل: وهو من حصون آل كثير بسيئون، وبدأ يظهر مقرًّا لدولتهم عند إنشائها في سنة 814هـ/ 1411م، وقد اتخذه السلطان بدر أبو طويرق مقرا لإقامته في سنة 922هـ/ 1516م، وبنى فيه مسجدًا، وجدد عمارته، واعتُقِل بدر أبو طويرق من قبل منافسيه في هذا الحصن لينقل فيما بعد سجينًا إلى حصن مريمة[4].

حصن العز: ويقع في جنوب تريم[5]، ويعد من التحصينات التي بناها السلطان عبد الله بن علي بن عمر الكثيري (825 – 849هـ/ 1422 – 1446م)، بعدما زاد

(1) الصبان، تعريفات تاريخية، ص26.
(2) الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، ص212.
(3) يذكر السقاف أن بعض السواح الأجانب أنكروا أن يكون من بناء الحضارم، وتوهم بعضهم أنه من بناء حكماء اليونان ومهندسيهم، لأنه بصنعهم أشبه. إدام القوت، ص1008. وعلى ما يبدو فإن بعض التشابه في النمط المعماري أو الأشكال الهندسية هو ما جعلهم يعتقدون ذلك.
(4) الصبان، تعريفات تاريخية، ص9.
(5) المرجع نفسه، ص26.

خلافه مع دويس بن راصع سنة 842هـ/ 1438م، وكان من بين أهم الحصون التي بنيت لحماية مدينة تريم في ذلك الوقت[1].

حصن الركة: ويذكره شنبل[2] في أحداث سنة 822هـ/ 1419م، ويقول: إن بني ربَّاع بنوا حصنًا فوق الركّة. وعلى ما يبدو أنه يقع في سدبة[3]، لما جاء عنها من معلومات وعن سكانها من آل رباع الذين بنوا هذا الحصن[4].

حصن آل عمر: وهو من الحصون التي بنيت في المدة موضوع الدراسة، وتحديدًا في سنة 822هـ/ 1419م، وقد بناه آل عمر على ساقية عمد[5]، ليكون لهم تحصينًا ولمناطقهم من القبائل المحيطة بهم[6].

حصن مسيب: وكان من حصون حضرموت المهمة التي ورد ذكرها في المصادر دون ضبط موقعه تحديدًا، وقد جاء عنه أنه كان له شأن عظيم، بلغ ببعض قبائل المنطقة إلى مهاجمته وتدميره وقتل أهله، ومما يؤكد ذلك ما جاء عنه أنه في سنة 825هـ/ 1421م هاجمه آل كثير ودمروه والمدينة، وقتلوا من أهله نحو أحد عشر رجلًا، كما دمروا ما حوله من ديار، بعد أن أخرجوا أهلها منها[7].

(1) السقاف، إدام القوت، ص857.

(2) تاريخ شنبل، ص210.

(3) سدبة: من قرى حورة من مديرية القطن في وادي حضرموت، تشتهر بزراعة النخيل والكروم وأشجار السدر. انظر: المقحفي، معجم البلدان، 1/ 780.

(4) السقاف، إدام القوت، ص857.

(5) عمد: واد في غربي دوعن، منابعه من جبل شناع، ومنطقة هينن، غربي القطن. انظر: المقحفي، معجم البلدان، 2/ 1117.

(6) شنبل، تاريخ شنبل، ص210.

(7) ابن حسان، البهاء، ص209.

حصن موشح: ويقع في وادي بن علي جنوب شرق مدينة شبام، وكان من حصون حضرموت التي دمرت في مدة الدراسة كما يذكر لنا المؤرخ شنبل[1]، حيث يقول: في أحداث سنة 827هـ/ 1423م أنه تم إخراب هذا الحصن والديار التي حوله، دون أن يذكر المؤرخ سبب التخريب، وماهي الديار التي كانت حوله التي أخربت.

حصن السعيدية: من حصون شبام حضرموت الحربية القديمة، ويعتقد أن بناءه يعود إلى عصر الدولة الكثيرية الأولى سنة 780هـ/ 1379م، دون تحديد في حكم أي من سلاطينها[2].

حصن الهاجري: ويقع شرقي شبام، وهو أول حصون آل كثير في هذه المنطقة[3].

حصن العجز: وهو من الحصون التي بناها السلطان عبد الله بن علي الكثيري في سنة 842هـ/ 1438م، ثم قام بإخرابه وقد قارب الإكمال[4]، دون أن يوضح سبب إخرابه لهذا الحصن، الذي - على ما يبدو - قام بإخرابه تخوفًا من وقوعه في يد أعدائه من القبائل الأخرى.

حصن الغرفة[5]: وقد بناه آل كثير، وهو من الحصون التي تحصّن فيها يماني بن عبد الله بن علي سنة 845هـ/ 1441م بعد أن حاصره فيه أهل حضرموت من آل يماني وآل أحمد والصبرات وبعض آل كثير وآل ثعلب وصاحب مريمة

(1) تاريخ شنبل، ص214.
(2) السقاف، إدام القوت، ص495، حاشية رقم (2).
(3) المصدر نفسه، ص554.
(4) شنبل، تاريخ شنبل، ص223 - 224.
(5) الغرفة: بلدة عامرة بجوار سيئون. الأكوع، إسماعيل ابن علي، البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1408هـ/ 1988م، ص217.

وغيرهم، واستمر حصارهم له لمدة شهرين دون أن يحققوا أي تقدم أو سيطرة[1]، إلا أن رجال هذه القبائل لم يدخلهم اليأس من اقتحام هذا الحصن حتى تمكنوا من ذلك في سنة 846هـ/ 1442م، فقاموا بإخرابه وتدميره، وإحراق ما حوله من النخيل وغيرها[2].

حصن بور: من معاقل حضرموت الحصينة، وقد بناه محمد بن عبد الله الكثيري، ثم أخذه أخوه بدر بن عبد الله منه في سنة 848هـ/ 1444م، وبقي بيده[3].

لم تكن تلك الحصون إلا نموذجًا لغيرها من الحصون والقلاع والمصانع الحضرمية التي انتشرت في جبال حضرموت وسهولها ووديانها في العصور التاريخية المختلفة، وقد حاولنا هنا التركيز على أهمها لاسيما التي كان لها دور في العصر الإسلامي، وتحديدًا في مدة الدراسة، وعلى الرغم من دور هذا النوع من التحصينات في حماية المدن، إلا أن هناك تحصينات أخرى أدت دورا كبيرا، وشكلت واحدة من بين أهم التحصينات العسكرية الحضارية في المنطقة إلى جانب الحصون، ألا وهي الأسوار والدروب التي أحاطت بالمدن الحضرمية وزادتها حصانة وقوة.

ثالثًا – الأسوار:

حرص حكام الدول التي قامت في حضرموت عبر تاريخهم الطويل على تحصين مدنهم ببناء الأسوار حولها حفاظًا عليها من هجمات القبائل التي كانت لا تتوانى عن مهاجمتها في أي لحظة ضعف قد يشعرون بها، ومما لا شك فيه أن حضرموت قد اشتهرت بمدنها العظيمة والعتيقة التي من الطبيعي

(1) شنبل، تاريخ شنبل، ص225.
(2) ابن حسان، البهاء، ص222.
(3) شنبل، تاريخ شنبل، ص227.

أن تُسوَّر وتحصَّن بأسوار مرتفعة تمتد لمسافات، حتى تكتمل حلقتها حول المدينة المعينة، وإذا نظرنا – على بسيل المثال – إلى **مدينة تريم** التاريخية لوجدنا إشارات إلى أسوارها الحصينة في العصر الإسلامي، ومن ذلك ما ورد عن سورها أو دربها – كما كان يعرف – الذي بني في عهد السلطان عبد الله ابن راشد القحطاني سنة 601هـ/ 1205م[1]، وامتد هذا السور من قارة العز – التي أشرنا لها سابقًا – إلى حيد (جبل) يسمى حيد قاسم[2]، وعلى ما يبدو فإن للحروب والغزوات التي تعرضت لها المدينة أثرا في تخريب سور مدينة تريم – كما لاحظنا فيما سبق من بعض غزوات القبائل لها، وكان أبرز تخريب تعرض له بعد غزو السلطان بدر بن محمد الكثيري[3] للمدينة سنة 895هـ/ 1490م، ثم عُمّر[4] دون أن تشير المصادر إلى الجهة التي تولت تعميره مرة أخر.

وفي سنة 910هـ/ 1505م خُرِّب سور مدينة تريم مرة أخرى على يد السلطان عبدالله بن راصع إثر غزوه للمدينة[5]، ثم أعاد تجديده مرة أخرى السلطان

(1) الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، ص212.

(2) شنبل، تاريخ شنبل، ص84.

(3) هو السلطان بدر بن محمد بن عبدالله بن علي بن عمر الكثيري، ولد في مدينة شبام، وترعرع بها، وأخذ العلم على يد جماعة من علمائها، وتنقل بين مدن حضرموت المختلفة، ويعد من أفضل سلاطين الدولة الكثيرية وأعلمهم، واشتهر بأنه كان غزير العلم، واسع الاطلاع، يحب رجال العلم، وشغوفا بالأدب والشعر، توفى سنة 915هـ/ 1510م، ودفن في مدينة شبام. انظر: ابن هاشم، محمد، تاريخ الدولة الكثيرية، ط1، تريم للدراسات والنشر، تريم، 1423هـ/ 2002م، ص50 – 51.

(4) شنبل، تاريخ شنبل، ص262.

(5) شنبل، تاريخ شنبل، ص278.

محمد بن أحمد بن يمان سنة 913هـ/ 1508م، ونصب سدده (أبوابه) التي عُرفت بضخامتها[1]، وجعل للمدينة ثلاثة أبواب:

الباب الأول: من جهة الجنوب من الحصن عند البئر المسماة عاسل.

الباب الثاني: من جهة الشرق عند حارة آل شريف.

الباب الثالث: من جهة الشمال عند حارة العقارص[2].

ويشير السقاف[3] إلى أن ذلك السور لم يكن له وجود بعد ذلك، والسبب يعود إلى أن السلطان بدر بوطويرق[4] هو من قام بتهديمه كاملاً، بعدما أخذ تريم سنة 926هـ/ 1520م من يد محمد بن أحمد بن يمان[5].

ومن الملاحظ أن بناء الأسوار حول المدن كان من الأولويات التي ركز عليها الحضارم، لاسيما على المدن الكبرى، **كمدينة شبام** التاريخية، ويذكر

(1) شنبل، تاريخ شنبل، ص286.
(2) الصبان، تعريفات تاريخية، ص17.
(3) إدام القوت، ص857.
(4) هو السلطان بدر أبو طويرق بن عبد الله بن جعفر الكثيري (902 - 977هـ/ 1497 - 1570م)، ولد وتربى وحكم ومات في مدينة سيئون، تولى السلطنة صغيرا بعد وفاة أبيه، ونشأ موفقا في سياسته، طيب السيرة، وافر العقل، جوادا، ويُعد أول من عمل لتوحيد مناطق حضرموت، فاستعان بالترك وكاتب السلطان سليمان القانوني، فجاءته سنة 926هـ/ 1520م قوة منهم، أضاف إليها بعض الزيود من اليمن، ورجالًا من يافع، ومن الموالي الإفريقيين، فتألف جيشه من هؤلاء جميعا، وصدّ غارات البرتغال مرارا، وأطفأ كثيرًا من الفتن الداخلية في بلاده، وطالت مدته إلى أن حجر عليه ابن له اسمه عبد الله، فأقام إلى أن مات. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، ط5، دار العلم للملايين، د. ب، 2002م، 2/ 45.
(5) يذكر الصبان أن السور جدد مرة أخرى في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. انظر: تعريفات تاريخية، ص17.

لنا الصبان[1] أنه وجد حول مدينة شبام سور أحاط بها، وكلما تهدم أعيد ترميمه للحفاظ عليه وعلى المدينة، حتى إنهم لم يجعلوا لهذا السور إلا بابًا (سدة) واحدًا، مصنوعا من الخشب الحمر القوي، ومطبع بمسامير عريضة، ونرجح أنها كانت بمنزلة تشكيلات لهذا الباب، ولكي تعمل على تمكينه وربط خشبه، وكان هذا الباب يغلق ليلًا على زوار المدينة ومرتاديها، كجانب أمني احترازي لتجنب دخول الغرباء إليها[2]، ومما يعاب على المؤرخ الصبان أنه لم يحدد لنا سنة بناء هذا السور وفي عصر أي دولة من الدولة التي قامت على أراضي حضرموت.

وشكلت **مدينة الشحر** الساحلية من المدن المهمة والحصينة في بلاد حضرموت، ونتيجة لأهميتها التاريخية والاقتصادية حظيت باهتمام بعض الدويلات التي حكمت حضرموت مثل: الدولة الرسولية التي أولت هذه المدينة عناية خاصة في مدة وجودها هناك (677 – 836هـ/ 1278 – 1432م)، ولتكون المدينة في مأمن سعت لتحصينها بسور عرف بسور القرية، وينطلق هذا السور من حارة القرية على ضفاف الدلتا الشرقية بمسيال وادي سمعون بالقرب من البحر، ويقع طرفه الشمالي في السوق الحالي مع الشارع العام الخارج من المدينة، والمؤدي إلى شرقها باسم (مطراق حنين) حتى شاطئ البحر جنوبًا إلى منطقة المجرف، وسميت بهذا الاسم لأنها تقع على أجراف الطين، وهو مبني من اللبن بارتفاع ثمانية أذرع، وللسور عدة بوابات منها البوابة الرئيسة

(1) تعريفات تاريخية، ص21.

(2) المرجع نفسه والصفحة.

التي تؤدي إلى ساحة السوق، وعلى السور عدد من القلاع الدفاعية، وعلى الشاطئ مثلها[1].

وعلى ما يبدو فإن الشحر عرفت بتحصيناتها العسكرية وأسوارها الحصينة منذ أزمنة سابقة، ومما يؤكد ذلك الإشارة التي أوردها شنبل[2] عند حديثه عن أحداث سنة 599هـ/ 1202م التي ذكر فيها عن عبدالله بن راشد الحميري (553 - 616هـ/ 1158 - 1219م) أنه حاصر الشحر مدة شهر كامل، دون أن يذكر لنا شنبل نتيجة هذا الحصار الذي يبدو أنه فشل أمام صمود أسوار مدينة الشحر، كما تعرضت الشحر في سنة 691هـ/ 1291م لحصار شديد آخر من قبل العديد من الزعامات القبلية المعروفة في المنطقة في ذلك الحين، أمثال: عبدالرحمن بن راشد بن إقبال، وشخص يسمى أبو هبري، وآل أبي عويدين، وآل صيف، وأعداد من العساكر الذين ينتمون إلى قبائل بني همام، وقبائل العوابثة، ومائة وعشرين فارسا من قبائل مختلفة، إلا أن تحصينات هذه المدينة أفشلت كل حصار تعرضت له، حيث تذكر المصادر التي أرخت لهذه الحوادث أن الغزاة عادوا دون تحقيق انتصار[3].

وفي الوقت نفسه، حظيت **مدينة سيئون** التاريخية بعناية بعض سلاطين بلاد حضرموت الذين اهتموا بتحصينها بدروب وأسوار عالية للحفاظ عليها وحمايتها، وممن يذكر بذلك السلطان بدر بن عبدالله بن علي بن عمر الكثيري الشهير باسم بدر أبو طويرق (902 - 977هـ/ 1496 - 1569م) الذي سور المدينة من الجهة الشمالية في القرن العاشر الهجري/ السادس عسر الميلادي، لتجنيبها غزوات

(1) الهندي، الشحر حضارة وتاريخ ومعْلم، ص92؛ نقلاً عن مقال للأستاذ: عبد القادر عوض بامؤمن في مجلة ضبضب، المجلس العمالي بالعقار، العدد (5، 6)، ديسمبر، 2009م.

(2) تاريخ شنبل، ص82.

(3) شنبل، تاريخ شنبل، 138.

بعض القبائل الحضرمية،، وقد هدم هذا السور ولم يبق منه إلا أطلال بسيطة فيما بعد[1]، ويبدو أن هذا السور حفظ المدينة كثيرًا وحافظ عليها وعلى أهلها.

ومن الملاحظ أن تاريخ التحصينات والأسوار في حضرموت قد حظي باهتمام بعض المؤرخين والجغرافيين اليمنيين وغيرهم منذ المدة السابقة لمدة الدراسة لأهميتها، إذ يذكر المؤرخ والجغرافي الهمداني[2] الذي عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بعض هذه التحصينات العسكرية والأسوار التي شيدت للحفاظ على عدد من المدن والقرى الحضرمية، كخطوط دفاعية لها، مثل: **سور أو درب رخية** الذي عرف بسور بني نعيم، وهم من قبائل تجيب، وعلى ما يبدو فإن هذا السور كان يحيط بقرىً كثيرة كانت تابعة لبني نعيم، وظل موجودا حتى مدة متأخرة من التاريخ الإسلامي.

كما عرفت بعض قرى حضرموت بأسوارها الحصينة في العصر الإسلامي مثل قرية العجز[3] في نواحي مدينة تريم، وعلى مقربة من سيئون، وقد اشتهرت بقبائلها الحميرية، وكثرة الصلحاء فيها، أمثال آل باقشير، وآل بافضل[4]، وقد

(1) يذكر الصبان: أنه في عهد السلطان علي بن منصور الكثيري وتحديدًا في سنة 1350هـ/ 1931م أُعيد بناء سور جديد لمدينة سيئون، يبتدئ من حصن الفَلَس، ويسير في خط مستقيم عرض حتى زوية، ثم يتجه في خط طويل يمتد إلى الغرب حتى مسجد الحداد غربًا، ثم ينعطف إلى الجبل القبلي، وجعل للسور ثلاثة مداخل (سدد)، أي ثلاثة بوابات، وخمسة مسالف أي منافذ: السدة الأولى قبلية وفي الناحية الغربية للمدينة، والسدة الثانية شرقي وفي الناحية الشرقية للمدينة (سدة زويا)، والسدة الثالثة في الوسط من الناحية الجنوبية، وهي سدة كلابه، محل حصن طلابة، ويضيف الصبان: أن السور إلى الآن باقٍ أغلبه، وطمست يد العمران الحديثة بعض معالمه. انظر: تعريفات تاريخية، ص11 – 12.

(2) صفة جزيرة العرب، ص172.

(3) شنبل، تاريخ شنبل، ص99 – 100.

(4) المقحفي، معجم البلدان، 2/ 1020.

شهد هذا السور العديد من المعارك التي حصلت تحته في المدة موضوع الدراسة، وهزمت بسبب حصانته رجال قبائل حاولوا اختراقه وتعديه للوصول للقرية والسيطرة عليها[1].

رابعًا – الأخاديد أو الخنادق:

الأخدود في اللغة هو الشق المستطيل في الأرض، وضربة أخدود شديدة خدت في الجلد، ويقال في ظهره أخاديد السياط آثارها[2]، في حين تعرف كتب اللغة الخندق بأنه حفير حول أسوار المدن، وهو أيضًا مستطيل وعميق يقي المدن أي هجوم للوصول إليها[3].

وقد كانت الأخاديد من التحصينات العسكرية المهمة التي سعى حكام بعض المدن الحضرمية، وزعماء قبائلها إلى تحصين مدنهم بها، لتكون خطًّا دفاعيًّا لأسوار هذه المدن وعسكرها، وبحكم أهمية بعض المدن الحضرمية ومواقعها المهمة حصنت بعضها ببناء الأخاديد حولها، مثلما يذكر عن مدينة شبام التاريخية التي ذكر أن ابن مهدي حفر حولها أخدودا أو خندقا لحمايتها ومنع القبائل أو غيرهم من الوصول إليها في سنة 618هـ/ 1222م كجانب احترازي لحمايتها[4].

---

(1) انظر: شنبل، تاريخ شنبل، ص100.

(2) ابن أبي الحديد، أبو حامد عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين (ت: 656هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، (د. ت)، 6/ 441؛ 9/ 267؛ إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ص220.

(3) ابن منظور، القاموس المحيط، ص1138؛ إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ص258.

(4) شنبل، تاريخ شنبل، ص102؛ الحامد، تاريخ حضرموت، ص495.

الخاتمة:

لقد توصلنا في بحثنا المتواضع هذا الموسوم بـ: "التحصينات العسكرية لمدن حضرموت من القرن 6 – 10هـ/ 12 – 16م (دراسة تاريخية)" إلى عدد من النتائج والاستنتاجات التي يمكن تلخيصها في الآتي:

1. أنه على الرغم من الطبيعة القبلية لبلاد حضرموت في مدة التاريخ الإسلامي إلا أنه ظهرت فيها بعض ملامح الحياة العسكرية التنظيمية فيها – وإن كانت متأخرة –، والتي كانت بداية لما يعرف بالجيوش النظامية المعروفة اليوم.

2. أن أكثر ما أكّد لنا وجود بعض المظاهر العسكرية الحضارية في بلاد حضرموت؛ انتشار عدد من المصطلحات العسكرية، والتعامل مع أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة، والحصون والقلاع الحصينة والأسوار والخنادق، ومصطلحات المعارك والتحالفات والوقعات التي تدل على التنظيم العسكري الحربي الذي كان بين قبائل المنطقة.

3. كان للخبرات التي جاءت بها قوات الدولتين الأيوبية والرسولية أثره الواضح في ظهور التنظيمات العسكرية في بلاد حضرموت في المدة موضوع الدراسة، حتى إن اختلاط قبائل المنطقة بتلك القوات أدى إلى الاستفادة من خبراتها العسكرية والتنظيمية والقتالية، الدفاعية والهجومية، لاسيما أن خبرات هاتين الدولتين لم تكن على مستوى اليمن فقط، بل على مستوى أقاليم العالم الإسلامي.

4. أقام الحضارم في مدة الدراسة وما قبلها تجمعاتهم السكانية في أماكن تخضع لمواصفات خاصة، وكانت المناطق المرتفعة، ورؤوس الجبال

المنفردة ذات الطريق الواحد من أكثر ما عمّر الحضارم حصونهم ومساكنهم عليها، لاسيما أنها كانت عبارة عن تحصينات طبيعية لا مثيل لها، عرفت باسم القور أو القارات، وكانت من أحصن الأماكن التي بنيت فيها الحصون والمساكن والصهاريج، وحفرت فيها الآبار الصالحة للشرب، وتموينها بما تحتاج له من طعام وشراب لتكون جاهزة لأي حصار قد تتعرض له، وفي أي لحظة كانت.

5. حرص الحضارم على بناء الحصون العسكرية الدفاعية حول مدنهم وقراهم، وفي مناطق متفرقة من هذه المدن والقرى، ووضعت فيها حاميات عسكرية مدربة لحراستها من أي غزو مفاجئ لها، وقد أبدعوا في تخطيط مثل هذه الحصون وبنائها، ليكون لها أكثر من غرض مدني وعسكري، للسكن والمراقبة، فسكن فيها السلاطين والولاة والعمال في أوقات اشتداد الحروب ليكونوا في مأمن من أي خطر لحصانتها.

6. كانت الأسوار من بين أهم التحصينات التي حصنت بها المدن الحضرمية في العصر الإسلامي، وقد بنيت تلك الأسوار بموجب مواصفات خاصة، من حيث الارتفاع والسُّمك والمتانة، والأبواب ذات القوة والارتفاع العالي لتكون أكثر صمودًا في حالة الهجوم عليها عند الحروب والمعارك الشديدة.

7. سعت بعض المدن الحضرمية في العصر الإسلامي إلى زيادة تحصين مدنها على الرغم من وجود أسوار حصينة حولها عبر حفر الأرض وشقها بشكل مستطيل، وعمل الخنادق والأخاديد العميقة حول هذه المدن وأسوارها كجانب احترازي دفاعي مهم، يمنع العدو من الوصول إلى عمق المدن في حال حصارها أو مهاجمتها.

8. أن دراسة تحصينات المدن في العصر الإسلامي، والحياة العسكرية في حضرموت في حاجة إلى توسع وجدية، ومن جانبنا قمنا في هذه الدراسة بوضع أسسها التي تفتح المجال أمام طلاب الدراسات العليا في قسمي التاريخ والآثار للتوسع فيها لتكون مستوفية لهذه الحقبة التاريخية وتاريخها الزاخر بالمعلومات والآثار التي مازال بعضها قائمًا حتى اليوم يحكي حكاية تاريخ هذه الأمة ومنطقة حضرموت وقبائلها وأهلها ومناطقها وأوديتها وجبالها المختلفة.

المصادر والمراجع:

1. إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة، (د. ت).
2. الأكوع، إسماعيل بن علي، البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1408هـ/ 1988م.
3. باحنان، محمد بن علي بن عوض، جواهر تاريخ الأحقاف، دار المنهاج، جدة، 1420هـ/ 2008م.
4. باسنجلة، عبد الله بن محمد بن أحمد (ت: 986هـ)، تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1428هـ/ 2007م.
5. بامخرمة، أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، ج3، إصدار وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 1425هـ/ 2004م.
6. الجعدي، عمر بن علي بن الحسن بن سمرة، طبقات فقهاء اليمن: تحقيق: فواد سيد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1401هـ/ 1981م.
7. الجندي، أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب، السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1414هـ/ 1993م.
8. ابن حاتم، بدر الدين محمد بن حاتم اليامي الهمداني، السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، تحقيق: ركس سميث، لندن، 1974م.
9. الحامد، صالح، تاريخ حضرموت، ط2، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1423هـ/ 2003م.
10. الحداد، علوي بن طاهر بن عبد الله بن طه، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، دراسة وتحقيق وفهرسة: محمد يسلم عبد النور، ط1، مطبعة وحدين الحديثة للأوفست، المكلا، 1437هـ/ 2016م.
11. ابن أبي الحديد، أبو حامد عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين (ت: 656هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، (د. ت).

12. ابن حسان، عبد الرحمن بن علي (ت: 818هـ)، البهاء في تاريخ حضرموت (أقدم تاريخ حضرمي مرتب على الحوادث والسنين)، عنى بتحقيقه وقدم له: عبدالله محمد الحبشي، دار الفتح للدراسات والنشر، عمّان، 1441هـ/ 2020م.
13. الحميري، نشوان بن سعيد اليمني (ت: 573هـ)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإرياني، د يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1420هـ/ 1999م.
14. الخزرجي، أبو الحسن علي بن الحسن (ت: 812ه/ 1409م)، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، عنى بتصحيحه: محمد بسيوني عسل، مطبعة الهلال، القاهرة، 1329ه/ 1911م.
15. الدليل الشامل لمحافظة حضرموت، مديرية سيئون، 2019م، عبر ويكيبيديا (صليلة سيئون).
16. الدمشقي، أحمد بن مصطفى (ت: 1318هـ)، معجم أسماء الأشياء المسمى اللطائف في اللغة، دار الفضيلة، القاهرة، (د. ت).
17. الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي (ت: 666هـ)، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط5، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، 1420هـ/ 1999م.
18. الزَّبيدي، أبو الفيض مرتضى محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ت.
19. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، ط5، دار العلم للملايين، د. ب، 2002م.
20. السقاف، عبد الرحمن بن عبيد الله، إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، دار المناهج، بيروت، 1425ه/ 2005م.
21. ابن سيده المرسي، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت: 458هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م.

22. الشاطري، محمد بن أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي، ط3، دار المهاجر للنشر والتوزيع، تريم، 1415هـ/ 1994م.
23. شنبل، أحمد بن عبدالله (ت: 920هـ)، تاريخ حضرموت المعروف بـ: تاريخ شنبل، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، ط2، مكتبة صنعاء الأثرية، صنعاء، 1424ه/ 2003م.
24. الصبان، عبد القادر محمد، تعريفات تاريخية عن وادي حضرموت، مكتب الأمين، ط5، سيئون، 1421هـ/ 2000م.
25. العراشي، عبد الحكيم محمد ثابت، الجيش في اليمن في عصر الدولة الرسولية 626 – 858هـ/ 1228 – 1454م، ط1، دار الوفاق، عدن، 1435هـ/ 2014م.
26. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (ت: 170هـ)، كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د. ت.
27. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت: 817ه/ 1414م)، القاموس المحيط، تحقيق: مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوس، ط6، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1419ه/ 1998م.
28. الكندي، سالم بن محمد بن سالم بن حميد (ت: 1310هـ)، تاريخ حضرموت المسمى العدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، ط1، مكتبة الإرشاد، صنعا، 1424هـ/ 2003م.
29. المقحفي، إبراهيم بن أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 1422هـ/ 2002م.
30. الملك المظفر، يوسف بن عمر بن علي بن رسول (ت: 694ه/ 1294م)، المخترع في فنون من الصنع، دراسة وتحقيق: محمد عيسى صالحية، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، 1989م.
31. هاشم، محمد، تاريخ الدولة الكثيرية، ط1، تريم للدراسات والنشر، تريم، 1423هـ/ 2002م.

32. هُديل، طه حسين عوض، حضرموت في ظل الوجود الأيوبي 575 – 621هـ/ 1179 – 1224م، المؤتمر العلمي الدولي الأول: "التاريخ والمؤرخون الحضارم من القرن السادس حتى القرن العاشر الهجريين"، مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، المكلا، 20 – 21 ديسمبر 2016م.
33. الهروي، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري (ت: 370هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001م.
34. الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت: 360هـ/ 970م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1410ه/ 1990م.
35. الهندي، خالد يوسف، الشحر حضارة وتاريخ ومعْلم، ط2، مطابع حضرموت الحديثة، الشحر، 1436هـ/ 2015م.





ابن عتيق حاكم زَيلَع وعلاقته بالشيخ العدني من خلال بعض النصوص التاريخية

أ. د. عماد محمد العتيقي(1)

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث شخصية ابن عتيق حاكم زيلع، ونسبه، وعلاقته بالشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس الشهير بالعَدني، ضمن السياق السياسي والتجاري والثقافي في تلك الفترة. وتلك العلاقة وردت في قصة حصلت في مدينة زيلع، وبالتحديد في بيت حاكمها ابن عتيق. ثم يتطرق البحث إلى نشاط آل عتيق الديني والتجاري في محيط خليج عدن، وعلاقته بالأحداث السياسية إبان دخول العثمانيين والبرتغاليين إلى المنطقة.

واتضح من الدراسة أن آل عتيق كان لهم نشاط دعوي في اليمن في العصور الإسلامية، ثم عبر بعض مشايخهم من اليمن إلى بلاد الزيلع للدعوة والجهاد، وأسسوا إمارة في هَرَر، وتقلد بعضهم الحكم في مدينة زيلع ضمن سلطنة آل ولشمع. وشكّل بنو عتيق مع آل ولشمع المعروفين لاحقًا بآل سعد الدين، والسادة العلويين وغيرهم من المشايخ شبكة من العلاقات، اختلطت فيها السياسة

(1) الرئيس السابق لجامعة الشرق الأوسط الأمريكية في الكويت.

بالدعوة والتجارة، وامتدت عبر خليج عدن فيما بين بر سعد الدين وحضرموت والبحر الأحمر، الأمر الذي أسهم في إثراء المشهد الحضاري والتجاري في تلك البلاد، وترك بصمات إسلامية واضحة امتدت آثارها عبر القرون.

Ibn Atiq, the governor of Zeyla, and his relationship with Shaikh Al - Adeni

Abstract

This study tackles the personality of Ibn Atiq, governor of Zeyla, his ancestry, and his relationship with shaikh Abu Bakr bin Abdullah Al – Aydadrus, known as Al – Adani, in the context of political, trade, and cultural landscape at the time. That relationship was mentioned in an event that took place in the house of Ibn Atiq himself. Then the wider scope of the clan of Ibn Atiq is addressed within the Gulf of Aden, and the effect of political events on their activities during the depot of Portuguese and Ottoman forces.

The study illustrates the Ibn Atiq clan have had religious role in the Yemen in the Islamic period, and hence some of their leaders expanded their activities and crossed the sea to the horn of Africa, then called the country of Zeyla, and established an Emirate in the region of "Harar". Some of its members then assumed the governorship of Zeyla city, within the sultanate of Wal – Shamaa, where they established a network with them and with the Al – Ba Alawi clan, which connected the sides of the Gulf of Aden in cultural and trade aspects. Such network left outstanding Islamic marks in the regions of Barr Saad El – Din, Hadhramut, and the Red Sea.

مقدمة:

قليلة هي النصوص والمصادر التي تتطرق إلى حكومة مدينة زيلع في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، رغم أهمية هذه المدينة ودورها الاستراتيجي في خليج عدن، ويهدف هذا البحث إلى التعرف على شخصية ابن عتيق حاكم زيلع، وعلاقته مع الشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس السقاف، آل باعلوي نسبًا الشهير بالعَدني، ضمن السياق السياسي والتجاري والثقافي في تلك الفترة، وقد وردت تلك العلاقة في قصة حصلت في مدينة زيلع وبالتحديد في بيت حاكمها ابن عتيق. ويتضمن البحث تحقيق رواية وردت في النص وانتشرت في المراجع عن كرامة منسوبة للشيخ العدني، وتمحيص ما فيها بين الحقيقة والخيال، وعبر ذلك نتوصل إلى نشاط آل عتيق الديني والتجاري في محيط خليج عدن وعلاقته بالأحداث السياسية إبان دخول العثمانيين والبرتغاليين إلى المنطقة.

المنهج:

سنقوم في البداية بعرض النص المقصود كمدخل للدراسة، ثم نتطرق إلى السياق العام بما يشمل بيئة البلاد الجغرافية، ومفاهيمها الثقافية، وأوضاعها السياسية. ونعرج بعد ذلك على السياق الخاص فنتطرق إلى شخصية الحاكم ابن عتيق، وتحقيق نسبه، وأيضًا شخصية الشيخ العيدروس ومكانته بين الناس في ذلك الوقت، ثم نتطرق إلى تحليل النص المعروض وتحقيق الأحداث المذكورة فيه، وعلاقة ابن عتيق مع الشيخ العيدروس، ثم علاقة آل عتيق بالسادة العلويين في محيط خليج عدن وتأثرهم بالأحداث السياسية، ونسترشد في البحث بمصادر من كتابات المؤرخين، وملاحظات الرحالة الذين مروا بزيلع قريبًا من تلك الفترة، وغير ذلك من المصادر والمراجع.

النص:

نذكر أدناه نص القصة التي ورد فيها خبر ابن عتيق، وقد وردت في مصدرين، نسرد من أحدهما لأنه أضبط إسنادًا، ثم نستفيد من الثاني فيما فيه إضافة على الأول.

"وأخبرني محمد بن عبدالله بارشيد وجماعة من الناس قالوا: دخل زيلع الشيخ، وفيها حاكم من الوزراء يقال له: إبراهيم بن عتيق، اعتقد في الشيخ وأحبه محبة عظيمة، وأحسن إليه غاية الإحسان، وكان مع الحاكم جارية وهو مشغوف بها، فمرضت مرضًا شديدًا حتى أشرفت على الهلاك، فأرسل الحاكم إلى الشيخ رسولًا وأتبعه ثانيًا وثالثًا إلى العشرة، ولم يكن يرسل إليه قبل ذلك، إلا أنه كان يأتي إليه بنفسه، فخرج الشيخ فزعًا فظن أنه جرى عليه شيء من مخدومه، فلما دخل عليه وجد الجارية تنازع سكرات الموت، فقال له الحاكم: أحيي لي هذه الجارية، فإنها قرة عيني، فشتمه الشيخ شتمًا مفرطًا، وقال له: أنا رب أُحيي الموتى؟ ! فقال له الحاكم: والله العظيم ما تخرج من هنا حتى يشفي الله هذه الجارية، فعند ذلك زعق الشيخ، واحمر وجهه، ودعا إلى الله تعالى، وسألناه بماذا دعا به؟ فقال قلت: اللهم بحسن عقيدته اشفها، فوالله، ما خرج الشيخ من بيته حتى شفاها الله تعالى، وأكَلَت معهم أرزًا مطبوخًا"[1].

وقد ورد في النص الثاني فوائد منها أن الحادثة حصلت بعد أن أتم الشيخ حَجّه في سنة 888هـ، وذلك يجعلها في أوائل 889هـ (1484م) تقريبًا، ومنها أن الحاكم اسمه محمد بن عتيق بدلًا من إبراهيم، فربما دل اختلاف الاسم على تعاقب أكثر من حاكم في زيلع من آل عتيق، وفيه من شطحات الصوفية

(1) العيدروس، أبو بكر بن عبدالله العدني "ديوان العدني المسمى محجة السالك وحجة الناسك"، (مقدمة الكتاب للعلامة عبداللطيف بن عبدالرحمن باوزير)، ط1، دار الحاوي، بيروت، 1432/ 2011م، ص 41 – 42.

واعتقادهم بالخوارق أن الجارية كنت قد ماتت، فناداها الشيخ فرد الله إليها روحها[1]، بينما يتضح من النص الأول المُسند أن الحقيقة غير ذلك، وغاية ما هنالك هو استجابة الله سبحانه لدعاء رجال صالحين، وأن المرأة لم يكن قد حان أجلها، وإن خُيل للرائي أنها تنازع سكرات الموت.

وقد وقفتُ على مصدر نص ثالثٍ مختصر للقصة، ورد فيه اسم الحاكم بلفظ "محمد بن إبراهيم بن عتيق"[2] بما فيه توفيق بين الروايتين السابقتين وحلٌ للإشكال.

السياق العام:

تقع مدينة زَيلع في الطرف الجنوبي الغربي من خليج عَدن، على جزيرة بساحل القرن الإفريقي (الصومال حاليًا) المقابل لسواحل اليمن الجنوبية، والإقليم المجاور لزيلع يحمل اسمها أيضًا، وقد خضع لسيطرة ممالك إسلامية متجاورة، منذ العصور الإسلامية المبكرة. وكان من هذه الممالك مملكة إيفات في بلاد تسمى "الجَبَرت" ضمن أراضي الحبشة. وزيلع هي فرضة الحبشة أي منفذ تجارتها الرئيس[3]، وتُعَد بلاد الجبرت من أراضي الزيلع، وقد خضعت لحكم سلالة قُرشية منذ زمن قديم يقال لهم آل ولشمع، وهي الدولة القائمة

(1) بحرق، محمد بن عمر الحضرمي "مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس"، مخطوط من نسخ عمر بن محمد بن محمد بارجا، بتاريخ 29 جمادى الثانية 1363، ص 27. المصدر: زاوية العيدروس العلمية بحوطة آل باعلوي بتريم. وهذه الرواية هي الأكثر شهرة؛ لأن الناس آنذاك كانوا يعتقدون بالخوارق للأولياء ويبالغون فيها. انظر: Ho, Engseng "The Graves of Tarim", University of California Press, 2006. P. 135.

(2) خرد، محمد بن علي بن علوي "غرر البهاء الضوي ودرر الجمال البديع البهي"، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 2002م، ص 573.

(3) المقريزي، أحمد بن علي "الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام"، مطبعة التأليف بمصر، 1895م. ص 6، 21، 26.

بجهاد النصارى في الحبشة[1]. وكان إلى الجنوب منها مملكة وراثية في جهة الصومال من السلالة البكرية الصديقية، برز منها أحمد بن آدم حاكم مقدِشو في 699 (1300م)، والذي قدم الدعم والمساندة للمجاهدين في الحبشة، وهو كما جاء في سلسلة اسمه التاسع من سلالة تبدأ بالسلطان إبراهيم البكري[2].

وحدث أن ثار نزاع في هضبة الحبشة بين مملكة شاوه التابعة لبني مخزوم ومملكة إيفات الواقعة إلى الشرق منها، انتهى بسيطرة أمير إيفات عُمر ولشمع ونهاية سلطنة شاوه، وذلك في 684 (1285م)، بعد أن استمرت أربعمائة عام منذ تأسيسها في 283هـ (896 - 897م)[3]. بعد ذلك تسلط ملوك الحبشة المسيحيون على إيفات بحروب ضارية انتهت بسقوطها ومقتل أميرها سعد الدين ولشمع في 817هـ (1415م)، وهرب أبناؤه العشرة إلى اليمن عن طريق زيلع. وانتقلت قيادة المسلمين بعدها من إيفات إلى مملكة عَدَل المجاورة لها شرقًا، بقيادة الأمير صلاح الدين بن حق الدين ولشمع. بعد ذلك في سنة 825هـ (1422م) استرجع أولاد سعد الدين بعض بلادهم بدعم ملك اليمن الناصر أحمد الرسولي[4]، ثم تحسنت العلاقات بين آل سعد الدين وأمحرة (الحبشة المسيحية) وتم الصلح في 856هـ (1452م) على يد الأمير محمد بن شهاب الدين بدلاي[5]. كان الاتجاه

(1) المصدر السابق. ص 9.

(2) Wagner, Ewald "Legende Und Geschichte - Der Fath Madinat Harar Von Yahya NasrAllah". Kommissionsverlag Franz Steiner Gmbh, Weisbaden 1978. Pp 19 - 30. باللغة الألمانية، وهو تحقيق لمخطوط فتح مدينة هرر ليحيى نصر الله.

(3) Braukamper, Ulrich "Islamic History and Culture in Southern Ethiopia. Collected Essays". Lit. Verlag, MUNSTER, 2004. P. 19 - 20.

(4) أحمد، محمد عبدالعال "بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989م. ص 442.

(5) Braukamper, Op.Cit., 24 - 30.

العام في عَدل نحو تطبيع العلاقات مع أمحرة والقبول بالتبعية الرمزية لإمبراطور الحبشة المسيحي، ولكن بعض القادة المحليين مثل "عُثمان" حاكم زيلع وغيره، قاموا بمهاجمة أطراف الحبشة الجنوبية، وضعفت بذلك سلطة ملوك أمحرة، فاتجهوا إلى السلام والتوازن مع المسلمين، وذلك اعتبارًا من عهد الامبراطور إسكندر بن بايدا مريام 882 – 899 (1478 – 1494م)، وأسهم في ذلك وجود شخصيات مؤثرة مثل الملكة الأم "إيلينا"، التي سيطرت على البلاط المسيحي في 889 (1484)م، واتبعت سياسة تسامح مع المسلمين بسبب خلفيتها المسلمة، فشجع ذلك على ازدهار التجارة وحركة القوافل، حيث إن أهم بندر للحبشة هو زيلع التابع إلى آل سعد الدين، شجع ذلك أميرهم محمد بن أزهر الدين 893 – 924 (1488 – 1518م) على التقارب مع المسيحيين من عاصمته "دَكَر"، بالرغم من ظهور قوى متشددة متمثلة في الإمام "محفوظ" في مدينة "هرر"[(1)].

وكانت مدينة زيلع هي العاصمة الاقتصادية لمملكة إيفات التي اشتهرت في ذلك الزمن باسم "بر سعد الدين"، وسابقًا كانت زيلع هي العاصمة السياسية قبل اتخاذ آل سعد الدين مدينة دَكر في الداخل عاصمة لهم[(2)]، فكان لا بد من اختيار حُكام ذوي حنكة وأمانة للنيابة عن السلطان في زيلع، وخاصةً أنها تسيطر على الطريق البحري إلى الهند والمشرق والجزيرة العربية وبلدان البحر الأحمر، وكذلك ينتهي إليها الطريق البري من بلاد المسلمين والمسيحيين بالحبشة.

(1) Abir. Mordechai. "Ethiopia and the Red Sea", Frank Cass, N. Y. 1980. p. 34 – 38.

(2) Chekroun, Amelie " Dakar, capitale du sultanat ethiopien du Barr Sad ad – din (1415 – 1520). Cahiers d'Etudes africaines, LV 3 – 219, 2015, pp. 569 – 585 اقترح البحث بعض المواقع لمدينة دكر على الطريق ما بين زيلع وهرر إلى الجنوب الغربي من زيلع.

لا يتوفر تحديد لبداية منصب الحاكم في زيلع، ولم تتوفر عنه بيانات تاريخية محددة، سوى ما ورد عن وجود حاكم أقدم هو عثمان ورد اسمه أعلاه. ولكن لا بأس من وضع إطار لحد بداية هذا المنصب، وحد انتهائه، فالأول يُعرف من بداية نقل سلاطين عدل لعاصمتهم من زيلع إلى دَكر، مما يستدعي تنصيب نائب في زيلع، وانتهاؤه يقدر من نهاية حكم آل سعد الدين في البلاد. فانتقال مقر الحكم إلى دكر معروف وهو في زمن السلطان شهاب الدين بدلاي بن سعد الدين أي بين 836 – 849 (1433 – 1445م)[1]. وانتهاء الولاية يمكن تقديره بقيام ثورة الإمام أحمد جران في هَرر وذلك في 931 (1525م)[2]. وتلك المدينة، هَرر، كانت محطة لهجرة وسيطرة مهاجرين يمنيين منذ القرن السابع الميلادي، ثم سيطرت عليها سلالة ولشمع اعتبارًا من 760 (1359م)، وظلت تابعة لهم حتى صارت هي العاصمة بعد ذلك، واستمرت إمارة عربية مستقلة حتى سنة 1304 (1887م) عندما سيطر عليها مينيلك[3] Menelik ملك شاوه ثم امبراطور الحبشة[4].

---

(1) Chekroun. Op. Cit.

(2) Abir. Op. Cit. p. 87. وانظر Braukamper. Op. Cit. 27 – 31 وهذا القائد: أحمد جران اسمه أحمد بن إبراهيم الغازي ويلقب بالقراد، هدد إمبراطورية الحبشة واستولى على ثلاثة أرباع أراضيها من 1529م وحتى وفاته سنة 1543م.

(3) Grierson, G. A. , Gaselee, S. , Pisharoti, K. R. , Pakeman, S. A. , and Bailey, H. W. "Notes and Queries: The Rulers of Harar", Bulletin of the School of Oriental Studies, University of London, Vol. 6, No. 3 (1931), pp. 817 – 824.

(4) Britannica. com / biography / Menilek II يعتبر مينيلك الثاني من أعظم ملوك الحبشة، وقام بتوسيع مملكته وتوحيدها وإدخال إصلاحات عصرية متميزة. ابتدأ ملكه في 1865م كملك على مقاطعة شاوه وحتى 1889م عندما نصب امبراطورًا على الحبشة وحتى وفاته سنة 1913م.

وقد وصلت مدينة زيلع في زمن آل ولشمع إلى درجة عالية من التقدم الحضري والعمراني، والصناعة والازدهار التجاري، رغم ما تخللها من المناوشات والمعارك، ومن أهم أسباب التقدم الأمن والعدالة التي وفرها حُكام المدينة، وسجل الرحالون الذين مروا بها بعض تلك المظاهر، وأبرزهم الرحالة الإيطالي فارثِما Varthema[1] الذي نزلت سفينته بها في 909 (1503م)، وجاء في وصفه "إن مدينة زيلع ذات تجارة عظيمة، وخاصة في الذهب وسِن الفيل، ويباع فيها أيضًا عدد كبير من العبيد، وهم من الأحباش الذين يأخذهم العرب في الحروب، ومن هنا ينقلونهم إلى فارس، جزيرة العرب، مكة، القاهرة والهند. في هذه المدينة، يعيش الناس في راحة تامة، والعدالة تقام بطريقة ممتازة، ويُزرع فيها كثير من الحبوب، وكثير من طعام البهائم، والزيت متوفر بكميات كبيرة وهو لا يُعمل من الزيتون ولكن من حب السمسم، والعسل والشمع متوفر بكميات كبيرة". وتطرق هذا الرحالة بعد ذلك إلى أنواع الغنم، والبقر الوحشي، والأغذية والبضائع المتوفرة بكثرة في زيلع، وذكر كثرة التجار الذين يمارسون نشاطهم بها، وأضاف أن ملك (حاكم) زيلع من العرب، ولديه كثير من الجنود من الفرسان والرجالة، وأن الناس بطبيعتهم محاربون، ولباسهم القميص، ولون بشرتهم زيتوني، وكلهم مسلمون[2]. وهذه المدينة تعرضت بعد ذلك للغزو

(1) "The Travels of Ludovico di Varthema" (1503 – 1508 AD). Translated by John Winter Jones and Edited by George Percy Badger. The Hacluyt Society, London, 1863. Pp. 86 – 88.

(2) Ibid كان الرحالة فارثما يتمتع بحاسة دقيقة لألوان البشرة، وتجد في أوصافه للبلاد التي زارها اهتمامًا بلون بشرة الأهالي. ومقياسه رباعي يتراوح بين الأبيض، الزيتوني، البني أو البرونزي، والأسود. وجد فارثما كافة الألوان في اليمن، فبياض البشرة في المقرانة عاصمة الطاهريين، اللون الزيتوني في تعز وزيلع، البني الداكن في صنعاء. وقد وجد السمرة في السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري وزوجته وجواريها. راجع الصفحات 67 – 69 و77 – 81.

البرتغالي بدعوة من إيلينا ملكة الحبشة في 915 (1509م) وذلك لصد هجوم المجاهدين المسلمين في هرر، فصارت بلاد الزيلع آنذاك مسرحًا للصراع الدولي بين المماليك والعثمانيين بمساعدة الزيالعة من جهة، والبرتغاليين والأحباش من جهة أخرى[1]، وقد اقتحمها البرتغاليون في سنة 920 (1514م) ونهبها قائدهم سواريز ودمرها، وذلك لأنها كانت منفذ تجارة القرن الإفريقي إلى المحيط الهندي والبحر الأحمر. وقد وصفها البرتغاليون بما يدل على ما وصلت إليها من الرخاء. فهي ميناء مكتظ بالسكان، يحتوي على بيوت واسعة وعالية، سكانه مختلفو الأعراق، تُصادف منهم في الطرقات الأسود والأبيض والبرونزي[2]. ويلاحظ أن هذا التحضر والرخاء الذي كان عليه بندر زيلع، وتنوع سكانه، لم يكن في العهد السابق على سلطنة ولشمع، فيذكر الرحالة ابن بطوطة[3] في 732 (1332م) أنه نزل زيلع، فوجد أهله من السودان البربر، وأكثرهم رافضة، وهي مدينة عظيمة ولها سوق كبيرة إلا أنها أقذر مدينة في المعمور، وأوحشها وأكثرها نتنًا، بسبب كثرة السمك ودماء الإبل التي يذبحونها في الطرقات، ومن شدة قذارة البلد ونتن رائحته لم يستطع هو ورفاقه الإقامة فيه، فنزلوا في المركب بالبحر خارجًا عنه، فيبدو واضحًا أنه قد حدث تغير سكاني ونقلة ثقافية وحضارية من نشاط الدُعاة العرب الوافدين إلى البلد، وسيطرتهم على مقاليده من بعد الفُرس، في حملات شملت بلاد الزيلع، واستمرت من 612 (1216م) إلى 700 (1301م). وهؤلاء الدعاة كانت طليعتهم بقيادة الشيخ أبادر عُمر

(1) Abir. Op. Cit. p. 38, 83 – 86.

(2) Varthema, Ludovico "Les Voyages de Ludovico di Varthema". Translated by J. Balarin de Reconis. Paris, Ernest Leroux, Editeur, 1888. P. 97.

(3) "Les Voyages D'Ibn Batoutah", Tome II, Paris, 1877. p. 180.

الرضا بن قُطب الدين عُمر بن الفقيه عُمر[1]، وهو منسوب إلى أبي العتيق محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم[2].

السياق الخاص:

أولًا - تحقيق نسب ابن عتيق: لم تتوفر لدينا معلومات عن ظروف تنصيب ابن عتيق حاكمًا في زيلع، ولكن من المرجح أن قومه شاركوا آل سعد الدين في استعادة إمارتهم المسلوبة. وإمارة حساسة مثل بندر زيلع لم تكن لتُعطى إلا لمن أثبت جدارةً عسكرية وولاءً سياسيًا، ولم يخضع أهل هذه البلاد لقيادة غير قُرشية، فهم أي القُرشيون حُكامها منذ عهد المخزوميين في شاوه، والمشايخ البكريين في هَرر، والشريف محيى الدين يوسف الأكوان والد آل ولشمع السلالة الحاكمة في إيفات[3]، وهو أي محيى الدين الأكوان دخل البلاد مع البكريين وشارك في الدعوة والجهاد في القرن السابع/ الثالث عشر الميلادي[4]. إن هذه العلاقات المؤسسية القديمة الناتجة عن مشاركة هذه الأطراف في الجهاد والدعوة، من المرجح أنها أينعت بثمارها من وضع آل ولشمع ثقتهم في بعض آل عتيق البكريين للنيابة عنهم في زيلع.

(1) Wagner (Der Fath). Op. Cit. pp. 124 – 126, 133 – 135, and Appendices.

(2) Wagner, Ewald "Genalogien aus Harar". J. of The History and Culture of the Middle East, 1974, 51 (1): 97 – 117. باللغة الألمانية. حصل هذا الباحث الميداني على مخطوطات في مدينة هرر تشتمل على سلاسل نسب عدد من المشايخ المعروفين بها وعلى رأسهم أبادر عمر الرضا البكري الذي يُعتبر الاب الروحي لمدينة هرر ومؤسس لإمارة موحدة في بلاد الزيلع.

(3) Braukamper. Op. Cit. p. 28, 109.

(4) Wagner (Der Fath). Op. Cit.

ولكن نفوذ آل عتيق في بلاد الزيلع ابتدأ في جيل سابق يرجع إلى أحد أجداد الشيخ أبادر. فقد سجل الرحالة البريطاني "ريتشارد بيرتون"[1] Burton بعض الملاحظات في رحلاته في القرن الإفريقي، وهي قصة رواها له أحد المشايخ عن كرامة حصلت هناك، اشترك فيها الشيخ محمد بن يونس الصِدِّيقي الساكن في بيت الفقيه ببلاد العرب مع سيد يوسف البغدادي الذي كان يسكن في ميناء "سيارو" بمنطقة بربرة من بلاد الزيلع، وهي حادثة لا تخلو من غرابة، ولكنها من النوع المألوف في تلك الديار الذين يعتقد أهلها بالكرامات الخارقة للأولياء الصالحين، تسببت بهلاك متغلب وثني في ذلك القُطر، بعد أن دعا عليه هذان الشيخان، فأطبق عليه الجبل. وقد لاحظ بيرتون، وهو من أبرز الرحالين الناقدين في القرن التاسع عشر الميلادي، أن للقصة أصلًا صحيحًا رغم ما فيها من مبالغة وخيال، لأن جماعة القتيل ما زالوا يقبضون تعويضًا عن مقتله، كما أخبره الراوي الشيخ جامع الهرري وهو نسابة مشهور هناك، وأكثر مشايخ الصومال معرفة وعلمًا[2]. ما يهمنا في الموضوع هو محمد بن يونس الصِديقي، صاحب بيت الفقيه، فهو من بني عتيق البكريين، ومن سلالة عدد من الفقهاء، أقدمهم الفقيه مُرة بن زكريا بن تيم بن جمال الدين محمد بن محمد بن عبدالله بن أبي

(1) First Footsteps in East Africa. Vol. 1. London, first published 1856, 1894. P. 72 - 73.

(2) Ibid. p. 54, 193. يجعل راوي القصة: الحاج جامع أحداثها في سنة 666 (1267 - 68م). ولكن يتضح من أخبار الفقهاء من سلالة محمد بن يونس أنه أقدم من هذا التاريخ قليلًا، إلا إذا كان امتد به العمر، وأدرك ثلاثة أجيال من صُلبه. والشيخ جامع المذكور هو من سلالة المشايخ البكريين ومن نسل أبادر عمر الرضا، وهو موصوف بأنه كثير التردد إلى الحرمين حتى غلب عليه لقب الحاج. انظر: الأبايونسي، يوسف بن حسن "الضوء اللامع في ترجمة الشيخ عبدالسلام حاج جامع"، مكتبة ابن مامة البهية، بربرا، الصومال، 1431، ص 11 - 13.

العتيق محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق. وهو أي محمد بن يوسف، جدُّ الشيخ عمر الرضا أبادر المشار إليه أعلاه[1]، وهو أي الشيخ أبادر نفسه أصلُه من اليمن[2]، بما يتوافق مع الرواية التي نقلها بيرتون عن موطن جده محمد بن يوسف في بيت الفقيه، في جزيرة العرب.

وتلك الرواية عن وجود آل عتيق في بيت الفقيه في ذلك الزمن القديم، لم تحدد موضع هذا البيت، ولكنه على أي حال في اليمن. وقد وقعنا على نص يثبت وجود آل عتيق في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، في بيت الفقيه ابن حشيبر[3]، المعروف بمدينة الزيدية في تهامة اليمن[4]، فقد أرسل الوالي واسمه عمر بن عبدالعزيز الحُبيشي في سنة 892 (1487م) من قِبله عاملَين لإدارة البلد وجباية الرسوم، فَطغيا وظلما وبالغا في ذلك، ولم يُطق أهل البلد هذا الظلم والفجور، فوثب عليهما رجال من آل عتيق وقتلوهما. يصف مؤرخ ذلك الزمان

(1) Wagner (Genalogien). Op. Cit.

(2) Braukamper. Op. Cit. p. 36.

(3) قرية منسوبة إلى الفقيه محمد بن عمر ابن حشيبر المتوفى سنة 718 أو 720 (1320م)، توارثت بها ذريته من الفقهاء. انظر: الأهدل، الحسين بن عبدالرحمن "تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن"، ج2، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2004م، ص192 - 194.

(4) تُعَد مدينة الزيدية ومقاطعتها حديثة بالنسبة إلى بيت الفقيه ابن حشيبر، وهي منسوبة إلى بني زيد، بطن من عك، وكانت سابقتها في الصدارة حتى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي مدينة المهجم التاريخية، التي تقع آثارها إلى الشرق من الزيدية، وكلاهما يقعان في حوض نهر سُردُد الخصيب، وكانت هي وزبيد حاضرتا تهامة منذ العصر العباسي. انظر: المقحفي، إبراهيم أحمد "معجم البلدان والقبائل اليمنية"، ج1، دار الكلمة للطباعة والنشر، صنعاء، 1422/ 2002م، ص 755، أيضًا: ج2، 1671. ومشيخة الزيدية كانت في بني حُفيص آل مُعوضة القُرشي، بطن من بني أمية. انظر: الأهدل: تحفة الزمن، ج2، ص 50 - 61، وعبدالعال: بنو رسول وبنو طاهر، ص 300 - 309.

هذه الحادثة وما نتج عنها: "وترك في بيت الفقيه ابن حشيبر كاتبين من قبله هما الجمال أبو الفتح الأحمر، والفقيه أبو القاسم بن علي راجح، فأفحشا في الظلم والعسف، فوثب عليهما أناس من بني عتيق فقتلوهما قتلة شنيعة في العاشر؟ سنة اثنين وتسعين، والملك المنصور إذ ذاك بمدينة تعز[1]. فنزل الملك إلى زبيد لما بلغه الخبر، ودخلها عصر يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى من السنة المذكورة. فلما علم الزيديون بوصوله وأبو القاسم الشرياني إذ ذاك معهم، حملوا هم والشرياني على الأمير عمر بن عبدالعزيز ومن معه في بلد الجرابح[2] صبح يوم السبت الثاني عشر من جمادى الأولى، وعسكر الأمير قليلون، فانكسر الأمير وعسكره، وهرب الأمير إلى بلاد الزعليين[3] فوقف فيها إلى أن خرج الملك المنصور إليها في التاريخ الآتي ذكره". . . "وفي يوم الثلاثاء سادس جمادى الأخرى قصد الملك المنصور بلاد الزيدية في جمع كثيف وخيل كثيرة، يقال إنها بلغت فوق الألف، فلما بلغ الزيدية لم يقم له أحد من أهلها، فخربها ونقض أبنيتها وحرقها ورجع إلى زبيد من غير قتال"[4].

(1) تعز: مدينة يمنية كبيرة في السفح الشمالي لجبل صبر، ازدادت أهميتها لما اتخذها الرسوليون عاصمة لمملكتهم، وصارت مدينة العلم والعلماء. انظر المقحفي، المرجع السابق، ج1، ص 231.

(2) الجرابح قبيلة من عك، تقطن في مديرية الضَحِي بوادي سُردُد. انظر: المقحفي، المرجع السابق، ص 305.

(3) الزعلية: قبيلة من عك، تسكن شرق اللُّحَيّة ما بين وادي مُوْر ووادي سُرْدُد في تهامة اليمن. انظر المقحفي، المرجع السابق، ص 742 – 43.

(4) ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي الشيباني "بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد"، مخطوطة الخزانة التيمورية، دار الكتب بالقاهرة، نسخ في 1291، ق 144، (انظر النص في المرفق رقم 1). انظر أيضًا المصدر نفسه: مخطوط بمكتبة تشستر بيتي بأيرلندا، رقم 3749 م. ك. نسخ في القرن 11 الهجري. انظر أيضًا المصدر نفسه: مخطوط بجامعة الرياض – رقم

النص واضح إلى درجة كبيرة، وكان ذلك الحدث في عهد الملك المنصور، واسمه عبدالوهاب بن داود، من ملوك الدولة الطاهرية[1]. ولما كان بنو عتيق من أعيان بيت الفقيه حشيبر، وتعرض أهل البلد إلى ظلم واضطهاد من عُمال الوالي، ثاروا وقتلوهما انتصارًا لقومهم.

وقد يكون في تلك النواحي بيت الفقيه محمد بن يونس الصديقي وأجداده الفقهاء بنو مُرة[2]، وهو مصدر انتقال بعض بني عتيق إلى الزيلع، أو بر سعد الدين، قبل زَمن الفقيه ابن حشيبر. فالساحل المقابل لمدينة الزيدية يشتمل على خور وميناء كان يُجبى منهما مال كثير من الخراج، وكان الخور يسمى في ذلك الزمن "خور بني عتيق" على الأرجح[3]، وموقعه قرب مصب وادي

1350، نسخ في 1385، ق. 107. والكتاب مطبوع بتحقيق عبدالله الحبشي، مركز صنعاء للبحوث والدراسات اليمني، صنعاء، 1979. ولكن فيه خطأ في التنقيط حيث يذكر "بني غبيق" بينما الصحيح بني "عتيق" كما في المخطوطات المشار إليها.

(1) نسبة إلى طاهر بن معوضة الأموي القرشي، استولوا على اليمن بعد ضعف بني رسول. والملك المنصور بن داود أحد ملوكهم، تفرد بالسلطة في 12 جمادى الأولى 883 (11 أغسطس 1478م)، ودخل في معارك مع القبائل المعارضة التي كان أبرزها بني حفيص شيوخ الزيديين مع أنهم من أقاربه، ولكنهم مالوا إلى ابن عمه يوسف بن عامر الطاهري. والنص المعروض هنا يصف طرفًا من تلك المعارك. انظر: عبدالعال: بنو رسول وبنو طاهر، ص 248، ص 272 – 274، ص300 – 309.

(2) تسلسلهم عند واجنر (Genalogien) كالتالي: الفقيه محمد بن الفقيه يونس بن الفقيه يوسف بن الفقيه محمد بن الفقيه أحمد بن تيم بن إبراهيم بن الفقيه إسماعيل بن الفقيه علي بن زكريا بن عمر بن الفقيه يعقوب بن الفقيه يحيى بن الفقيه عيسى بن الفقيه مرة.

(3) ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي الشيباني "الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد"، تحقيق محمد عيسى صالحية، شركة كاظمة للنشر والتوزيع، الكويت، 1402/ 1982م، ص116. وقد قرأها المحقق "خور بني عتيبة"، ولكن قبيلة عتيبة لم تصل إلى تلك البقاع، والمخطوطات فيها اضطراب في رسم الكلمة التي بعد "بني". فنُرجح أن المؤلف كان يعني

سردد، الذي يسقي بلدان المَهجم والضَحِي والزعليين والزيدية، ويسمى البحر المواجه له قديمًا بحر الحادث والحَردة[1]. يُلاحظ أيضًا تقارب الزمن بين أحداث بني عتيق المذكورة أعلاه، وبين قصة ابن عتيق حاكم زيلع، فالفارق ثلاث سنوات.

ولآل عتيق ذكر آخر في مصادر اليمن، حيث يوجد ذكر لإعفاءات أو مسامحات ضريبية باسم "ورثة الفقيه عُمر" بمقدار 25 قيراط، في مصدر رسمي نادر، هو بيان الإيرادات المالية لدولة بني رسول، وفيه ذكر اسم المعفيين وقيمة المسامحة من جباية الدولة، وهذا الدفتر يعود إلى فترة السلطان المؤيد الرسولي المتوفى سنة 721 (1321م)[2]، فالفقيه عمر وورثته كانوا مشهورين وقتها إلى درجة إفراد اسمه بدون نسب أو لقب آخر. وابنه عمُر قطب الدين تُوفي في 649 (1250م)[3]، فمن الممكن أن تكون ولادته حوالي سنة 570 (1175م) وبذلك يكون والده الفقيه عمر من رجال القرن السادس.

بني عتيق بما يتوافق مع حيثيات النص السابق في "بغية المستفيد"، ثم حورها النُساخ إلى بني عتيبة أو بني عبسة.

(1) ارتفاع الدولة المؤيدية – جباية بلاد اليمن في عهد السلطان الملك المؤيد داود بن يوسف الرسولي، تحقيق: جازم، محمد عبدالرحيم، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء، 2008م/ 1429، ص 64. فالحادث والحردة في ذلك الخور من البنادر القديمة في تهامة وهما مصدر توزيع الحبوب ومنتجات المهجم عبر البحر الأحمر، ويقابلهما حاليًا ميناءا الصليف وابن عباس. انظر: نور المعارف في نظم وقوانين وأعراف اليمن في العهد المظفري الوارف، ج1، تحقيق: جازم، محمد عبدالرحيم، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء، 2003، ص 74، 108، 110 – 111، وحول نشاط مدينة المهجم: ص230 – 240.

(2) ارتفاع الدولة المؤيدية، ص 28.

(3) Wagner (Genalogien). Op. Cit.

وقد وجدنا أيضًا ضمن إعفاءات دفتر الجباية المؤيدية سالف الذكر في منطقة زبيد، نصًا يرد فيه: "الشيخ الصالح أبو بكر ابن عتيق، خمسة وعشرون (قيراط)"(1). وأبو بكر ابن عتيق له أيضًا إقطاعات كبيرة ومسامحات في منطقة تعز في ناحيتي جَبَا وصَبِر، وردت في المصدر ذاته(2). وهذا البيت، آل عتيق، ورد ذكره في مُشجر النسابة اليمني أبي علامة المؤيدي المتوفى سنة 1044 (1634م) حيث ذكر أن "عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق عقبه كثير، ويقال لهم آل بني عتيق "(3)، أو آل عتيق(4). وهذا الوالد، عبدالله بن محمد، تابعي مشهور وله أخبار مستفيضة، وهو الذي يقال له: ابن ابي عتيق(5).

ثانيًا - أبو بكر بن عبدالله العيدروس العدني: علم كبير من أعلام السادة آل باعلوي، الذين تصدروا المشهد الديني في حضرموت قرونًا طويلة. وهو قطب بارز من أقطاب الصوفية، تَسود منصة آل باعلوي، وفاق أقرانه، حتى صار مرجعًا لطلاب العلم والمريدين، وله تراجم مستفيضة في مراجع السادة العلويين، نقتطف منها بعض ما ورد في "المشرع الروي"(6). اسمه الكامل

(1) ارتفاع الدولة المؤيدية. ص. 29.

(2) المصدر السابق. ص 184.

(3) المؤيدي، محمد بن عبدالله بن علي بن الحسين الشهير بأبي علامة "روضة الألباب وتحفة الأحباب وبغية الطلاب ونخبة الأحساب في معرفة (لمعرفة) الأنساب"، مخطوط، نسخة مكتبة برلين رقم 1297، بتاريخ 1125 (1713م)، ق 35. انظر النص في المرفق رقم 2.

(4) الفضيل، علي بن عبدالكريم "الأغصان لمشجرات أنساب عدنان وقحطان المجموعة بروضة الألباب الشهير بمشجر أبي علامة"، ط2، المؤلف، 1415/ 1995م، ص 392 - 93.

(5) عبدالبر، رفعت التهامي "ابن أبي عتيق وتراثه الأدبي والنقدي"، جامعة الأزهر، القاهرة، ط1، 1411/ 1991م، ص 6 - 21، 121.

(6) باعلوي، محمد بن أبي بكر الشلّي "المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي"، ط1، ج2، المطبعة العامرة الشرقية، مصر، 1319، ص 34 - 41.

أبو بكر بن عبدالله الملقب بالعيدروس بن أبي بكر بن عبدالرحمن السقاف باعلوي. وُلد عام 851 (1447م) بتريم، ونشأ في حِجر والده وأخذ عنه التصوف، ودرس على عمه الشيخ علي بن أبي بكر السقاف المتوفى سنة 895 (1490م)[(1)]، وعلى الشيخ العلامة عبدالله بن عبدالرحمن بلحاج بافضل المتوفى في الخامس من رمضان سنة 918 (23 نوفمبر 1512م)[(2)]، وكثير غيرهم. كان العيدروس شغوفًا بكتاب إحياء علوم الدين للشيخ أبي حامد محمد الغزالي المتوفى سنة 505 (1111م)، ومؤلفات محيى الدين محمد ابن عربي الأندلسي المتوفى سنة 638 (1240م)[(3)]، جلس محل والده الذي ألبسه الخرقة[(4)] وحكّمه وأجازه في الإلباس، والتحكيم والإقراء والتدريس، وذلك في رجب سنة 865 (1461م) قبل موته بشهر، وعمره أربعة عشر سنة. وكانت لهذا القطب مجاهدات ورياضات عظيمة، رحل إلى الحرمين وعدن وزبيد وأخذ عن

(1) انظر ترجمته في المرجع السابق، ص 215 – 218.

(2) عالم كبير يعد أجل علماء الشحر في زمانه، تتلمذ عليه خلق كثير، انظر ترجمته عند: العلوي، عبدالله بن محمد بن عبدالله باحسن جمل الليل "نشر النفحات المسكية في أخبار الشِحر المحمية"، مخطوط برقم 1 – 535 لدى مكتبة المخطوطات بوزارة الأوقاف بالكويت. مصور من مكتبة الأحقاف بتريم – مجموعة الكاف، بوساطة معهد المخطوطات العربية بالكويت، بتاريخ 2/ 11/ 1982م، ق. 59 – 68.

(3) يلاحظ أن كتب محيى الدين ابن عربي تشتمل على عقائد فاسدة، وهي من المآخذ التي يُعاب على العيدروس وغيره من الصوفية الاهتمام بها. انظر: أمين أحمد عبدالله السعدي "الصوفية في حضرموت نشأتها، أصولها، آثارها"، الرياض، 1429. ص131 – 132.

(4) الخرقة هي رداء من الصوف يلبسه الصوفية، يظهرون به التقشف والزهد، ومنه جاءت كلمة الصوفية. انظر: ظهير، إحسان إلهي "التصوف، المنشأ والمصادر"، ط1، إدارة ترجمان السنة، لاهور، 1406/ 1986م، ص80 – 81. وإلباس الخرقة كما في النص أعلاه إجازة تخرج للمريد من شيخه، فيصير سندًا متسلسلًا لهم في الطريقة.

علمائها، وحج سنة 880 (1475م) وأخذ عن الحافظ محمد بن عبدالرحمن السخاوي المتوفى سنة 902 (1497م)، وغيره، وأجازه أكثر مشايخه في جميع مروياتهم ومؤلفاتهم. تميز بصفاء الذهن وذكاء الفطنة، وكان صائب الرأي، حاد الفراسة، مما أعجب مشايخه، ولما رجع إلى تريم جلس للتدريس والانتفاع وأخذ عنه جماعة كثيرون.

وكان كثير التبسم، دائم البشر، لطيف المعشر، عطوفًا على الفقراء والأيتام والأرامل، واصلًا لهم بالبر سرًا وعلانية، قصده الشعراء بالقصائد، فكان يجيزهم عليها بما تطيب قلوبهم من المكرمات. وكان يقبل الهدية والنذور، ويسعى في إيصال الخير إلى المستحقين من طرف الأعيان بجاهه وماله، تنقل في بلدان اليمن لزيارة الأولياء ونفع الضعفاء، واتفق له كرامات باهرة كثيرة، ثم حج سنة 888 (1483م)، ولما رجع من الحرمين دخل بلد زيلع، وكان الحاكم بها محمد ابن عتيق، ثم سافر إلى عدن وركب منها إلى الشحر سنة 889 (1484م)، واستقر في عدن وانتشر ذكره، وقصده القاصدون وصار له جاه كبير بها. وكان كثير الإطعام والإكرام، يُذبح لبساطه في رمضان ثلاثون خروفًا.

وهذا الشيخ، أبو بكر بن عبدالله العيدروس، هو واحد من سلسلة طويلة وعريضة من المشايخ والسادة آل باعلوي، الذين يرجع نسبهم إلى رجل اسمه أحمد بن عيسى المهاجر انتقل من العراق إلى حضرموت في القرن الرابع الهجري، وتفرعت منه بيوت العلويين، وكان السادة هؤلاء أبرز قبائل حضرموت في النفوذ الروحي، والعدد، والثقافة، والمال، ومتانة العلاقات فيما بينهم والتأثير في مجتمعهم[1].

(1) السعدي. مرجع سابق. ص 80 – 82.

التعليق:

علاقة ابن عتيق مع العَدني: والتي أشار إليها صاحب النص بعبارة "اعتقد في الشيخ وأحبه محبةً عظيمة، وأحسن إليه غاية الإحسان". وهذه العلاقة يمكن توضيحها من خلال نوع الإحسان الذي تحدث عنه صاحب النص. كان العيدروس من مشايخ الدين المشهورين، والذين حصل لهم قبول كثير في البلاد. ويظهر من الدراسات المتعلقة به أنه تحرك لنشر الدعوة في القرن الإفريقي ووصل إلى هرر، فنشر فيها الطريقة القادرية، والتي كانت موجودة أصلًا هناك، منذ أن دخلها الشيخ أبادر البكري القادري، ومراكزها وزواياها منتشرة في تلك البلاد[1]. ولكن السادة وأصحابهم آل عتيق كانوا يمارسون نشاطًا أكثر خطورةً في بر سعد الدين، وهو المعارك التي تدور مع الأحباش المسيحيين لاستعادة السيطرة على البلاد ونشر الدعوة، وقد سجل المؤرخون إحدى هذه المعارك التي حدثت سنة 888 (1483م) والتي شارك فيها عدد من السادة الحضارم واستشهد بعضهم هناك، وخاصة من ذرية السيد عبدالرحمن السقاف جد الشيخ العدني، ويتضح من أدبيات السادة باعلوي أن علاقتهم بحكام زيلع كانت متينة[2]، من ذلك أن الشيخ العيدروس كتب رسالة إلى حاكم زيلع يوصيه فيها بابنه أحمد الذي كان وقتها مقيمًا بزيلع[3]. توفي الشيخ أبو بكر في 14 شوال سنة 914، (4 فبراير

(1) Braukamper. Op. Cit. p. 36. والطريقة القادرية مشرب تصوف، وهي منسوبة إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني البغدادي الحنبلي (470 – 561)، وانتشرت بشكل واسع في زمن مبكر في مختلف مناطق الجزيرة العربية. وكانت هي الطريقة السائدة في اليمن. أنظر: العدني، أبو بكر بن عبدالله العيدروس، الجزء اللطيف في التحكيم الشريف، دار الحاوي، بيروت، 1432/ 2011م. ص 484.

(2) Ho. Op. Cit.

(3) المشرع الروي. مرجع سبق ذكره. ص 51. لم يصرح هنا باسم حاكم زيلع المقصود، ولكن المؤلف ذكره في ترجمة أبي بكر والد أحمد باسم: محمد بن عتيق.

1509م) وابنه أحمد توفي في محرم 922 (فبراير 1516م)، وكان كوالده مقيمًا بعدن، وله وكالة تجارية في زيلع يتردد عليها، ويديرها وكيل من الأشراف(1).

ووجود السادة في زيلع وبر سعد الدين تأصل بعد ذلك عبر تصدرهم الإرشاد الديني فيها، وكان صاحب زيلع (أي المرشد الصوفي) منهم، مثل السيد شهاب الدين أحمد بن محمد مرَزق باعلوي المتوفي بها في شعبان سنة 987 (1579م)(2)، وفي رواية أخرى أن أحمد مرزق توفي في بر سعد الدين، وهي في المعنى نفسه لأن زيلع هي بندر بر سعد الدين، وهو ولد محمد مرَزق الشهير بالمجاهد؛ لأنه جاهد بالحبشة مع إمامها، وكان أحمد مرزق المذكور تقيًا ورعًا، أخذ عن العلماء الواردين إلى بر سعد الدين(3)، من هنا يمكن أن نفهم نوع الإحسان الذي تكلم عنه صاحب النص، فهو دعم مادي ولوجستي لضمان سلامة التنقل، وتجهيز الرجال والعتاد للجهاد. وفي زمن السلم، كان حكام زيلع يسهلون للسادة أمورهم التجارية والدعوية.

الاعتقاد بالخوارق: يُعد النص المنقول أعلاه انموذجًا على اعتقاد الناس ذلك الزمن بالخوارق وخاصةً للمشايخ والأولياء، وهذه الثقافة قديمة في حضرموت وراسخة فيها كما نقل أحمد المقريزي(4) عن أهلها، وزمنه غير بعيد عن زمن

(1) العيدروس، عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله العيدروس، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تحقيق أحمد حالو، محمود الأرناؤوط، أكرم البوشي، دار صادر، بيروت، 2001م. ص 124، 155 – 156.

(2) بافقيه، محمد بن عمر الطيب "تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر"، تحقيق عبدالله محمد الحبشي. مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1419 – 1999م. ص 385، 421.

(3) الشلي، محمد بن أبي بكر "السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر"، تحقيق إبراهيم بن أحمد المقحفي. مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1425 – 2004م. ص 565.

(4) الطرفة الغريبة في أخبار وادي حضرموت العجيبة، رسالة مخطوطة، مكتبة نور عثمانية، رقم 4937. ق 110 – 117. ونسخة أخرى في المكتبة الوطنية الفرنسية ضمن: رسائل المقريزي، مخطوط رقم 4657. ق 76 – 78.

العيدروس، من ذلك ما زعموا أن الساحرات يحملن الإرادات من بعض النساء، ويطرن في الهواء لتحسس أخبار الرجال المسافرين إلى الهند، ويرجعن بالخبر إلى نسائهم. ومنه ما زعموا أن طائفة تسمى آل عمر بن عيسى تمتلك قدرات خارقة، فكانوا يستغيثون بمشايخهم لعلاج لدغة الحية، ويعتقدون أنهم يحبسون الطير في البرية، إلى غير ذلك من الخوارق والكرامات المزعومة، فعندما تحصل كرامة لأحد المشايخ مثل العيدروس ويستجيب الله لدعائه بشفاء جارية ابن عتيق، سرعان ما تتحور القصة ويعتقد العوام أنه أحياها من الموت، الأمر الذي أنكره هو بنفسه بشدة.

وهذا الاعتقاد بقدرات العيدروس صار مدخلًا للتحيل والخداع، فقد روى الرحالة فارثما[1] نفسه كيف استطاع التخلص من الأسر في بلاط السلطان عامر بن عبدالوهاب، حيث احتجزته زوجته، فلما أراد أن يفتكّ من أسره ادعى أنه مريض بداء مستعسر، وأنه نذر أن يذهب إلى الشيخ العدني الذي يصنع المعجزات ليُكتب له الشفاء على يديه، فأذنت له، وبهذه الحيلة استطاع التخلص من سجنه، وادعى أنه شُفي على يدي العدني.

الشبكات التجارية والأحداث السياسية: لا شك أن بندر زيلع كان رافدًا تجاريًا رئيسًا لتُجار اليمن وحضرموت، وهو إقليم عريق في الحضارة يقع شرقي اليمن، وله ساحل عريض على بحر العرب، تقع فيه بنادر الشحر والمكلا الاستراتيجية، وفي الداخل تمتد الحواضر التاريخية على طول الوادي المعروف بوادي حضرموت الخصيب، وأهمها من الغرب إلى الشرق: شبام، سيئون، بَور، تريم، عينات، وقبر هود[2]، وهو البلد الذي انطلق منه السادة لتكوين شبكة عالمية للدعوة، والتصوف،

(1) The Travels of Varthema. Op. Cit. pp. 72 – 73.

(2) مدن واقعة على خط وادي حضرموت، كانت وعلى وجه الخصوص "تريم" محضنًا لمشايخ التصوف. انظر: Ho. Op. Cit. 105 – 108.

والتجارة، وصلت إلى الهند والملايو[1]، وقد تأثر النشاط التجاري بلا شك بالأحداث السياسية المتعاقبة في بلدان خليج عدن وما حولها.

ونلاحظ أنه بحلول الربع الأول من القرن العاشر/ السادس عشر الميلادي حصلت تغيرات جذرية في المشهد السياسي في بلاد العرب، فقد سيطر العثمانيون الأتراك على مصر والحجاز، وأرسلوا حملات على اليمن، وتغلب البرتغاليون على الهند وهرمز وكثير من بنادر الخليج، واستمرت الثورة الإسلامية في تهديد إمبراطورية الحبشة المسيحية بدعم من الأتراك، وصار المحيط الهندي مسرحًا للصراع بين البرتغاليين والأتراك[2]، وتغلب المصريون المماليك على كثير من بلدان اليمن في صراعات أدت إلى مقتل السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري في ربيع الثاني سنة 923 (مايو 1517م)[3]. وقد استشعر كثير من أمراء الأقاليم ضعف الدولة الطاهرية وقرب نهايتها فساندوا المماليك ثم العثمانيين، من هؤلاء السلطان بدر الكثيري في حضرموت الذي اضطر إلى الاستعانة بالعثمانيين، وذلك ليتفادى هجوم البرتغاليين المتكرر على بندر الشِحر مفتاح بلاده، وأخيرًا بايع السلطان سليمان في ربيع الأول سنة 944 (أغسطس 1537م)[4]. ظهر في هذه الفترة نشاط بارز لأعيان من آل عتيق الذين نقلوا أعمالهم من بر سعدالدين إلى الشحر.

(1) Ho. Op. Cit. pp. 105 – 108, 162 – 16.

(2) Casale, Giancarlo "The Ottoman Age of Explorations" Oxford University Press, 2010. Pp. 25 – 33.

(3) الشيباني (الفضل المزيد). مرجع سابق. ص 288.

(4) ابن هاشم، محمد "حضرموت – تاريخ الدولة الكثيرية"، تريم للدراسات والنشر، تريم، 1423/ 2002م. ص 64 – 67. والسلطان بدر بن عبدالله الكثيري من أعظم سلاطين حضرموت، ولد في 902/ 1496م، واستلم السلطة في 927/ 1521م، وأخمد كثيرا من الثورات، ثم في آخر حياته انتقض عليه ولده عبدالله وحبسه في قصره حتى توفي في أواخر شعبان سنة 977/ فبراير 1570م.

آل عتيق في حضرموت: ورد في نص من مخطوط "نشر النفحات المسكية"، عن أحداث سنة 934 (1528م) أنه "توفي بدر الدين علي بن عبدالله ابن عتيق السعدبر (نسبة إلى بر سعدالدين)، ودُفن في تربة الفقيه عبدالله بلحاج بافضل، وهو المشار إليه أعلاه، وُيذكر أن المسجد القريب من قبة الشيخ بلحاج يسمى مسجد ابن عتيق الذي يُعتقد أن له مشاركة في تأسيسه[1]، وهذه هي النسخة الوحيدة المعروفة من المخطوط وهي بخط المؤلف، أتمها في أول ذي الحجة سنة 1322 (5 فبراير 1905م) كما أثبته في آخره. ولَقب "السعدبر"، أجراه الكاتب على نسق "زُنج بر" وأصلها "بر الزُنج"، وقد خُفِفت إلى "زنجبار". واستندنا إلى رسم المخطوط لتبيين خطأ في النسخة المطبوعة، حيث رسم المحقق لقب صاحب الترجمة بعبارة "السعدي"[2]، ويتبين من صورة المخطوط، أن رسم آخر الكلمة "بر" يختلف عن ياء النسبة "ي" التي يرسُمها صاحب المخطوط بشكل مختلف، ولو أراد أن يقول "السعدي" لرسم ياء النسبة كما اعتاد في غيرها، وتكمن أهمية هذا المخطوط أنه نَقل تراجم نادرة مثل ابن عتيق وغيره، من مصادر فترات سابقة لعلماء من أهل القرن العاشر، مثل عبدالله بن عمر بامخرمة وغيره.

وقد ورد اسم علي بن عبدالله بن عتيق وولديه، أحمد ومحمد في نصٍ قديم، مقترنـًا بوصف **"الصدر الأجل"** له ولولده شهاب الدين أحمد المُتوفى بِعَدن، مما يدل على كونهما من الشخصيات ذات المكانة الرفيعة في البلد [3].

(1) نشر النفحات المسكية في أخبار الشِحر المحمية. مصدر سبق ذكره، انظر المرفق رقم 3.

(2) باحسن، عبدالله بن محمد بن عبدالله جمل الليل "نشر النفحات المسكية في أخبار الشِحر المحمية"، تحقيق محمد يسلم عبدالنور، دار حضرموت للدراسات والنشر، 2010م، ص 488.

(3) با سنجلة، عبدالله بن محمد بن أحمد **"تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر"**، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1428/ 2007م، ص 44، 59، 110. والنسخة المطبوعة ورد بها نِسبة **"السعدي"**، والصواب **"السعدبر"** كما في النسخة المخطوطة المحفوظة في مركزالنور بتريم وقد اطلعت على صورتها.

وفي رواية مشهورة أن مسجد ابن عتيق أسس قُبيل سنة 930 (1524م) وأن الذي بناه الشيخ أحمد بن عبدالله العتيق وهو مقبور به، ويقال أيضًا بناه أحمد بالحاج بن عبدالله بافضل، وكان عبدالله العتيق والد أحمد من كبار الصوفية، عاش حياة الزهد والورع وكان يملك كثيرًا من العبيد أعتقهم لوجه الله[1]. كان آل عتيق من التجار الأثرياء جدًا، ومع ذلك كانوا كرماء ومن ذوي المروءة والنجدة، في بلد تكثر فيه الغارات، سواء من قوى خارجية كالبرتغاليين، أو من قوى داخلية مثل زعماء القبائل المتمردين. من ذلك أنه في سنة 939 (1533م) هجم سليمان بن أبي بكر باهَبري (من شيوخ القبائل) على بلدة شُكُلَنزة وهي بلدة زراعية شمال غرب الشِحر، وأخذ رقيقًا ومواشي، وأخذ من رعايا البلد رجلًا اسمه عوض بن مبارك بامؤمل وولده وعبده، وكان ابن عتيق صديق بامؤمل، فتكلم في استرداده فلم يوجهوه، ثم سعى في استخلاصه بالمال حتى أوصلهم إلى ألف ومائتين دينار فلم يجيبوا، ثم استفكه بألف وأربعمائة دينار[2].

هذا وقد جاءت تراجم آل عتيق مقتضبة موجزة، ولكن يُستشف منها أنهم كانوا من أهل الصلاح والخير، لهم عناية بإنشاء المساجد، وألقابهم مثل بدر الدين وغيره، جاءت على نسق ألقاب المشايخ، وارتباطهم بالتصوف وبالمشايخ المحترمين في تلك النواحي مثل عبدالله بلحاج بافضل شاهد على علاقتهم بالعيدروس وغيره من السادة العلويين الذين هم من أبرز أصحابه كما تقدم، وهذه البلاد، الشحر هي من المراكز العلمية البارزة في حضرموت، وبها تمركز للسادة باعلوي، تنتشر فيه مساجدهم وزواياهم[3]، وهم أجداد الشيخ جمل الليل ناقل ترجمة ابن عتيق.

(1) دعاء سويدان "تقرير عن مسجد ابن عتيق في الشحر" www. ytube. com

(2) بافقيه. مرجع سابق. ص 212.

(3) عبدالنور، محمد يسلم "مكانة حضرموت في القرن العاشر الهجري من خلال صلاتها العلمية"، مجلة جامعة حضرموت للعلوم الإنسانية، المجلد 14، العدد 2، ديسمبر 2017م. ص 591 - 623.

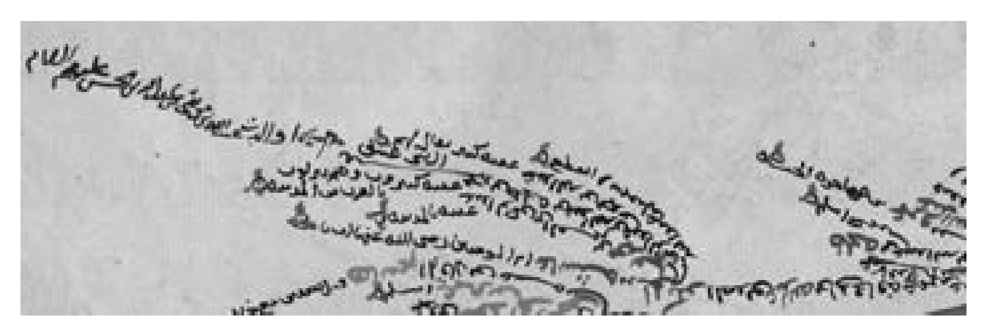
الخاتمة:

استعرضنا في هذه الدراسة شخصية ابن عتيق حاكم زيلع في أواخر القرن التاسع/ الخامس عشر الميلادي، وعلاقته بالسيد أبي بكر بن عبدالله العيدروس، واتضح من الدراسة أن آل عتيق كان لهم نشاط دعوي في اليمن في العصور الإسلامية، ومن اليمن عَبَر بعض مشايخهم إلى بلاد الزيلع للدعوة والجهاد وأسسوا إمارة في هَرَر، ثم تقلد بعضهم الحكم في مدينة زيلع ضمن سلطنة آل ولشمع. شكل بنو عتيق مع آل سعد الدين ولشمع والسادة العلويين وغيرهم من المشايخ شبكة من العلاقات اختلطت فيها السياسة بالدعوة والتجارة، وامتدت عبر خليج عدن فيما بين بر سعد الدين وحضرموت إلى البحر الأحمر، الأمر الذي أسهم في إثراء المشهد الحضاري والتجاري في تلك البلاد، وترك بصمات إسلامية واضحة امتدت آثارها عبر القرون.

الملاحق

ولده القاضي جمال الدين ابي السعود في التاريخ المذكوره
وبعد طلوع الملك المنصور الي الجبل اقام الامير مجاهد الدين
عمر بن عبد العزيز الحبيشي بالبلاد مدة يسيرة ذ فيها وكان خرابها
وتركه في بيت الفقيه ابن حشيبر كاتبين من قبله هما الجمال ابو
الفتح الاحمر والفقيه ابو القاسم بن علي راجح فاجحفا في الظلم
والعسف فوثب عليهما اناس من بني عتيق فقتلوهما قتلة شنيعة
في العاشر سنة اثنين وتسعين والملك المنصور اذ ذاك بمدينة
تعز فنزل الملك الي زبيد لما بلغه الخبر ودخلها عصر يوم
الاربعا التاسع من جمادي الاولي من السنة المذكورة فلما علم
الزيديون بوصوله وابو القاسم الشريف اذ ذاك معهم
حملوا هو والشريف علي الامير عمر بن العزيز ومن معه في بلد
الجراح صبح يوم السبت الثاني عشر من جمادي الاولي وعسكر
الامير قليلون فانكسر الامير وعسكره وهرب الامير الي بلاد
الزعليين فوقف فيها الي ان خرج الملك المنصور اليها في التاريخ
الاتي ذكره وفي اثنا اقامة الملك المنصور بمدينة زبيد
جاءه العلم بموت اخيه شقيقه عبد الملك بن داود سلخ شهر
في اخر جمادي الاولي فصلى عليه بجامع زبيد واقام العزا به في
مسجد الاشاعر ثلاثة ايام واجتمع العالم لذلك وكان بعض
[illegible] تصدق صدقة جليلة وفي يوم الثلاثا
سادس جمادي الاخري قصد الملك المنصور بلاد الزيدية
في جمع كثيف وخيل كثيرة يقال انها بلغت فوق الالف فلما بلغ
الزيدية لم يقف له احد من اهلها فخربها ونقض بنيانها وحرقها
ورجع الي زبيد من غير قتال [illegible] ليلة الجمعة مستهل شهر
رجب ثم طلع الي تعز في سادسه ثم نزل الي عدن ثم طلع [illegible]
باهله منتقلا الي الدار التي بناها [illegible] التي كان يضرب بها المثل

مشاركة بني عتيق في أحداث بيت الفقيه ابن حشيبر سنة 992 هجرية.



ذكر بني عتيق البكريين في مشجر النسابة أبي علامة المؤيدي.



خبر علي بن عبدالله بن عتيق السعدبر ومسجد بن عتيق
في مخطوط نشر النفحات المسكية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً – المصادر والمراجع العربية:

1. الأبايونسي، يوسف بن حسن "الضوء اللامع في ترجمة الشيخ عبدالسلام حاج جامع"، مكتبة ابن مامة البهية، بربرا، الصومال، 1431.
2. أحمد، محمد عبدالعال "بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989م.
3. ارتفاع الدولة المؤيدية – جباية بلاد اليمن في عهد السلطان الملك المؤيد داود بن يوسف الرسولي، تحقيق: جازم، محمد عبدالرحيم، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء. 2008م/ 1429.
4. الأهدل، الحسين بن عبدالرحمن "تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن"، ج2، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2004م.
5. باحسن، عبدالله بن محمد بن عبدالله جمل الليل "نشر النفحات المسكية في أخبار الشِحر المحمية"، مخطوط برقم 1 – 535 لدى مكتبة المخطوطات بوزارة الأوقاف بالكويت. مصور من مكتبة الأحقاف بتريم – مجموعة الكاف، بواسطة معهد المخطوطات العربية بالكويت، بتاريخ 2/ 11/ 1982م.
6. باحسن، عبدالله بن محمد بن عبدالله جمل الليل "نشر النفحات المسكية في أخبار الشِحر المحمية"، تحقيق محمد يسلم عبدالنور، دار حضرموت للدراسات والنشر، 2010.
7. با سنجلة، عبدالله بن محمد بن أحمد "العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر"، مخطوط من مكتبة المؤرخ علوي بن طاهر الحداد، نسخة بمركز النور بتريم- حضرموت. د. ت.
8. با سنجلة، عبدالله بن محمد بن أحمد "تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر"، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد بصنعاء، 1428/ 2007م.
9. بافقيه، محمد بن عمر الطيب "تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر"، تحقيق عبدالله محمد الحبشي. مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1419 – 1999م.

10. بحرق، محمد بن عمر الحضرمي "مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس"، مخطوط من نسخ عمر بن محمد بن محمد با رجا، بتاريخ 29 جمادى الثانية 1363. زاوية العيدروس العلمية بحوطة آل باعلوي بتريم.
11. خرد، محمد بن علي بن علوي **"**غرر البهاء الضوي ودرر الجمال البديع البهي**"**، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 2002م.
12. ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي الشيباني "بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد"، مخطوط بمكتبة تشستر بيتي بأيرلندا، رقم 3749م. ك. نسخ في القرن 11 الهجري.
13. ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي الشيباني "بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد"، مخطوط بالخزانة التيمورية، دار الكتب بالقاهرة. نسخ في 1291.
14. ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي الشيباني "بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد"، مخطوط بجامعة الرياض – رقم 1350. نسخ في 1385.
15. ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي الشيباني "بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد"، تحقيق عبدالله الحبشي، مركز صنعاء للبحوث والدراسات اليمني، صنعاء، 1979م.
16. ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي الشيباني "الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد"، تحقيق محمد عيسى صالحية، شركة كاظمة للنشر والتوزيع، الكويت، 1402/ 1982م.
17. السعدي، أمين أحمد عبدالله "الصوفية في حضرموت نشأتها، أصولها، آثارها"، الرياض، 1429.
18. سويدان، دعاء "تقرير عن مسجد ابن عتيق في الشحر" www.ytube.com
19. الشلي، محمد بن أبي بكر "السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر"، تحقيق إبراهيم بن أحمد المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1425 – 2004م.
20. الشلي، محمد بن أبي بكر "المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي"، ط1، ج2، المطبعة العامرة الشرقية، مصر، 1319.

21. ظهير، إحسان إلهي "التصوف، المنشأ والمصادر"، ط1، إدارة ترجمان السنة، لاهور، 1406/ 1986م،

22. عبدالبر، رفعت التهامي "ابن أبي عتيق وتراثه الأدبي والنقدي"، جامعة الأزهر، القاهرة، ط1، 1411 - 1991م.

23. عبدالنور، محمد يسلم "مكانة حضرموت في القرن العاشر الهجري من خلال صلاتها العلمية"، مجلة جامعة حضرموت للعلوم الإنسانية، المجلد 14، العدد 2، ديسمبر 2017م. ص 591 - 623.

24. العيدروس، أبو بكر بن عبدالله العدني "ديوان العدني المسمى محجة السالك وحجة الناسك"، دار الحاوي، ط1، بيروت، 1432/ 2011م.

25. العيدروس، أبو بكر بن عبدالله العدني، الجزء اللطيف في التحكيم الشريف، دار الحاوي، بيروت، ط1، 1432/ 2011م.

26. العيدروس، عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله "النور السافر عن أخبار القرن العاشر"، تحقيق أحمد حالو، محمود الأرناؤوط، أكرم البوشي، دار صادر، بيروت، 2001م.

27. الفضيل، علي بن عبدالكريم "الأغصان لمشجرات أنساب عدنان وقحطان المجموعة بروضة الألباب الشهير بمشجر أبي علامة"، 1415/ 1995م.

28. المقحفي، إبراهيم أحمد "معجم البلدان والقبائل اليمنية"، دار الكلمة للطباعة والنشر، صنعاء، 1422/ 2002م.

29. المقريزي، أحمد بن علي "الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام"، مطبعة التأليف بمصر، 1895م.

30. المقريزي، أحمد بن علي "الطرفة الغريبة في أخبار وادي حضرموت العجيبة"، رسالة مخطوطة، مكتبة نور عثمانية، رقم 4937. ق 110 - 117.

31. المقريزي، أحمد بن علي "الطرفة الغريبة في أخبار وادي حضرموت العجيبة" مخطوط، المكتبة الوطنية الفرنسية ضمن: رسائل المقريزي، رقم 4657.

32. المؤيدي، محمد بن عبدالله بن علي بن الحسين الشهير بأبي علامة "روضة الألباب وتحفة الأحباب وبغية الطلاب ونخبة الأحساب في معرفة (لمعرفة) الأنساب"، مخطوط، مكتبة برلين رقم 1297، بتاريخ 1125 (1713م).

33. نور المعارف في نظم وقوانين وأعراف اليمن في العهد المظفري الوارف، ج1، تحقيق: جازم، محمد عبدالرحيم، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء، 2003.

34. ابن هاشم، محمد "حضرموت - تاريخ الدولة الكثيرية"، تريم للدراسات والنشر، تريم، 1423 - 2002م.

ثانياً – المراجع غير العربية:

1. Abir, Mordechai "Ethiopia and the Red Sea", Frank Cass, N. Y. 1980.
2. Braukamper, Ulrich "Islamic History and Culture in Southern Ethiopi: Collected Essays", Lit. Verlag, MUNSTER, 2004.
3. Britannica. com/ biography/ Menilek II.
4. Burton, Richard F" First Fotsteps in East Africa", Vol. 1, London, first published 1856, 2nd Edition, 1894.
5. Casale, Giancarlo "The Ottoman Age of Explorations", Oxford University Press, 2010.
6. Chekroun, Amelie" Dakar, capitale du sultanat ethiopien du Barr Sad ad - din (1415 - 1520). Cahiers d'Etudes africaines, LV (3), 219, 2015, pp. 569 - 585.
7. Grierson, G. A. , Gaselee, S. , Pisharoti, K. R. , Pakeman, S. A. and Bailey, W. H. " Notes and Queries: The Rulers of Harar", Bulletin of the School of Oriental Studies, University of London, Vol. 6, No. 3 (1931), pp. 817 - 824.

8. Ho, Engseng "The Graves of Tarim", University of California Press, 2006.
9. Ibn Batuta, Muhammad ibn Abdullah "Les Voyages D'Ibn Batoutah", Tome II, Paris, 1877.يحتوي على النص العربي لرحلة ابن بطوطة
10. Varthema, Ludovico "Les Voyages de Ludovico di Varthema". Translated by J. Balarin de Reconis. Paris, Ernest Leroux, Editeur, 1888.
11. Varthema, Ludovico "The Travels of Ludovico di Varthema" (1503 – 1508 AD), translated by John Winter Jones and Edited by George Percy Badger, The Hacluyt Society, London, 1863.
12. Wagner, Ewald "Legende Und Geschichte – Der Fath Madinat Harar Von Yahya NasrAllah". Kommissionsverlag Franz Steiner Gmbh, Weisbaden 1978.
13. Wagner, Ewald "Genalogien aus Harar". J. of The History and Culture of the Middle East, 1974, 51 (1): 97 – 117.



أثر الاحتلال العثماني على طبقات المجتمع المصري في ضوء كتاب ابن إياس (بدائع الزهور) (852 - 930هـ/ 1448 - 1523م)

د. أحمد عبد الرازق عبد العزيز محمد[1]

الملخص:

هذه الدراسة هي محاولة لعرض العلاقة بين الدولتين المملوكية والعثمانية من خلال طبقات المجتمع المصري، وما طرأ عليه من متغيرات، وكيف تسبب سلاطين البيت العثماني في زيادة العداء مع سلطنة المماليك بسبب عدم مساندتهم ضد شاه ايران، والتقليل من شأن سلطة الدولة المملوكية في السفارات والرسائل المتبادلة، كل هذا كان إنذارا بحرب تحدد قيادة الأمة العربية الإسلامية، بعد أن رأت الدولة العثمانية أن الدور المنوط بدولة المماليك قد انتهى منذ زمن، وحان الوقت لتحل محلها، وتصبح معركة الريدانية (922هـ/ 1517م) هى الفاصلة لدولة أثبتت وجودها منذ عام 648هـ/ 1250م، وتصبح مصر ولاية عثمانية، ويتغير الشكل الطبقي للمجتمع المصري تحت سلطنة العثمانيين، وهذا ما سنعرض له في ضوء كتاب ابن إياس "بدائع الزهور".

---

(1) دكتور أكاديمي، مصر.



الكلمات المفتاحية: سلطنة المماليك، الخلافة العثمانية، ابن إياس، طبقات المجتمع المصري.

The class division of Egyptian society at the beginning of the Ottoman era In light of the writings of IbnAyas

Dr. Ahmed AbdElRazek Abdel Azizmohamed

This research is an attempt to present the correction between the two Mamluk and Ottoman states before talking about the layers of Egyptian society and causing the Ottoman princes to increase hostility with the rulers of the state because of their resorting to any dispute that warns embassies and exchanged letters. All this was the beginning of a war to learn about everything related to the State Conference in Iraq. The first state of the Mamluk Sultans, The battle of Raidaniyah becomes the judge, the arbitrator and the ruler of a state that has existed since 648 AH/ 1250 AD, and became a memory in the books of the yearbooks and the works of historians after the year 923 AH/ 1517 AD.

The guiding words: Authority, Society, Govmor, Ottomans, Sultan, Merchants.

مقدمة:

هذه الدراسة هي محاولة لعرض العلاقة بين الدولتين المملوكية والعثمانية من خلال طبقات المجتمع المصري، وما حدث طرأ عليه من متغيرات، فقد عانت مصر كثيرًا بعد دخول العثمانيين مصر، وحتى لا تُزور الحقائق فإن كتب التاريخ وثقت وقائع دخول العثمانيين مصر، وما إرتكبوه من إنتهاكات

وفظائع بحق أهلها، وكذا أهل الذمة نالوا جانب من تلك الإنتهاكات، ولكي ينجح العثمانيون من البقاء في مصر، فقد حاولوا الإيقاع بين المسلمين وأهل الذمة، بإضطهادهم أعتقادًا منهم أن ذلك سيرضي المجتمع المصري، ولذا وجب علينا إظهار بعض هذه الوقائع التي أدت لدخول مصر في عصر من الظلام، وتأخر حضارتها رغبة في تغيير شكل الهوية المصرية، من خلال كتاب محمد بن أحمد بن إياس "بدائع الزهور في وقائع الدهور".

وقبل العرض لوضع المجتمع المصري، وطبقاته الإجتماعية في ضوء الحكم العثماني، وجب علينا العرض لسيرة مؤلف كتاب بدائع الزهور، ووضع العلاقة بين دولة سلاطين المماليك والدولة العثمانية، وكيف تطورت العلاقة الودية من سفارت، ومراسلات، وهدايا إلى حالة من الصدام العسكري، وإسقاط أقاليم ومدن حتى الوصول إلى معركة مرج دابق، وسقوط الشام التي تعد الضربة الأولى لدولة سلاطين المماليك، ثم معركة الريدانية الفاصلة.

المبحث الأول - حياة ابن إياس:

1 – التعريف بابن إياس:

يعد ابن إياس أحد أهم مؤرخي عصره، في فترة من أهم فترات التاريخ المصري في العصور الإسلامية الحديثة، وهي عصر سلاطين المماليك، وترجع أهمية مؤرخنا لأنه عاصر كثيرا من أحداثها، وبالأخص في فترة الضعف والانهيار، وغروب شمس الدولة على أيدي الدولة العثمانية بأخذها مكانهم في مصر؛ فكان شاهد عيان على أحداث غيرت وضع مصر ومكانتها في المنطقة، كدولة لها ثقل سياسي واقتصادي واجتماعي بين الدول العظمى في تلك الفترة، إلى ولاية تابعة للدولة العثمانية؛ بمعنى أن سيادتها كدولة أصبحت تحت السيادة العثمانية.

والواقع أن البلاد المصرية استأثرت أكثر من غيرها في عدد المؤرخين الحوليين، والموسوعيين الذين ظهروا فيها، وخاصة في العصر التركي المملوكي، ولكن بدخول الأتراك إلى القاهرة فإن سلسلة هؤلاء المؤرخين تنقطع، وعلى الأخص بموت أحد كبار مؤرخي هذا العصر هو أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس، الذي ينفرد عن غيره من مؤرخي ذلك العصر بأنه عاش عصرين، وشهد أحداث جيلين: أواخر العصر التركي المملوكي، ومستهل العصر التركي العثماني؛ لذلك فإن لكتاباته أهمية خاصة، فهو يكاد يكون المؤرخ المصري الوحيد الذي عاصر تلك الفترة الحاسمة في تاريخ مصر، وكان شاهد عيان على ما وقع فيها من أحداث؛ وتمتد هذه الفترة التي أرخ وقائعها من عام 872هـ/ 1468م إلى عام928هـ/ 1522م[1].

وابن إياس من أصل تركي مملوكي، من تلك الفئة التي عرفت في المجتمع المصري عصر سلاطين المماليك باسم أولاد الناس، وجده لأبيه الأمير إياس الفخري من مماليك الظاهر برقوق (784 - 791هـ/ 1382 - 1388م)، تولى منصب دوادار ثان في دولة الناصر فرج (801 - 808هـ/ 1398 - 1405م)، أما أبوه أحمد فكان متصلا برجال الدولة، وتوفي في شعبان 908هـ/ يناير 1502م. ولد ابن إياس بالقاهرة في ربيع الآخر 852هـ/ يونيه 1448م، أي بعد وفاة العلامة المقريزي (760 - 845هـ/ 1358 - 1442م) بحوالي سبع سنوات، وقبل وفاة ابن تغري بردي (813 - 874هـ/ 1410 - 1470م) بحوالي اثنين وعشرين عاما، بينما توفي مؤرخنا ابن إياس بعد فتح العثمانيين لمصر بست

(1) ابن إياس: محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري، كتاب تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، (القاهرة، ط2، دار الكتب، 2008م)، ج1ق1، ص4.

سنوات تقريبا، أى عام 930هـ/ 1523م، وقد عاش من موارد إقطاعه الذي ورثه، وتفرغ للتأليف في كتابة التاريخ، رصد فيه أوضاع المجتمع، وأحواله السياسية، والاجتماعية، وشارك في التعبير عنها بشعره[1].

2 – تعليمه:

تلقى ابن إياس العلوم التقليدية في عصره على أيدي أعلام ذلك العصر مثل جلال الدين السيوطي (849 – 911هـ/ 1445 – 1505م)[2] ويُذكر أنه قرأ سبعة وثلاثين مؤلفًا، وعندما أراد أن يكتب عن تاريخ مصر في عهد المماليك قرأ عن مؤرخين كانوا أنفسهم من المماليك، أوموظفي الدولة مثل ابن واصل (605 – 698هـ/ 1208 – 1298م)، وابن أيبك الدوادار (ت: 736هـ/ 1335م)، وبيبرس الدوادار، وابن تغري بردي، وغيرهم وكان صديقا لمجموعة من كبار الأمراء مثل الأمير تمراز الأحمدي (وهو مملوك جركسي ولد عام 839هـ/ 1435م، واشتهر بالذكاء والفطنة وكرم النفس، وأنشأ الكثير من العمائر بعصره) مما جعله يقف منهم على كثير من الحقائق والوثائق بحكم مناصبهم[3].

وفي رأي المؤرخ محمد عبد الله عنان[4] أن قيمة كتابات ابن إياس لتاريخ مصر في تلك الفترة تتمحور في معاصرته لحوادث الفتح العثماني لمصر، وسقوط

(1) ابن إياس، جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، (القاهرة، ط1، الدار الثقافية، 2006م)، ص4 – 6، 15.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج4، ص83، 374؛ قاسم، قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ، (القاهرة، ط2، دار المعارف، 1985م)، ص219.

(3) ابن إياس، المصدر نفسه، مقدمة المؤلف، ج1ق1، ص3؛ محمد مصطفى زيادة، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي، (القاهرة، ط2، 1954م)، ص 54.

(4) مؤرخو مصر الاسلامية ومصادر التاريخ الاسلامي، (القاهرة، مكتبة الأسرة، 1999م)، ص154، 155.

دولة المماليك، عدا ذلك فإن كتابه ماهو إلا صورة مصغره من جهود أسلافه أو تكملة لجهودهم في الكتابة التاريخية، وأشار إلى أهمية القسم الأخير من كتابه بدائع الزهور - وهو تقريبا محور هذا البحث - حيث دوّن حوادث عصره، وبالأخص حوادث الفتح العثماني، ومقدماته، وما تلاه بمجهود واضح من دولة قوية إلى دولة مستعبدة.

وعندما نطالع كتاب ابن إياس بدائع الزهور، وبالأخص في الفترة التي تخص دولة سلاطين المماليك الجراكسة (784 - 923هـ/ 1382 - 1517م) نجده يتطرق كثيرًا لفئات المجتمع المصري، وكأنه واحد منهم عاش حياتهم البائسة، خالف في ذلك ما قرره شيخ المؤرخين المقريزي الذي قسم طبقات المجتمع المصري إلى سبع طبقات برؤية اقتصادية خاصة به[1] فإن ابن إياس يغوص في تلك الطبقات بشكل مختلف، ويوضح العلاقة بينهم، فنرى كيف أشار لطبقة السلطة وتحكمها في سائر الطبقات الكادحة، ودور القضاة في تسييس أفعالهم الظالمة من ضرائب، ومصادرات، وسخرة، وغير ذلك مع وجود طبقة تفتقر إلى المال وهى العامة؛ فنراه يصور لنا المجتمع المصري برؤية المؤرخ المخضرم بعد دخول العثمانيين مصر؛ وكيف تغير وضع السلطة الحاكمة الساقطة لتحل محلها سلطة الدولة العثمانية؛ بينما المجتمع ظل كما هو خاضع لسلطة جديدة كل هدفها الاستفادة من ذخائر مصر المادية والمعنوية، وطمس كل ما هو مصري إن أمكن.

(1) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد، إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره: محمد مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، (القاهرة، ط3، دار الكتب، 2002م)، لمزيد عن تقسيم طبقات المجتمع المصري برؤية المقريزي في عهد دولة سلاطين المماليك انظر: ص72 - 75

فنراه مثلا يسرد فظائع الترك، وآثام الغزو، ويشيد ببطولة طومان باي، وفي هذا الصدد يشير المؤرخ عنان[1] إلى أن ابن إياس لم يكن مصورًا بارعًا للحوادث، ولكن كثيرا من الإفاضة، وطرفا من الملاحظة القوية، تعوض عن هذا النقص في كثير من المواقف، فنرى مثلا كيف كانت الدقة في وصفه في استنزاف ثروات مصر المادية، والبشرية، والفكرية بيد سليم العثماني (918 - 926هـ/ 1512 - 1520م) الذي صادر كل عالم وماهر وصانع، حتى الخليفة العباسي نقله إلى مقر الدولة العثمانية - إسطنبول - ليخيم الظلام على أرض مصر مركز الخلافة العباسية ومنارة الفكر العربي قبل الفتح.

ومع ذلك يجب الإشارة إلى أن ابن إياس في ذلك الوقت كان قد تجاوز السبعين من عمره، وربما أصابه المرض مما حد من قدرته على سرد الأحداث بدقة، والظاهر أنه كان قليل الطواف والتنقل في تلك الأيام العصيبة التي دوّن أحداثها، ويؤيد رأي الباحث أنه اعتمد على وصف شخص سليم العثماني من صديق له رآه رغم إقامته بالقاهرة[2] ومع ذلك يشفع له أنه كان مؤرخا شهد وعاصر عصرين بارزين؛ ليصبح نبراسًا لمن جاء بعده، ومصدرا أساسًا في فترة أظهرت انهيار دولة سلاطين المماليك، وغزو العثمانيين لمصر.

فقد أثر سقوط الدولة في ابن إياس تأثيرا شخصيا، وظهر ذلك في اختيار ألفاظه وكرهه الواضح للغزو العثماني، ومع ذلك كان يتميز بعقل عادل في ملاحظة مجتمعه، ولم يتردد في نقده للدولة ورجالها؛ لذا كان الجزء الخامس من كتابه الموسوم ببدائع الزهور هو صرخة واضحة من ألم المجتمع من احتلال غادر بسبب انهيار نظام لدولة شاخت، ولم يفكر رجالها في التجديد حتى سقطت مع

(1) مؤرخو مصر الإسلامية، ص162.
(2) نفسه، ص167.

أول ضربة من دولة فتية، وكان الخاسر في تلك المعارك الحضارية هو المجتمع المصري بكل فئاته، وقد ترى دموعه وآلامه في صفحات هذا الجزء الفريد، وبين السطور عن طريق مؤرخهم ابن إياس.

لذا فقد نبغ في التاريخ، ومن ثم استحق المكانة التي يقف فيها بين المؤرخين المصريين العظام واستحق لقب مؤرخ الفتح العثماني؛ لأنه عاش بعد سقوط دولة المماليك، وكتابه يمدنا بمعلومات قيمة عن عصر تعوزنا فيه الكتب الأخرى[1].

المبحث الثاني - أسباب الصراع العثماني المملوكي:

على أي حال، فربما يكون من المهم أن نعرض لوضع العلاقة بين الدولتين المملوكية، والعثمانية قبل الحديث عن طبقات المجتمع المصري، حيث ظلت الدولة العثمانية تتقرب لدولة سلاطين المماليك على مدار عقود عدة، حيث كان الحكام العثمانيون يعترفون بالسيادة الدينية، والزعامة السياسية في المنطقة، حتى سقوط القسطنطينية وهو ما اعتبره المماليك نصرًا للمسلمين، وعلى إثره تبادل الاثنان البعثات والاحتفالات حيث أرسل السلطان إينال (857 - 865هـ/ 1453 - 1460م) التهاني إلى السلطان محمد الثاني الفاتح (855 - 886هـ/ 1451 - 1481م) في عام (857هـ/ 1457م)، و لكن شَعَرَ سلاطين الدولة المملوكية بعد ذلك بنمو دولة إسلامية قوية، ربما تشكل خطرًا على السلطنة في العاجل القريب، وللمرة الأولى بدأ العثمانيون يتخذون ألقاب "الملوك" أو "السلاطين" بعد أن

(1) موير، وليم، دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، (القاهرة، ع25، مكتبة مدبولي، 1995م)، ص9؛ زيادة، المؤرخون في مصر، ص35؛ وقد قيل إنه تولى وظيفة مؤرخ للدولة في الحكومة المملوكية، برغم أنه لم يذكر شيئا من ذلك في كتبه، مع العلم أن وظيفة بهذا الاسم لم تعرف في نظام المماليك، انظر: زيادة، المرجع نفسه، ص51.

كانوا لا يزيدون عن"غازي"، بينما سلاطين المماليك عندما يعظموهم يقولون لهم الخوندكار أو الأمير فلان، ويُعد محمد الثاني أول أمير عثماني يتخذ لنفسه لقب سلطان، وبذلك أصبح في مرتبة متساوية مع حكام مصر(1).

وتمثل أول ظهور للدولة العثمانية كقوة مساوية للسلطنة المملوكية عندما رفض السفير العثماني الانحناء لسلطان مصر خشقدم (865 - 872هـ/ 1460 - 1467م) عام 868هـ/ 1463م، بل "**ولما قرأ مكاتبة ابن عثمان، فلم يجد بها ألقابا بما جرت به العادة**"(2)، ويجب أن ننوه أن أفعال السفير العثماني كانت بمنزلة أمر مباشر من السلطان العثماني.

وفي موضع آخر تحولت القاهرة إلى ملجأ سياسي لكل زعيم عثماني، مما أغضب الدولة العثمانية واعتبرته تدخلا في شئونها، ومحاولة سافرة لهز عرشها، وكانت أولى هذه الحالات في (جمادى الآخرة 886هـ/ 1481م) حينما شب نزاع بين الجمجمة بن عثمان و بين أخيه السلطان بايزيد الثاني (886 - 918هـ/ 1481 - 1512م) مما أدى لالتجاء الجمجمة إلى القاهرة، واستقبله سلطان المماليك قايتباي (872 - 901هـ/ 1467 - 1496م)، واحتواه، وجهز له ما يكفيه(3).

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص316، ج5، ص364، 365.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص420.

(3) ابن تغري بردي: جمال الدين ابي المحاسن، يوسف بن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد فهيم شلتوت، (القاهرة، ط2، دار الكتب المصرية، 2006م)، ج16، ص394 - 396؛ السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، (بيروت، د0ت)، ص201 - 205؛ ابن إياس، المصدر نفسه، ج3، ص183، 186.

ويُعدُّ أول تحرك من جانب الدولة العثمانية على بلاد السلطنة عندما "**أمد علي دولات بن دلغادر بعساكر كثيرة. . . واستمرت الفتن من بعد أول عام 889هـ/ 1484م تتزايد**"[1] وفي (جمادى الآخر890هـ/ يوليو1485م) كان استيلاء السلطان بايزيد الثاني على قلعة كولك (وهى قرية تقع في إيران في محافظة خوزستان الحالية)، وتوالت الأخبار بعد ذلك باستيلاء "**عساكر ابن عثمان على أطراف بلاد السلطان**"[2]، وبعد ذلك بعام استطاع المماليك إلحاق الهزيمة بالعثمانيين في أول حرب مملوكية/ عثمانية استمرت من (891 - 896هـ/ 1486 - 1490م) في حلب، بينما استولى بايزيد الثاني على سيس (كانت عاصمة قليقية الأرمينية وهى بتركيا الآن) وطرسوس (كانت تابعة لأقاليم سوريا الشمالية، وهى على البحر الأبيض المتوسط)، وغير ذلك، وفي (جماد الآخر896هـ/ أبريل1490م) أرسل بايزيد الثاني مفاتيح القلاع التي استولى عليها رغبة في الصلح[3]، وكان ذلك تأجيلاً لحلم العثمانيين المتزايد. بينما وقف السلطان المملوكي الغوري حيادًا بين السلطان سليم، والشاه إسماعيل الصفوي القائد الديني المؤسس للدولة الصفوية في إيران (892 - 930هـ/ 1487 - 1524م) في الحرب بينهما.

(1) ابن إياس، المصدر نفسه، ج3، ص206، 210.

(2) نفسه، ج3، ص213، 218، 219، ويعد السبب الأساس في تلك الوحشة هو استيلاء سلطان المماليك على خنجر من هدية أرسلت من أحد الملوك إلى ابن عثمان مما أدى لغضب الأخير، وساعد أخو سوار في حربهم مع المماليك مما أدى لتخاذل السلطان، وأرسل هدية لابن عثمان و معها الخنجر بل، واعتذر له أملًا في الكف عن مساعدة علي دولات أخو سوار، حتى أرسل يسأل في الصلح مع السلطان، انظر: نفسه ص215 - 222.

(3) نفسه، ج3، ص 226، 228 - 230، 235، 237، 246، 250، 251، 254 - 257، 261، 266، 269، 273، 278، 282.

وكانت هزيمة باشاوات قيزيل الذين فقدوا قرابة خمسين ألف رجل في مرج تشالديران في (رجب920هـ/ أغسطس1514م)، هي صاعقة بالنسبة إلى المماليك، بل اهتزت القاهرة لهزيمة الصفويين، ولم يستطع حكام مصر إخفاء خيبة أملهم[1]، وبذلك تأكد أن الصدام بين القوتين السنيتين لقيادة العالم الإسلامي آتٍ لا محالة في وسط العديد من المشاكل الداخلية التي تعاني منها الدولة المملوكية من تدهور اقتصادي عام، وانقسامات داخلية، وغارات العربان، وتدهور الأمن، وغير ذلك من عوامل ساعدت على انهيار الدولة[2]. فبعد هزيمة الصفويين من قبل العثمانيين تحول العداء إلى حرب صريحة بداية من شوال921هـ/ نوفمبر1516م، في أثناء خلاف الطرفين على قلاع بلاد علي دولات، وتأكد ذلك عندما قال سليم الأول لرسول السلطان الغوري (902 –

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج4، ص398، ح5، ص361؛ أوليا چلبي: سياحة نامة مصر، (ترجمة: محمد علي عوني، تحقيق عبد الوهاب عزام، أحمد السعيد سليمان، دار الكتب، القاهرة، 2009م)، ص154، 155؛ البكري: التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية، (تحقيق: عبد الرحمن عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة، دار الكتب، 2005م)، ص14، 32.

(2) لمزيد من التفاصيل عن انحسار التجارة العالمية وتدهور الاقتصاد انظر: ابن إياس، المصدر نفسه، ج4، ص359، 381، 382، 424، 436، 466، 472، ج5، ص82، 90، وعن زيف النقود وتعدد الضرائب انظر: نفسه، ج4، ص357، 380، 428، 471، ج5، ص14، 17، 19، 52 – 60، وعن دور المماليك في تدهور الأمن العام انظر: نفسه ج4، ص177، 178، 207، 235، 278، 295، 368، 427، 431، 464، 465، 474، 485، وعن المجاعات والأوبئة التي ألمت بمصر في أواخر عصر المماليك، انظر: نفسه، ج3، ص387 – 391، 411، ج4، ص63، 64، 75، 76، 296، 309، وعن دور العربان في تدهور الأمن، انظر: نفسه، ج3، ص393، 400، 414، 415، 445، ج4، ص52، 55، 72، 99، 104، 217، 256، 305، 357، 359، 371، 372، ج5، ص32، 79، 82، 110، 133.

922هـ/ 1501 – 1516م) في (شعبان922هـ/ أغسطس1516م) "**قل لأستاذك يلاقيني في مَرْج دابق**" لتسقط أملاك الدولة المملوكية في براثن العثمانيين بحلول عام 923هـ/ 1517م بعد معركة الريدانية[1].

وبذلك سقطت تحت سنابك الخيول العثمانية بعد معركتي مرج دابق، والريدانية، ودخول مصر تحت التبعية العثمانية، وتحولها من حاضرة الخلافة إلى ولاية؛ وكل ذلك أسهم في تغير الوضع الطبقي للمجتمع المصري في العصر العثماني عما كان سائدا في العصر المملوكي.

وهذا ما سنحاول التعرض له بالتفصيل في صفحات البحث.

المبحث الثالث - تركيبة التقسيم الطبقي للمجتمع المصري:

كان للمفاهيم السياسية التي خلفتها ظروف سلطنة المماليك أن جعلت أمراء المماليك يعتقدون أن عرش البلاد من حقهم جميعا، يجلس عليه أقدرهم وأقواهم، ومن ثَم كان الصراع على السلطة والاستئثار بالثروة والنفوذ هما محورا الوجود المملوكي كله تحت مبدأ "**الحكم لمن غلب**"[2]، وفي ظل تلك

(1) نفسه، ج5 ص123، 133، 138، 140 – 142، 145 – 151؛ البكري، المصدر نفسه، ص75، 77، 91.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ج1، ج2، سعيد عبد الفتاح عاشور ج3، ج4، القاهرة، ط3، دار الكتب، 2009م)، ج1ق2، ص436، 437؛ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، (القاهرة، مكتبة الآداب، 1996م)، ج1، ص361، ج2، ص302؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص83، 84؛ عاشور، سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، (القاهرة، ط2، النهضة العربية، 1976م)، ص25 وما بعدها؛ قاسم، قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، (القاهرة، ط1، المعارف، 1983م)، ص14، 15؛ بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك، موسوعة الحضارة العربية، (سوسة، تونس، ع16، المعارف، 1994م)، ص7.

المفاهيم السياسية كان لا بد من الاعتماد على نظام يدر عليهم ربحًا شبه ثابت، ويساعدهم على أن يكونوا في استعداد تام، ويقظة من أي عدو خارجي، ويستحقوا أن يحكموا دولة كمصر، وهذا ما تمثل في شكل نظام الإقطاع الحربي، وتحددت قوتهم ومدى استعدادهم بمدى قوة إقطاعاتهم، وما تدرّه من ربح، وعندما انهار هذا النظام الإقطاعي انهارت معه كل سبل الحياة بالنسبة لهم، وأصبحوا مطمعًا لكل غازٍ، وظهرت براثن عدم الانتماء لأرض عاشوا على خيرها، وأصبحوا أمراء و سلاطين بسببها[1].

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا النظام الإقطاعي، أن ينشأ المجتمع المصري في ذلك العصر على أساس طبقي، حيث نجد طبقتين أساسيتين هما: الحكام والمحكومون أو ما عرفوا باسم الرعية، وتتكون طبقة الحكام من السلطان، وجهازه المعاون، سواء كانوا عسكريين، أم إداريين، مع العلم أن الإداريين كانوا من المصريين؛ وبالأخص من أهل الذمة؛ لمهارتهم في النظام المالي والإداري،

(1) المقريزي، الخطط، ج1، 145، 146، 156؛ القلقشندي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة، ط3، دار الكتب، 2010م)، ج3، ص457، ج4، ص4، 6، ج13، ص117؛ الأسدي: محمد بن محمد بن خليل، التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات (القاهرة، دار الفكر العربي، 1967م)، ص81، 82؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج4، ص125، 126؛ قاسم، قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، (الكويت، مجلة عالم المعرفة، ع 149، 1990م)، ص212 - 215، 169، 198؛ دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص15 - 19؛ طرخان، إبراهيم على طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (1382 - 1517م)، (القاهرة، النهضة المصرية، 1960م)، ص238.

Lane poole, Stanley, ahistory of Egypt in the middle ages, new imp. of (London 1968, p. 252

أما المحكومون فكانوا الرعية من المصريين في شكل اقتصادي ذي تدرج، كما أشار شيخ المؤرخين المقريزي[1]، وقبل التعرض للتقسيم الطبقي عند ابن إياس في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور) كان لا بد أن نشير إلى أن مكانة مصر بصفة عامة قد تحولت من دولة لها سيادة مهابة أمام دول عظمى في تلك الفترة إلى ولاية تابعة للإمبراطوية العثمانية، بل وفصلت عن كل الولايات التي كانت خاضعة لها قبل الغزو العثماني، مثل الشام وشبه الجزيرة العربية (الحجاز) ومع ذلك كانت لها مكانة مميزة وسط ولايات الدولة العثمانية بل وأولاها السلاطين عناية خاصة[2] لدرجة أن ابن إياس قال في هذا الصدد: "**ومن العجائب أن مصر صارت نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة. . . ولكن ابن عثمان انتهك حرمة مصر**"[3]، ومن منطلق أن وضع مصر كان وضع البناء الطبقي للمجتمع المصري، ولكن بشكل يكاد يكون مختلفًا نسبيا تحت عنوانين رئيسيين هما الحكام والرعية.

1 - طبقة الحكام:

تكونت **الطبقة الحاكمة** التي استحوذت على مجريات الأمور في الدولة بعد سيطرة العثمانيين على مصر من الوالي، وقواد الحامية العثمانية، والقضاة،

(1) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: رضوان إبراهيم، مراجعة أحمد زكي، (القاهرة، ط1، دار إحياء الكتب، 1960م)، ص183؛ المقريزي، إغاثة الأمة، ص72 - 75؛ قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، ص16، 17، 27.

(2) أوليا چلبي، سياحة نامة مصر، ص522.

Lane poole, Stanley, ahistory of Egypt in the middle ages, new imp. of (London 1968), p. 355

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص206، 207.

والمماليك الجراكسة، والجهاز الإداري؛ أما الطبقة المحكومة فكانوا التجار، والعامة، والفلاحين، ويأتي العربان، ولكن في شكل منفصل كما كانوا منذ أيام دولة سلاطين المماليك؛ حيث كانوا في دولة داخل الدولة.

أ – **النائب:**

كان النائب "**خاير بك**" هو رأس التقسيم الطبقي في مصر إبان الغزو العثماني، وقد أشار أحد المؤرخين أنه كان لخاير بك جيشه الخاص، وحاشيته مع بروتوكول مملوكي مثالي، كما تمتع باستقلال تام في شؤونه الداخلية، واحتفظ بالتنظيمين الديني والإداري السابقين في البلاد، وحافظ على التقاليد المحلية في حياة الدولة[1] ولكنه كان يأخذ من السلطان العثماني التعليمات التي تقيّد وتحدّد صلاحياته.

وعندما أرسل السلطان سليم في صفر 926هـ/ 1520م تفويضا بحكم مصر لخاير بك، وأعمالها، حذّره أن يعطي القصّاد الواردة عليه من بلاد الروم أكثر من ألف دينار، وعليه "**أن ينظر في أحوال الرعية. . . وأن ينظر في أمر المعاملة من الذهب والفضة. . . وينظر في أمر تسعير البضائع من القمح وغير ذلك**"، ودفع مرتبات الجند شهريًا، وفي رجب من العام نفسه وصلته رسالة أخرى من السلطان سليمان (926 – 974هـ/ 1520 – 1566م) مضمونها "**التوصية بالرعية. . . وإنصاف المظلوم من الظالم**"، وكان الجديد في الرسالة تكليف قاضي العسكر ليصبح المتكلم في الأحكام الشرعية عن المذاهب الأربعة، ويحكم بين الناس، وهو شخص من الدولة العثمانية؛ مما أضر بالناس بمختلف طبقات المجتمع المصري[2].

(1) إيفانوف، نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516 – 1574م، ترجمة: يوسف عطا الله، (مراجعة مسعود ضاهر، القاهرة، تاريخ المشرق العربي الحديث، ع3، الفارابي، 1988م)، ص79.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص436، 459.

وكان منصب القاضي ذا سطوة على ملك الأمراء؛ فعندما تحدّث مع ملك الأمراء بفساد نساء أهل مصر لعسكر السلطان، أمر خاير بك "**بأن امرأة لا تخرج من بيتها مطلقًا، ولا تركب على حمار مكاري، وإلا شنق**"، وقد تجددت مظلمة أخرى عندما عيّن الأمير والى جلبي العثماني - الذي حضر من إسطنبول - ناظرا على سائر الأوقاف(1).

وبموت خاير بك أول نائب للدولة العثمانية بمصر، عدّد ابن إياس مساوءه وظلمه، فأشار إلى أنه كان "**جبارا. . . سفاكا للدماء، قتل في مدة ولايته على مصر ما لا يحصى من الخلايق. . . فقتل بمصر وحلب فوق العشرة آلاف إنسان... وأتلف معاملة الديار المصرية. . . وسلّط إبراهيم اليهودي معلم دار الضرب على أخذ أموال المسلمين**"، وقرّب شخصا من النصارى، وجعله متحدثًا في الدواوين، وعزل القضاة الأربعة، ورغم ما تركه من مال، كان يؤخر مرتبات المماليك الجراكسة بحجة أن بيت المال ليس به مال، وقال عنه: "**لولا ما حصل في أيامه من المظالم، والحوادث. . . لكان خيار من ولي على مصر**"(2)، وكان أهوج في أحكامه، فقد قطع يَدَي رَجُل من العوام لأنه سرق، وشنق رجلًا آخر لأنه سرق عيدان خيار من جنينة، وكان يحكم على الناس وهو جاهل بالشرع مع قلة دين(3)، بينما قال البكري(4)عنه "**محصلة مساوئه، أكثر من محاسنه**".

ب - الوالي:

على أي حال كان والي القاهرة بمنزلة قائد العسكر، وتساعده في ذلك **الحامية العثمانية**، التي تأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد النائب؛ فقد كان

(1) نفسه، ج5، ص462، 468.

(2) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص481 - 485؛ البكري، التحفة البهية، ص104.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص273.

(4) التحفة البهية، ص19، 104.

الوالي خاضعًا للسلطان سليم، ولكن بعد رحيله عن مصر أصبح خاضعًا لأوامر النائب كمنصب، ففي (ربيع أول 923هـ/ 1516م) قبض الوالي على أحد أفراد الحامية لأنه زنى بأمراة، وقطعت رأسه على إثر ذلك، وربما كان الهدف إظهار العدالة للمجتمع المصري، وأن مجيئهم كان للقضاء على ظلم المماليك[1] فقد كانت من أولويات الوالي استقرار الحياة الاجتماعية، والاستقرار الأمني، ومن ذلك القبض على الخارجين عن القانون، مثل القبض على حسن وشكر ابنى مرعي (أحد رجال العربان) بالغربية وقتلهما بأمر ملك الأمراء[2].

ويبدو أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يعتمدون على جواسيسهم في كل ولاية اعتمادا كبيران فتصل إليهم أخبار كل شاردة وواردة؛ ففي (جمادى الآخرة 926هـ/ مايو 1519م) وصل سفير السلطان العثماني سليم خان يطلب الأمير كمشبغا والي القاهرة، لما بلغه من ظلمه للناس، وكثرة الشكاوى فيه، وفي ضوء ذلك عُيّن الأمير علي واليًا على القاهرة، وقد أدى مهامه أداء لائقًا؛ ففي (ذي القعدة 926هـ/ أكتوبر 1519م)، بعد سلطنة السلطان سليمان أمر هذا الوالي بتعليق الزينة للاحتفال بسلطنة سليمان، وعاقب من خالف الأمر، وتكرر أمر الزينة بالإجبار في (ذي الحجة 927هـ/ نوفمبر 1520م) عند الاحتفال بالانتصار على الفرنج من جانب الدولة العثمانية "**وصار الوالي. . . يضرب الذي ما زين دكانه، فما حصل على أحد من الناس خير**"[3]، فقد كان والي القاهرة منفّذًا

(1) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص179، 267.

(2) نفسه، ج5، ص295، 296، 304، 330.

(3) نفسه، ج5، ص336، 338، 417، وقد أشار مؤرخنا لتغير خاطر ملك الأمراء من قبل الأمير كمشبغا الوالي فخرج الأخير مستاء من عنده، واحتجب في بيته، ولكن سرعان ما رضي عنه، وخلع عليه ملك الأمراء قفطانا، وقيل كان هذا مقابل دفع رشوة ستة آلاف دينار، انظر: نفسه، ج5، ص301.

لأوامر رأس السلطة الحاكمة أيا كانت، بمعنى أنه كان بمنزلة المطرقة في أيدي حاكم مصر يضرب بها من يشاء، ويعاقب من يشاء، ويساعده في ذلك رجاله وأعوانه المتمثلين في الحامية العثمانية، وانضم لهم بعد ذلك في تلك المنظومة بعض المماليك الجراكسة، فقد كانت سلطة والي القاهرة على ما يبدو لنا محصورة داخل القاهرة، وهي بمنزلة مدير الأمن في عصرنا الحالي.

ج - الحامية العثمانية:

يُعدّ قواد الحامية العثمانية هم **العنصر الثالث** في السلطة، والأداة التي يضرب بها النائب والوالي كل عاصٍ، وعندما رحل سليم عن مصر ترك بها من عسكره في خدمة خاير بك، ومساعده الوالي "**نحو خمسة آلاف فارس، ومن الرماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رامٍ**"(1)، فقد كانت تلك الحامية في معزل عن السلطة في مصر، وكانوا أشبه بجماعة خاصة، لهم وضعهم، وإحساسهم أنهم شريك في جعل مصر ولاية خاضعة للدولة العثمانية جعلتهم يشوشون على المجتمع المصري حياتهم الخاصة، بل صاروا مصدر قلق، ونزاع حتى مع الجراكسة، والسلطة؛ فكثيرًا ما كانوا يعترضون على أوامر الوالي بمصر، مما أدى لاستدعاء السلطان العثماني لكثير منهم، وإرسال غيرهم تجنبًا لضررهم على المجتمع بشكل عام، ولكنهم ظلوا يشكلون لأنفسهم وضعا خاصا جدا أضر أكثر مما أفاد، وقد نفر منهم المجتمع المصري لاختلاف عاداتهم، ولسانهم، وجنسهم.

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص206؛ ولمزيد من التفاصيل عن فرق الحامية العثمانية، وهي سبع فرق، ينظر: كمال حامد مغيث، مصر في العصر العثماني 1517 - 1798م المجتمع والتعليم، (القاهرة، ط1، مركز الدراسات و المعلومات القانونية لحقوق الإنسان، 1997م)، ص63، 64.

وكان أول تعامل للحامية العثمانية في مصر مع الجراكسة عدوهم الأول فكل "**من رأوه من أولاد الناس لابسًا زمطا أحمر أو تحفيفة، يقولون له: أنت جركسي، فيقطعون رأسه، فلبست أولاد الناس كلها عمائم**"، وكل من ينتمي للمماليك فعل مثلهم، وصارت العثمانية كل هدفهم نهب الناس والقبض على المماليك حتى "**صارت أهل مصر تحت أسرهم**"، ووصل الأمر لقتل كثير من العوام، وقدّر ابن إياس عددهم بعشرة آلاف في أربعة أيام، وثمانمائة مملوك، وطردوا الناس من بيوتهم وسكنوا فيها، ووصفهم مؤرخنا بأنهم "**كالجراد المنتشر مع كثرتهم... وما خلا منهم موضع في المدينة**"[1].

وفي (صفر923هـ/ فبراير1517م) زاد ضررهم؛ فكانوا يتجهون صوب الأراضي الزراعية، ويقطعون الزروع من أجل خيولهم، بخلاف أخذ كل ما يخص الفلاحين من دجاج، وغنم، ومنازل، بل عرّوا الناس، ومن عجز سليم عن ردعهم أمر بعمل دروب وأبواب في كل حارة، وجمع الأموال من الناس بسبب ذلك الأمر، وتزوجوا من نساء مصر لدرجة أن السلطان سليم نادى فيهم بطلاق كل من تزوج من نساء أهل مصر وإلا شُنق[2]، وهذا ما جعل ابن إياس يصف العسكر العثماني بقوله "**كانوا جيعانين العين، نفسهم قذرة، يأكلون الأكل وهم راكبون خيولهم في الأسواق، وعندهم عفاشة في أنفسهم زائدة وقلة دين، يتجاهرون بشرب الخمور**" ولا يصومون رمضان، ولا يصلّون الجمعة إلا قليل منهم، وهم همج كالبهائم[3]، كل ذلك يبيّن الوضع السياسي لتلك الحامية، ومكانتهم الاجتماعية ضمن التقسيم الطبقي في مجتمع مصر آنذاك.

(1) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص150، 151، 156، 157، 160، 161؛ البكري، التحفة البهية، ص80، 81.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص163، 164، 187.

(3) نفسه، ج5، ص 206، 208.

وبمجرد رحيل السلطان سليم عن مصر، وترك خاير بك نائبا بها، استضعف العسكر العثماني قوته في (شعبان923هـ/ أغسطس1517م)، وثاروا عليه من أجل مرتباتهم؛ فطلب منهم الانتظار حتى يعرض الأمر على سلطانهم[1]، ويبدو لنا من الوهلة الأولى في أول احتكاك مباشر مع الحامية العثمانية ضعف النائب، وسطوة العسكر العثماني، وهذه السياسة كانت السائدة طوال فترة حكمه؛ فكان خاير بك عاجزًا أمامهم وأمام أفعالهم، ويخشاهم[2]، وهذا ما جعله يعتمد ويتقوى بالمماليك الجراكسة أمامهم؛ لكي يكونوا سندًا له في السلطة؛ مما جعلهم يثورون ضده، وأعادوا طلبهم بمزيد من الرواتب والإقطاعات، وبعجزه أمامهم قال لهم: (قولوا لأستاذكم) ويقصد السلطان سليم؛ فقاموا بسبه وهموا بقتله[3].

ويؤكد ذلك ما قام به النائب من تفرقته بقرًا وغنما على الحامية اتقاء لشرهم في عيد الأضحى دون غيرهم، وعندما زاد أذاهم بالناس، وفسادهم بنساء أهل مصر وصبيانهم، عجز النائب عن ردعهم، وقام بحبس أهل مصر في منازلهم، وغلّق الدكاكين بعد المغرب، وعندما وصل خبرهم وأفعالهم للسلطان العثماني؛ طلب استدعاء جماعة منهم؛ فأظهروا العصيان وتفرقوا في البلاد، وكان هذا سببًا مباشرًا لتجرؤ النائب عليهم، وصار يفتش عليهم في البيوت والحارات بحثا عنهم، حتى قبض على كثير منهم وهدّد من خبأ أحدًا منهم بالشنق[4].

والأصعب من ذلك أن أحد أمراء السلطان سليم صار يحكم بين الناس بوساطة ترجمان، ولا يعرف عن الشرع شيئًا، ولا أحد ينهاه سواء من القضاة أم

(1) نفسه، ج5، ص210.
(2) نفسه، ج5، ص212.
(3) نفسه، ج5، ص213.
(4) نفسه، ج5، ص226، 233، 234 – 240، 283.

من رجال الدولة، وقال ابن إياس في هذا[1] "**ضعفت شوكة الشرع في هذه الأيام**"، ومن شدة خوف النائب منهم حلّفهم على مصحف بعدم الغدر "**وأن يكونوا هم وإياه كلمة واحدة**" امام العسكر العثماني الخارجين عنه، والعاصين للسلطان، وفي خضم ذلك دارت معارك، وأحداث بينهم، وحزّت رأس ستة وثلاثين منهم، وأسر الباقي على إثر ذلك في (جمادى الأولى 924هـ/ مايو 1518م)[2].

وبصفة عامة كانت الحامية دائمة الشكوى بسبب قلة المرتبات، وكانوا يشوشون على الناس حياتهم، ويبدون الرغبة الدائمة في السفر لرؤية أهلهم، وكان النائب أضعف ما يكون رادعًا لأفعالهم، لدرجة رفض القضاة الأربعة أخذ كتاب إلى السلطان يفيد "**بأن مصر في غاية العدل، والرخاء، والأمن**"؛ وذلك خوفًا من علم السلطان بحقيقة الأمر، وقد استمرت أعمال الحامية بعد ذلك من نهب، وفساد، وخطف، وإيذاء أهل مصر عامة[3].

د - المماليك الجراكسة:

يأتي **المماليك الجراكسة** في **المرتبة الرابعة** من التقسيم الطبقي، فقد كانوا هم السلطة الحاكمة الأولى في البلاد قبل غزو العثمانيين مصر، وتحكموا في مقاليد الأمور، وقاسى أهل مصر في عهدهم حتى قدّر الله خضوعهم للسلطنة العثمانية.

ومنذ دخول العثمانيين لمصر، صار القتال مع الجراكسة سجالا من كر وفر، ويعد ابن إياس[4] من أفضل من روى تلك المعارك والأحداث بين الطرفين،

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص243، 244.
(2) نفسه، ج5، ص249 – 257.
(3) نفسه، ج5، ص283، 286، 293، 298، 299، 306 – 309، 319، 329، 332، 333، 342، 343، 367، 379.
(4) نفسه، ج5، ص156 – 176.

فكان الجراكسة **"كل من يظفرون به من العثمانية يقطعون رأسه ويحضرون بها بين يدي السلطان طومان باي"**، وسرعان ما طاردهم العثمانية من بولاق جزيرة الفيل وملكوها ومن الجزيرة الوسطى إلى الناصرية، ووصل الأمر لهروب المماليك السلطانية من العثمانية خوفًا منهم، **"وصارت العثمانية تكبس على الجراكسة في البيوت والحارات، فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه"**، فقطعوا رقاب ثمانمائة مملوك في يوم واحد، وظل الأمر هكذا حتى أُعدم طومان باي.

وبمجرد شنق السلطان سليم لآخر سلاطين المماليك صفا له الوقت، وبدأ المماليك الجراكسة يفكرون في تغيير سياستهم تجاه عدوهم الجديد، فمع الوقت كانت تلك الطبقة تنظر للعثمانيين بعين المدافعين عن الإسلام، وفقدوا الروح لمقاومتهم للعثمانيين، بل عملوا على محاولة التقرب لهم بلبس زيهم، ومخالطتهم، والركوب معهم في الأسواق، وفي ذلك تملّق أحد قضاة الحنفية الجراكسة بقوله:

زالت عساكرها من الأتراك في … غمض العيون كأنها سِنَةَ الكرى

وفي موضع أخر قال:

لهفي على أتراكِ مصرٍ إذ غدت … مكسورةً قلوبها لن تُجبَرا[1]

وكان لسياسة سليم العثماني في أخذ خيرات الطبقة الحاكمة معه عندما غادر مصر، سواء كان ذهبًا أم فضة أم سلاحًا أم تحفًا أم غير ذلك، سببًا مبشرًا في بقاء المماليك في فقر مدقع؛ إذ لم تعد لديهم خيول، ولا ملابس لائقة ولا سلاح ولا خدم؛ فكان العثمانيون يطوفون البلاد على خيولهم، بينما الجراكسة يجوبون الأسواق على أقدامهم لدرجة أن ابن إياس وصفهم بقوله: **"منهم من**

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص177، 186، 187، 197 – 200؛ إيفانوف، الفتح العثماني، ص51.

سأل الناس في رغيف يقتات به. . . والسوقة في درهم فلوس يشتري بهم كبشة فول يأكلها"، وبمجرد تولي خاير بك لنيابة مصر نادى في القاهرة في (شعبان 923هـ/ أغسطس 1517م) "**بأن المماليك الجراكسة تظهر وعليهم أمان الله**"، فظهر منهم كثيرون، وكانوا في أسوأ حال وملبس، لدرجة قول ابن إياس: "**إذا رآهم أحد فلا يفرّق بينهم وبين الفلاحين**"، وسرعان ما أمر خاير بك في رمضان بأن "**المماليك الجراكسة الذين ظهروا بمصر يركبون ويشترون السلاح**"، مما أثار حقد الحامية عليهم، وبدأت النزاعات مع الجراكسة حيث تزيوا بزي العثمانية، وخطفوا البضائع، فأمرهم خاير بك بزي مختلف عن الحامية(1) وأشار أحد الباحثين إلى أن السلطان سليم عفا عنهم وأدخلهم بالجيش بمرتبات ضئيلة، مقابل التخلي عن ملابسهم الفارهة وأي مظاهر للعظمة، وترك لهم لحاهم فقط(2) فقد أراد السلطان العثماني إذلالهم.

وكان لكتيبة المماليك الجراكسة أهمية خاصة، حيث انضم كثير منهم إلى الجيش العثماني، وكان قائدهم من الأتراك، وهو دليل قاطع على عدم الثقة الكاملة فيهم، وليس لهم الحق لشغل المناصب العسكرية الشاغرة، وكان الأتراك يرون أن المماليك المتكلمين بالتركية مع ما لديهم من تقاليد في إدارة مصر شيئًا ثمينًا جدًا، ولا يمكن الاستغناء عنهم، وكان لهذا الخروج على مبادئ التنظيم العسكري والتجنيد عند العثمانيين، أبلغ الأثر على تاريخ مصر الاجتماعي(3).

(1) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص208، 212، 213، 219، 220، 256 – 259، 261؛ إيفانوف، المرجع نفسه، ص73، 74.
(2) إيفانوف، المرجع نفسه، ص74.
(3) ميكل ونتر، المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم، (القاهرة، مراجعة عبد الرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة العامة للكتاب، 2001م)، ص87، 88.

ويرجع الفضل لإعادتهم لجزء من وضعهم السابق إلى خاير بك؛ فكان هو طوق النجاة لهم، وفي الوقت نفسه كانوا هم الوجه الآخر للوقوف أمام أطماع العثمانية؛ فكان لا يثق بهم ويخاف سطوتهم وتمردهم.

وكان خاير بك حريصا على العلاقة مع المماليك الجراكسة ففي (ذي القعدة 923هـ/ نوفمبر1517م) أعطى للماليك الجراكسة رواتبهم، وكانوا فوق الخمسة آلاف مملوك، واستخدمهم في قمع العربان بمساعدة الحامية، وكثيرًا ما كان يتأخر عن دفع رواتبهم شهرين أو أكثر، ولكن نظرًا لدور المماليك الجراكسة في حماية البلاد لتدريبهم الفائق، وفروسيتهم، ومعرفتهم بأحوال البلاد والرعية، فقد اعتمد عليهم السلطان العثماني سليم، ومن بعده سليمان، وكانوا حريصين دائمًا في تنفيذ أوامرهم للنائب خاير بك - الذي شفع فيهم من القتل - ليصرف لهم رواتبهم ويراعيهم، وكذلك أولاد الناس، وهم أبناء المماليك الذين ولدوا على أرض مصر، ولم يجلبوا إليها كرقيق[1]، ولم يستطع العثمانيون القضاء على عنصر رئيس في المجتمع المصري، وهذا مع قتل الآلاف منهم، ولكنهم قضوا على المماليك كدولة وقيادة.

وعندما كانت تحين الفرصة للحامية العثمانية لإهانة الجراكسة لا يتأخرون؛ فبمجرد تكاثر الجراكسة على خاير بك حنق منهم، وأمر الإنكشارية أن يضربوهم، فكان ضربهم مبرحا بالعصى على وجوههم، ويبدو أن هذا الفعل كان ردا على مهاجمتهم لزملائهم العاصين، وقتلهم، وقطع روءسهم، ومع مرور الوقت

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص224، 237 - 247، 255، 259، 261، 278، 284، 310، 322، 328، 366، 367، 404، 410، 428، 430، 436، 453، 483، 485، ونظرا لمهارة الجراكسة في الفروسية فقد اعتمد عليهم السلطان سليمان في غزوة رودس، وقيل إنه أجتمع بهم في رودس وأثنى عليهم، وأكرمهم، انظر: نفسه، ص463، 474، 475.

تزايدت الأحقاد بينهم، واتهم كل منهم الآخر بالخيانة والغدر، وحتى كمشبُغا والي القاهرة وفايق بك قائد عسكر العثمانية اتهموا كلًّا منهما بالخيانة، سواء في الماضي أم الحاضر، وكاد يقع قتال بين الفريقين، ولكن خمدت فتنتهم[1]، وهذا الوضع بين الشد والجذب في التعامل مع الجراكسة كان يتصدر المشهد في مجتمع مصر العثماني، ويوضح الدور الفعال للمماليك الجراكسة في حياة المجتمع حتى بعد سقوط دولتهم، وكذلك تمتعهم بامتيازات اقتصادية وسياسية.

وبمجرد تولي سنان باشا في (ذي القعدة 928هـ/ سبتمبر 1521م) نيابة مصر أهان المماليك الجراكسة، وأنزلهم من سكنهم بالقلعة، وجاء بجماعة من الأصبهانية - وهو اسم أطلق في العصر العثماني على فرقة من الجنود المأجورين، ويطلق عليهم بلغة اليوم اسم المرتزقة - بدلًا عنهم، ولكن بعد وصول الوزير الأعظم مصطفى باشا في (ذي الحجة 928هـ/ أكتوبر 1521م) لتولية نيابة مصر، قرئ مرسوم السلطان سليمان في حضور الجميع، ومن مضمونه "**الوصية بالرعية قاطبة، والمماليك الجراكسة**"[2]، مما يدل على صعوبة الاستغناء عن المماليك الجراكسة؛ فهم أحد أركان الدولة، وبدونهم قد يتأثر وضع النيابة، فحرص سليم بعد ترك مصر، وابنه سليمان بعده على استمالة تلك الفئة والحث على إرضائهم والاستفادة منهم في إدارة شئون البلاد، والاستعانة بهم في الحروب والغزوات الخارجية، والوقوف أمام المناوئين داخليًا كالعربان، وكثيرًا ما أثبتوا حسن الظن.

وهكذا كانت الطبقة الحاكمة التي أدارت مصر بعد أن تحولت إلى نيابة، في حالة صراع مع بعضها بعضًا، وتسببت في الإضرار بالمجتمع المصري عموما، وعدم الاهتمام بمصالح البلاد، بل كان الهدف الأساس هو إرضاء السلطان العثماني في

(1) نفسه، ج5، ص257، 271، 287، 288، 314.
(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص488 - 491.

إسطنبول سواء بتنفيذ الأوامر أم بإرسال الأموال المادية والعينية إلى الدولة العثمانية، ووصل الأمر لإرسال طاقة مصر البشرية من خيرة شباب المجتمع المصري من صنّاع، وحرفيين مهرة، حتى التجار لبناء حضارة الدولة العثمانية، وفي الوقت نفسه تنزع مصر من كل أمل في إعادة مجدها ليخيم الظلام على البلاد قرونًا[1].

2 – الطبقة الوسطى:

في فلك تلك الطبقة الحاكمة، وجد مجموعة من المباشرين، ومديري الديوان، ممن ساعدوا السلطة الحاكمة في تحقيق أهدافها.

أ – المباشرون:

كان من مهام المباشرين التي تخدم السلطة الحاكمة ضبط حسابات البلاد من خراج زرعها ومسح الأراضي، وتحديد أراضي الشراقي – وهى الأرض التي ظمئت في السنة الماضية، واشتدت حاجتها إلى الماء – من الري، فضلًا عن مسح الإقطاعات، والرزق، ومسح الأوقاف، وكان رأي ابن إياس فيهم أكثر واقعية بقوله "**اتفقوا على أخذ أموال المسلمين فاستباحوا أموالهم، ودماءهم**"، رغم أن أغلب أراضي البلاد قد شرق بسبب قلة النيل عام (923هـ/ 1517م)، وأشار أن خاير بك طالبهم بالتحايل لجمع أكثر قدر من الأموال، وفي موضع آخر جبوا من الشرقية أكثر من مائة ألف دينار، وخربت البلاد بسبب ذلك، ورحل الفلاحون عنها، وعمت هذه الحادثة أصحاب الأوقاف، والرزق من الرجال، والنساء، وتعطلت الأوقاف بسبب ذلك[2].

(1) نفسه، ج5، ص178.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص194، 222، 223، 262، 263؛ لمزيد من التفاصيل انظر: أوليا جلبي، سياحة نامة مصر، ص190، 191؛ ابن مماتي، (الأسعد بن المهذب ابن أبي مليح، ت 606هـ)، قوانين الدواوين، (تحقيق: عزيز سوريال عطية، الذخائر، ع 209، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2012م)، ص201

في حين استعين ببعض المباشرين في إسطنبول بالقبض عليهم، وكانوا من أصحاب الهمم العالية، ووصل الأمر بهم للتصرف في أمور البلاد كما أرادوا، فقد ضيقوا على الناس أرزاقهم، ووضعوا أيديهم على البلاد حتى أوقاف الجوامع والمدارس "**وأبطلوا الإقطاعات التي بالمناشير، وأدخلوها في ديوان السلطان**"، ثم أوقفوا الرزق التي بالمربعات الجيشية بيد أولاد الناس، والنساء، ووضعوا أيديهم على بلاد الأوقاف، ولا يفرجون عنها إلا بعد دفع الرشاوى، وكان النائب يطيعهم في الفساد[1].

ويتعجب ابن إياس مما وصلوا إليه من سلطة، وغطرسة، فقال: "**صارت المباشرون تتزوج بأولاد الأمراء المقدمين**"، وفي أثناء زينة القاهرة بمناسبة البشرى بانتصار السلطان سليمان على الفرنج عام (927هـ/ 1520م) أتى ثلاثة مباشرين نصارى للتفرج على الزينة، وأفحشوا في السكر والمعاصي، وعندما حاول أحد القضاة أن ينهاهم سبّوه وسبّوا دين الإسلام، وعندما قُبِض عليهم، قال أحد القضاة: "**إنهم كانوا سكارى لا عقول لهم؛ وكذلك قال بقية القضاة**"، فقال ابن إياس[2] عنهم: "**صاروا هم الملوك بمصر، ويتصرفون في أمور المملكة بما يختارونه، ليس على يدهم يد، واستغرقوا في اللذات، وانعكفوا على شرب الخمور**".

كان هذا الوضع الطبقي للمباشرين حيث كانت أموال الدولة تدار بوساطة جماعة اهتموا بمصالح أنفسهم أولًا، وإرضاء السلطان العثماني والنائب ثانيًا غير مبالين بأحوال الرعية والعدل فيهم.

وأدت سياسة المباشرين لهروب الفلاحين من أراضيها، وعدم القدرة على دفع مرتبات العسكر؛ لفراغ خزينة الديوان عام (927هـ/ 1520م) وقلة

(1) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص278، 279، 291 – 293.
(2) نفسه، ج5، ص 406، 411، 412.

خراج الأراضي؛ ويرى ابن إياس أن سبب ذلك تقسيم المال الذي يجبى من البلاد على سبع طوائف من العسكر؛ فضلًا عن الاحتفاء بالسفراء القادمين من إسطنبول وغيرها، وهذا بالطبع خارج عما يرد إلى حصة الدولة العثمانية من الخراج، والأموال التي ترد من الثغور؛ فكانت تحمل إلى خزائن السلطان سليم وسليمان "**فلا يعترض ملك الأمراء إلى شيء من ذلك**" وربما يلتمس ابن إياس العذر له بأن البلاد الشامية والحلبية في غاية الاضطراب والدولة في حاجة للأموال[1]، فقد كان المباشرون بالنسبة لملك الأمراء خاير بك أداة يستخدمها لجمع الأموال دون التفكير في النتائج التي أضرت بالبلاد لهروب الفلاحين؛ مما أدى لبوار كثير من الأراضي، ووصل الأمر لعجز الديوان في آخر عهد خاير بك عن دفع مرتبات العسكر، وكل ذلك من أجل إرضاء السلطان، والظهور أمامه بالولاء التام دون التفكير في حال الرعية أو البلاد.

ب - رجال العلم والفقهاء:

يأتي بعد ذلك أهل العلم والدين؛ حيث كان يساند الطبقة الحاكمة في قراراتهم علماء الدين، ورجال القضاء، وكان أول اتصال لهم بالدولة العثمانية عند دخول السلطان سليم القاهرة، إذ عين جماعة من نواب القضاة والشهود للسفر إلى إسطنبول، وجعل في المدرسة الصالحية قاضيا من قبله سماه قاضي العرب؛ فمنع نواب قضاة مصر والشهود من عملهم، ووكلت كل أشغال القضاء إلى هذا القاضي، فحصل للناس كلفة، ومشقة؛ وقال ابن إياس في هذا "**ضاعت على الناس حقوقه، وكان القاضي الذي قرره ابن عثمان . . . أجهل من حمار، وليس**

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص408 - 410، وقد كرر ابن إياس حال الديوان وأنشحاتة عام 928هـ/ 1521م في موضع آخر من الكتاب لعدم دفع مرتبات العسكر المملوكي. انظر: المصدر نفسه، ص429، 430.

يدري شيئا في الأحكام الشرعية"، وفي هذا الصدد قال أبو الفتح السراجي أحد نواب الحنفية، وأحد علماء النحو، وكان من أفاضل عصره:

لهفي على الشرع الشريف وحكمهِ　　قد كان في زمن القضاة موقرا[1]

وقد استعان المجتمع بهذا القاضي بسبب معاملة العسكر العثماني؛ فما كان منه إلا أن دخل على ملك الأمراء وحذّره من ضياع مصالح الرعايا وخراب مصر؛ فأصدر ملك الأمراء أمرا بمنع النساء والصبيان من الخروج من البيت[2] وعلى الجانب الآخر وُجدَ علماء لم يسعوا للمناصب، فعندما نزل ملك الأمراء من القلعة وزار الشيخ عبدالقادر الدشطوطي قال له: **"أتوصى بالرعية، فإنك تُسأل عن ذلك يوم القيامة"**[3]، وكان من عادة قضاة المذاهب الأربعة في مستهل الشهر، والمناسبات الدينية الطلوع إلى القلعة، وتهنئة ملك الأمراء خاير بك بالشهر الفضيل، والرجوع إلى دورهم، أو التوجه إلى مقياس النيل للدعاء من أجل أن يوفي النيل، وربما كان ذلك هو دورهم الأساس الذي ارتضوا به في ظل وجود العثمانيين في مصر[4]، ومنذ شهر (شعبان928هـ/ يونيو1521م) لم يطلع

(1) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص165، 182، 200، ويعد أول قاضٍ على مصر بعد عام 923هـ/ 1517م هو كمال باشزاده أحمد أفندي من أكبر علماء العثمانية، الذي صار صدرًا أعظم فيما بعد، وكان له مائة موظف ومائة خادم تابعين لأمره، وله مشاورون من المذاهب الأربعة، ويخضع له ثمانون قاضيًا من قضاة مصر. انظر: يلماز أوزنوتا، تاريخ الدولة العثمانية، (ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة محمود الانصاري، إستانبول – تركيا، م الثاني، منشورات فيصل، 1990م)، ص484، 835.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص234.

(3) نفسه، ج5، ص215.

(4) نفسه، ج5، ص239، 254، 270، 284، 300، 302، 312، 316، 317، 320، 324، 330، 332، 337، 341، 343، 348، 353، 355، 368، 376، 379، وعن النيل انظر: المصدر نفسه، ص348، 349.

أحد من القضاة لتهنئة ملك الأمراء بالشهر الفضيل؛ للعزل القائم عليهم بسبب وجود قاضي العسكر مكانهم بأمر السلطان العثماني[1].

وقد تراجع حال القضاة في أوائل العصر العثماني عما كان عليه في العصر المملوكي، وزاد من إهانة دور القضاء والقضاة المصريين وجود شخص من أمراء ابن عثمان يجلس بباب المدرسة الصالحية، تحرسه جماعة من الإنكشارية، حيث كان لا يقضي أمرا من الأحكام الشرعية حتى يعرض عليه عن طريق ترجمان، ويأخذ من الشاكي والمشتكي مالًا مقررًا، ولا تستطيع القضاة المعينون معارضته، وإلى ذلك يشير ابن إياس[2]: "**ضعفت شوكة الشرع في هذه الأيام جدا**". وقد زاد الغزو العثماني من سلطة القاضي على حساب سلطة الوالي (رئيس الشرطة) والمحتسب - كما سنرى - إذ يحدد القانون أن الوالي لن تصبح له وظيفة قضائية لأن هذه الوظائف تصبح بعد ذلك من اختصاص القاضي دون سواه[3].

وعندما أساء الزيني بركات بن موسى (هو قاضٍ مصري، كان محتسب القاهرة في أواخر عهد المماليك، وبعد غزو العثمانين لمصر أصبح رجلهم) استخدام منصب الحسبة بتعين أحد العثمانية بدلًا عنه لسفره؛ ضاقت أحوال المسلمين وغلت الأسعار؛ فهجم التركمان على القاضي عبد العظيم، وطلعوا به إلى خاير بك وأجبروه على تولية الحسبة بدلًا عن الزيني حفاظًا لمصر، وفي (رجب 925هـ/ يونيو 1519م) أمر أحد أمراء العثمانية خاير بك بنفي قاضي القضاة لمعارضته فنفاه، وبعد ذلك بعام خفض ملك الأمراء رواتب القضاة

(1) نفسه، ج5، ص380، 392، 395، 399، 407، 414، 431، 439، 443، 450، 465، 470، 471، 477، 488.

(2) نفسه، ج5، ص244.

(3) ميكل ونتر، المجتمع المصري، ص340.

الأربعة، بل قيل لهم أن يتّبعوا القانون العثماني؛ فضلًا عن أخذ الوالي لما يتحصل من عقود الأنكحة وغير ذلك حتى "**صارت المدرسة الصالحية ليس يلوح بها قاضٍ ولا شاهد ولا متعمم بعد ما كانت قلعة العلماء**"، على حد قول ابن إياس. وقد استخدم ملك الأمراء القاضي الحنفي في أخذ حقوق الناس غصبًا، وعندما روجع من قبل علماء الأزهر، كانت حجته أنه أمر السلطان العثماني[1]، فقد كان الحط من القضاة وعلماء الدين يزداد شهرًا بعد شهر وعامًا بعد عام؛ مما يوحي بعثمنة الدولة تدريجيا وطمس كل ما هو مصري.

والحق أن العلماء ورجال القضاء بصفة عامة كانوا ممزقين بين مصالحهم الشخصية، التي عادة ما يتم إشباعها من الحاكم الجائر، وبين مسئوليتهم الأخلاقية تجاه المجتمع المسلم بصفة عامة؛ إذ كان سلوكهم هو مبدأ الطاعة للسلطة السياسية، مما استبعد أي فعل متطرف أو عنيف، وأيًّا ما كان الأمر؛ فإن كثيرًا ما كان ذلك يتوقف على شخصية العالم كفرد[2].

وعلى كل حال، كان عهد الدولة العثمانية من أكثر عهود الإهانة والإذلال للقضاة ونوابهم، دون وجود من يرد قراراتهم، فقد أدرك العثمانيون أهمية فقهاء الشرع، وبالأخص القضاة، في تيسير أعمالهم وتنفيذ أحكامهم؛ فضلًا عن أهمية القضاء في إدارة البلاد، ولذا كان لا بد من تطبيع الجهاز القضائي بالدولة بما يتوافق مع سياسة الدولة العثمانية، ولكن كان هذا العمل يتطلب التدريج حتى تم ذلك في عام (928هـ/ 1552م).

وبعد هذا العرض لوضع الحكام أو الطبقة الحاكمة في حكم الدولة العثمانية، وتغيير مستوى القوى في الدولة، وكيف أصبح صناع القرار هم رجال الدولة

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص 303، 305، 417، 424 – 428.
(2) ميكل ونتر، المجتمع المصري، ص183.

العثمانية متمثلين في السلطان العثماني، والنائب الخاضع لقرارات السلطان العثماني، والحامية العثمانية التي كانت عبئًا على كاهل الشعب المصري، ومجرد عيون للسلطان العثماني أكثر من اختصاصهم المنوط به عملهم، بينما حاول المماليك الجراكسة الدخول في جعبتهم بشتى الطرق، بعد فقدانهم كل ما يملكون من سلطة ونفوذ ومال أمام الجيش العثماني؛ فحاولوا حفظ هيمنتهم على المجتمع المصري الذي اعتادوا أن يحكموه ويخضع لهم، وتم لهم ما أرادوا تحت قيادة الدولة العثمانية، أما وظيفة النائب فلم يتح لنا كتاب ابن إياس التعمق في اختصاصات هذه الوظيفة، حيث إن خاير بك القائم بأعمال النائب كان هدفه جمع أكبر قدر من المال، وتقديم سبل الولاء والطاعة للسلطان العثماني؛ ليظل باقيا على كرسيه حتى وفاته في ذي القعدة 928هـ/ سبتمبر1521م، بينما كان انتهاء ابن إياس من كتابه بعد ذلك بشهر تقريبا.

وقد أهان خاير بك المنصب، وقلل كثيرا من أهميته لثاني أهم ولاية بالدولة العثمانية لدرجة أن السلطان سليمان ولاها للوزير الأعظم مصطفى باشا بعد وفاته؛ فكان كاللولب في أيدي العسكر ومن قبلهم السلطان، يحركونه كما أرادوا. أما المباشرون ومن داروا في فلك السلطة الحاكمة، فكان عملهم الأساس هو جمع أكبر قدر من المال لإرساله للسلطان العثماني بأمر النائب، وسُلِّطوا على المجتمع المصري بكل طبقاته، وكانت فئة العلماء والفقهاء المتمثلون في القضاء مجرد فئة زالت أهميتهم وقدرتهم على الوقوف في وجه الحاكم مثل أيام السلاطين العظام، ولم يكن لهم رأي يُسمع أو كلمة حق في وقت ظلم، وكان عملهم في تهنئة ملك الأمراء بالشهر الجديد والمناسبات، وكان هذا نوعا من السياسة التي طبّقت عليهم؛ لفصلهم نهائيا عن المجتمع، من أجل عثمنة الدولة بيد قاضي العسكر العثماني المنوط به الحكم بين الناس هو ورجاله في جميع

القضايا؛ فلم يُهَن علماء الدين والقضاة منذ أيام السلطان الظاهر برقوق أكثر مما أُهينوا على يد الدولة العثمانية في مصر.

3 - طبقة الرعية:

وهي **الطبقة المحكومة** التي كانت خاضعة لأوامر السلطة الحاكمة، فقد شكل العامة السواد الأعظم من هذا المجتمع، يتأثرون بمشاكله، ويؤثرون فيه، ويخضعون لقانون الدولة رضوا أم لم يرضوا؛ فكان كل ما يهمهم هو أن يعيشوا في أمن تام، ويجدوا ما يسد رمقهم.

وبدخول العثمانيين للقاهرة عنوة نهب عسكرهم أهلها، وأشار ابن إياس لأفعالهم بقوله "**انطلق في أهل مصر جمرة نار**"، حيث صاروا يخطفون جماعة من الصبيان المُرد والعبيد السود، ورغم المناداة بعدم التشويش على الرعية، إلا أن العسكر صاروا ينهبون بيوت الناس، واستمر النهب ثلاثة أيام، "**وصارت أهل مصر تحت أَسْرهم**"[1]، حتى قيل إنه قُتِل فوق عشرة آلاف إنسان في أربعة أيام، واستولى العسكر على بيوت الناس في الأحياء، وسكنوا فيها، وتكرر الأمر بعد ذلك ليزداد العوام فقرًا، وعند مطاردتهم للسلطان طومان باي أخذوا السقائين غصبًا، وقاسى أهل مصر من قلة الماء بسبب ذلك[2]، ويبدو أن ذلك قد وافق هوى السلطان سليم، فعندما سافر إلى غزة أخذ السقائين معه؛ فقاسى الناس العطش[3].

ومن شدة خوف الناس في القاهرة من الحامية العثمانية، ضيقوا أبوابها الكبار حتى لا يدخل منها راكب؛ فضلًا عن العُملة الجديدة التي أصدرها سليم، والتي

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص 146، 148 – 151.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص147، 156، 160 – 164، 168، 181، 195، 196، 214.

(3) نفسه، ج5، ص204، 205.

جعلت البضاعة تباع بسعرين، فتسبب ذلك إما بإغلاق الأسواق، أو بزيادة الأسعار[1]، وأشار ابن إياس إلى أن عدد الذين رحلوا عن مصر إلى إسطنبول في حدود ألف وثمانمائة إنسان من جميع فئات المجتمع، مما يدل على قسوة السلطان سليم؛ فكانت عادته حينما يفتح بلدًا أن يأخذ جماعة إلى بلاده، ويحضر من بلاده عوضًا عن الذين أخذهم، وقد لاقى الناس أشد الإهانة لسفرهم وكأنهم مجرمون[2]، ومن تلك الأحداث رسم لنا ابن إياس صورة لحال عامة المجتمع المصري، حيث قال عن أفعال السلطان سليم في العامة "**انتهك حرمة مصر. . . ويتّم أطفالها، وأَسَر رجالها، وبدّد أحوالها وأظهر أهوالها**"، ولم يكتفِ بذلك بل خرج محمّلا بكنوزها بكل شكل ونوع، وسرق وزراؤه كتبها، وأبطل العديد من الاحتفالات التي كانت في عهد الدولة المملوكية "**وصارت مصر لا يُعرف لها نظام مما كان يُعمل بها**"، وفي أثر ذلك ضاع على أهل مصر كثير من التوسعة والهبات[3]، وكان خاير بك النائب أكثر قسوة مع العامة فكان "**يحكم بين الناس بالعسف والظلم**"[4] مما زاد من معاناة المجتمع المصري وزاد في فقرهم.

وكان أول تفاعل إيجابي للعامة ضد خاير بك في (رمضان924هـ/ سبتمبر1518م) عندما غلت الأسعار، وقل الخبز في الأسواق حيث "**قالوا له: انظر في أحوال المسلمين. . . ألا تضير في ذمتك**"، فرسم بفتح شونتين (والشونة مخزن الغلة والحصائد والتبن والعلف)، لتفرّق على الطحانين[5]، وقد صار

(1) نفسه، ج5، ص174، 180، 181، 332، 452، 453، 462، 463.

(2) نفسه، ج5، ص178، 182 – 188، 204، وفي موضع آخر أشار مؤرخنا أن عدد من رحل إلى أسطنبول دون الألف إنسان. انظر: نفسه، ص232؛ البكري، التحفة البهية، ص93، 94، 98.

(3) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص179، 226، 275، 276.

(4) نفسه، ج5، ص254، 255، 273، 274، 333، 358، 359، 377، 378، 484.

(5) نفسه، ج5، ص276، 282، 283، 302 – 304، 344.

الظلم على العامة بوضع أيدي المباشرين على الأوقاف والأرزاق، ومن جهة أخرى كان العسكر العثمانيون يخطفون النساء والصبيان والمرد ويفسقون بهم أمام الناس، ورغم ذلك عنّف السلطان العثماني خاير بك لرخوه أمام أفعال العسكر، وضرب رقاب أربعمائة من عسكره لفسادهم بأهل مصر، وتعددت الخطابات بعد ذلك للنائب من السلطان سليم والسلطان سليمان، بأن يتوصى بالرعية، وينظر في أحوالهم، ولا يمكِّن العسكر العثمانيين من النزول إلى المدينة[1]، وعندما تولى الباشا الجديد، بعد وفاة ملك الأمراء، بدأ في عثمنة الولاية المصرية بمظلمة جديدة، حيث عزل المحتسب بركات بن موسى، وعيّن أحد أقاربه فيها، وأخذ مفاتيح حواصل القلعة، وسلّمها إلى جماعة من الأروام من حاشيته؛ حيث **"طرد البوابين والغلمان والركابة والبابية والركب دارية والفراشين. . . وأبطل الطباخين من المطبخ، حتى أبطل السقايين، وأقام جماعة من الأروام عوضهم وأبطل المقرئين. . . وأبطل جميع نظام القلعة"**[2].

لقد كانت كل تلك الأفعال المقصود بها إفقار طبقة العامة، وجعل قوت يومهم بأيديهم فقط - أي: العثمانية - وجعل المجتمع المصري في حاجة دائمة، وليس له الحق في أن يفكر في أكثر من ذلك؛ فكان الغرض من هذا إذلاله وإهانته.

أ - التجار:

إذا نظرنا للوضع الطبقي لهذه الفئة؛ نجد أن فئة التجار هم أرفع فئات الطبقة المحكومة قدرًا، وبشكل عام كان أول تعامل بين الدولة العثمانية مع الرعية في أثناء جمع فئات المجتمع في المدرسة الغورية من أجل السفر إلى إسطنبول،

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص293، 323، 329، 353، 385، 392، 402، 411، 424، 425، 436، 444 - 450، 491.

(2) نفسه، ج5، ص492، 493.

ومن ضمن هؤلاء كان التجار، مثل تجار الوراقين والشرب والباسطية وغيرها من أعيان التجار "**وكانت هذه الواقعة من أبشع الوقائع المنكرة التي لم يقع لأهل مصر قط مثلها فيما تقدم من الزمان**"، على حد قول ابن إياس[1]، ونقل ابن إياس عن القاضي الفتح السراجي فيهم:

وكذاكَ أعيانُ التُّجارِ وغيرُهم   ممن بمصرَ صار دمعوا أنهُرا[2]

ويُعد كبار التجار وأعيانهم جزءا فعّالا من الاقتصاد المصري، بفضل نشاطهم وأعمالهم، ولكن صدامهم المستمر مع السلطة العثمانية في مصر، عرّضهم للعديد من الانتهاكات وصل إلى حد السجن، ومصادرة أموالهم، فضلًا عن ترك تجارتهم لهجمات العربان، مما أدى لتدهور الاقتصاد المصري، حيث قام في ضوء ذلك بقية التجار بإغلاق تجارتهم، وتعطلت الأسواق، وزادت تلك الأحداث في أثناء خلافات الحامية العثمانية والمماليك[3].

ويعد موضوع صرف العُملة إحدى المشاكل التي واجهت التجار، وغالبًا ما كان ملك الأمراء يجبرهم على التعامل بسعر الصرف الذي حدده، رغم ضرر الناس بذلك[4] وربما تعرض بعض التجار لضائقة مالية بسبب الظروف التي آلت إليها البلاد، ودفع بعضهم حياته ثمن ذلك أحيانا[5].

وأدى نظام عثمنة الدولة الذي أصدره السلطان سليمان في (ذي الحجة 927هـ/ نوفمبر 1520م) إلى أن التجار وأرباب البضائع لا يتعاملون إلا بالذراع الإسطنبولي

(1) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص178، 179، 182، 183، 231؛ البكري، التحفة البهية، ص94.

(2) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص200.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص221، 314.

(4) نفسه، ج5، ص353، 402.

(5) نفسه، ج5، ص404.

وإبطال الذراع الهاشمي[1]؛ فشق ذلك على التجار وأرباب البضائع، وكانت رسل المحتسب تدخل الدكاكين وتأخذ الأذرعة الحديد التي عندهم وتكسرها، وتكرر الأمر بعد ذلك بعام، ولم يكن هذا فقط؛ بل نودي في القاهرة بإبطال السنج والأرطال القديمة، والتعامل بسنج نحاس وأرطال تسمى العثمانية[2].

ورغم أن التجار كانوا أعلى فئة في الطبقة المحكومة قدرا ومالًا، إلا أنهم تعرضوا لسياسات الإهانة والإذلال بالقبض عليهم والسجن، وكان السبيل الوحيد

(1) الذراع الهاشمي: كان يستخدم كمقياس للطول والمساحة حتى أوائل القرن (العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي) حيث استبدل بالذراع الأستانبولية، وقد استخدمت الذراع الهاشمية منذ عام (44هـ/ 664م) لمسح أرض العراق، وعندما تسلّم الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (136 – 158هـ/ 754 – 775م) أقر تلك الذراع للتعامل بها بين الناس في مدينة الهاشمية عاصمة الدولة العباسية قبل بغداد، ورواية أخرى تقول إنها عرفت بالهاشمية لأن الأئمة من بني هاشم – رضى الله عنهم – استعملوها في المساحة فنسبت إليهم، والذراع الهاشمية طولها بالمتر يساوي 769,65 سم، أما الذراع الأستانبولية نسبة إلى مدينة استانبول، فقد تم استخدامها اعتبارًا من شهر (ذي الحجة 927هـ/ نوفمبر1521م) في عهد السلطان سليمان الأول، والذراع الاستانبولية تزيد "**على الذراع الهاشمي خمسة قراريط ونصف قيراط**" أي خمس أصابع؛ لأنهم يسمون الأصبع في مصر قيراط، والذراع الاستانبولية طولها بالمتر يساوي 0465,76 سم. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص446، 447؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص415؛ أحمد صدقى شقيرات، مقاييس الطول والمساحة العثمانية وما يعادلها بالمقياس المتري، (الأردن – اربد، ط 1، دار الكندي، 2007م)، ص21 – 25، 30 – 35.

(2) ابن إياس، المصدر نفسه، ح5، ص415، 416، 444، 471. يقول القلقشندي عن الرطل المصري "**ورطلها الذي يعتبر بوزنه في حاضرتها من القاهرة والفسطاط وما قاربهما الرطلُ المصري، وهو مائة وأربعون درهما، وأوقيته اثنا عشر درهما**". أما ابن إياس فيشير للأرطال العثمانية "**وهي عبارة عن تسعة دراهم، فتنقص كل مائة درهم أربعة دراهم في سائر الأوزان قاطبة في البضائع والأصناف. . . فتصير كل مائة درهم ستة وتسعين درهما**". لمزيد من التفاصيل انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص445، ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص444، 445.

لحفظ كرامتهم على حد قول ابن إياس "**يشترون أنفسهم من جماعة الوالي. . . حتى يخلصوا من أيديهم**"[(1)]، فقد عانت هذه الفئة من المجتمع المصري بسبب عسكر الدولة؛ فعندما تعثرت ظروف الحامية العثمانية بالدولة أجبرت التجار على الدخول في عمليات المشاركة التجارية، وتمت بين التجار وقادة وأفراد من الوحدات العسكرية العثمانية ليصبحوا مع الوقت هم والتجار طبقة تكاد تكون واحدة[(2)]؛ فضلاً عن ذلك انهارت كثير من الصناعات، حيث أُبطلت خمسون صِنعة، وخربت بيوت أصحابها بيد الدولة العثمانية، وذلك لطمس الحضارة المملوكية بترحيل كثير من الصناع لإسطنبول، وإن قسنا نتائج تلك الأفعال سيظهر لنا تأثير ذلك على التجارة، وانهيار وضع التجار اجتماعيًا، واقتصاديًا[(3)].

ب - الصنّاع:

تأتي بعد فئة التجار الصناع، والسوقة والفلاحون، فقد تعمد السلطان العثماني أن يفرغ مصر من خيرة أبنائها من الصناع المهرة من "**البنائين والنجارين والمرخمين والمبلطين والحدادين وغير ذلك من المعلمين**"، من أجل أن يسافروا إلى إسطنبول، وذلك لبناء جامع وحمّام على طراز مدرسة الغوري، ونرى الإذلال في أثناء طلب الصناع العودة لبلادهم بعد الانتهاء من عملهم لرؤية أولادهم، فوافق السلطان على طلبهم شريطة وجود ضامن برجوعهم إلى إسطنبول[(4)] وتُعد تلك

(1) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص464.
(2) كمال حامد مغيث، مصر في العصر العثماني، ص64، 65.
(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص178، 182، 183، 207.
(4) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص178، 182، 186، 308،؛ البكري، التحفة البهية، ص94، ولمزيد من التفاصيل عن الصناع والحرفيين انظر: اوليا جلبي، سياحة نامة مصر، ص453 – 477.

إحدى الخطوات لبناء الحضارة العثمانية بإسطنبول، وطمس الحضارة المملوكية، والتفكير في عثمنة الدولة المصرية.

ج - السوقة:

نرى السوقة عندما توقف النيل عن حد الوفاء في (رجب923هـ/ يوليو1517م) اضطربت الأسواق، وعند وفاء حد النيل منعت الاحتفالات[1] ووجدت طرق أخرى للتضييق على أرزاق السوقة ففي أول عام (925هـ/ 1519م) طلب نائب المحتسب من السوقة أن يبيضوا دكاكينهم ويزخرفوها، لمجئ بركات بن موسى المحتسب من الحجاز؛ فضلًا عن شكوى السوقة وغيرهم من نظام المعاملة النقدية الجديدة إلى ملك الأمراء؛ فما كان منه إلا أن بعث للعسكر الانكشاري لضربهم بالعصي، ولم يراعِ أحوالهم وتعنت معهم[2].

د - المكارية:

من ضمن الفئات الأخرى التى كان لها نصيب في ذكر مؤرخنا، كانت المكارية (أي سائقي الحمير)؛ ففي (رجب928هـ/ مايو1521م) عندما وجد قاضي العسكر نساء مصر يتحدثن مع جماعة من عسكر الأصبهانية في وسط السوق، فعنّف ملكَ الأمراء الذي أمر بمنع ركوب النساء مع مكاريٍّ مطلقا، وإلا شُنق؛ مما أدى لكساد عملهم، وقطع أرزاقهم؛ فباعوا حميرهم واشتروا بدلها جمال، وركبت النساء عليها وذلك "**على طريقة أهل إسطنبول، وفيهم من ركب على بغل**"[3]، وما يلفت الانتباه هنا هو محاولة عثمنة مصر المملوكية بالعادات، والتقاليد، أو التعامل مع الصناع، والسوقة بترحيلهم إلى إسطنبول.

(1) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص195، 196.
(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص287، 444.
(3) نفسه، ج5، ص462.

هـ- الفلاحون:

أما الفلاحون فقد قاسوا من الحكام، سواء من أهل البلد أم من خارجها، على الرغم أنهم الدعامة الأساس لعصب الاقتصاد المصري؛ فبدونهم تنهار سبل الحياة؛ فهم ونهر النيل وجهان لعملة واحدة، ولا يمكن الاستغناء عن أي منهما، ومع كل ذلك كانوا دائمًا مقهورين من السلطة الحاكمة يُستخدمون لتحسين الاقتصاد المصري من الزراعة، ومع كل ذلك ليس لهم أية حقوق، بل عليهم كل الواجبات.

وكان أول احتكاك لهم مع الدولة العثمانية عندما دخل عسكر السلطان بلبيس، ورحّلوا فلاحيها عنها، فدخلوا القاهرة خوفا من النهب، وفي موقف آخر هجم جان بردي الغزالي (شركسي الأصل، وكان مملوكا للأمير تغري بردي، وتولى حكم دمشق بعد سقوط مصر والشام) على بلاد الشرقية فنهب ما فيها من حيوانات، وأَسَر نساء الفلاحين وأولادهم وباعهم بأبخس الأثمان، وعاتب وزيرُ الدولة العثمانية يونس باشا (أحد الوزراء البارزين بالدولة العثمانية) الغزاليَّ على تلك الأفعال، ونادى في القاهرة بردِّ ما أُخذ لأصحابه[1] وقد ظهر حكم العثمانيين وسيطرتهم على البلاد عندما توجه المباشرون إلى الشرقية، ومسحوا الأراضي، وجاروا على المقطعين في المساحة، وقرروا على البلاد التي نزلوها أموالًا بحسب رغبتهم؛ فجبوا أكثر من مائة ألف دينار بعد الضرب المؤلم للفلاحين، ووضعهم في الحديد، وكل هذا بعلم ملك الأمراء، حتى قال عنه ابن إياس: "**عد هذا من جملة مساوئة في حق أهل مصر**"، ولصقت بالفلاحين الضرب والإهانة حتى إنه أدى لموت أحد الفلاحين بالغربية من شدة

(1) نفسه، ج5، ص142، 168، 169.

الضرب، وهذا بخلاف العسكر العثماني الذي استحلّ نساء الفلاحين وبناتهم؛ وفضلًا عن نهبهم للضياع المتاخمة لبلبيس والصالحية[1].

وربما هذا ما دفع جمعا غفيرا من الفلاحين إلى الاستغاثة بالأمير سنان باشا (قائد عسكري عثماني من أصل ألباني، وسمي حاكما على مصر 977هـ/ 1569م) في أثناء مروره على ضياع الشرقية، حيث قالوا له "**قد خربنا من الظلم . . . فأوعدهم بالنظر في أحوالهم؛ فلم يظهر لقوله نتيجة فيما بعد، واستمر كل شئ على حاله**"، ومما زاد من سوء أحوال الفلاحين أمر المعاملة الجديدة من العملة مما أدى لخراب البلاد؛ فضلًا عن الضرائب التي تفرض عليهم من آن لآخر، فمثلًا أخلع ملك الأمراء على بركات المحتسب وقرره في التحدث على جهات الشرقية من المطرية - التي تتبع محافظة الدقهلية - إلى دمياط، ويلتزم بدفع أربعمائة ألف دينار سنويًا[2]، وعلى النقيض من ذلك وصل الأمر إلى أن أحد الباحثين صوّر التركي بالمُدافِع عن الفلاحين الذين يتعرضون لأشد أنواع العذاب[3] بل وأورد رؤية السلطة العثمانية في الاهتمام بإعادة إسكان القرى المهجورة، وحماية الفلاحين من البدو، ووفقًا لقانون نامة مصر أعطى الحق للفلاحين أن من يأتي برأس بدوي نهّاب فله الحق في أخذ حصانه وسلاحه وثيابه[4].

د - الذعران والغلمان:

كان للذعران والغلمان دور في حالة الفوضى التي عمت البلاد في أثناء دخول العثمانيين القاهرة - فهم يقبعون في الفقر - حيث نهبوا البيوت في حجة العثمانية،

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص262، 263، 296، 333، 379.

(2) نفسه، ج5، ص450، 457، 468، 471، 492.

(3) إيفانوف، الفتح العثماني، ص47.

(4) نفسه، ص72، 73.

وفي موضع آخر صار "**عياق مصر يغمزون العثمانية على حواصل الخوندات والستات. . . فانفتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر**"(1)، ويقصد بذلك أن بعض الطبقات – عامة مصر والقاهرة – كانوا يقومون بالوشاية لصالح العثمانيين على من تمتلك مالًا من زوجات المماليك؛ فكان هذا عملهم الوحيد الذي يدر لهم بعض الربح.

ن – الفقراء:

أما الفقراء من القراء والوعاظ، وبعض الفقهاء فقد زادوا فقرًا، وذلك لأن اعتماد كل هؤلاء في أرزاقهم بعد الله على المناسبات، والموالد التي كان يقيمها سلاطين المماليك، ولكن بمجرد أن أصبحت مصر نيابة، اختُصرت كل الاحتفالات والأعياد، فمثلًا الاحتفال بالمولد النبوي في عهد ملك الأمراء "**لم يشعر به أحد من الناس**"، وضيق على هؤلاء الفقراء، ويقارن ابن إياس بين تلك الأيام في عهد نيابة خاير بك، وأيام سلاطين المماليك، وطريقة احتفالاتهم بالمناسبات لدرجة أنه قال "**مد سماطًا لا يسمن ولا يغني من جوع، وأين هذا مما كان يعمل في موالد من تقدم من سلاطين**"(2) وفي (شوال928هـ/ أغسطس1521م) زاد حال الفقراء سوءًا عندما قَدِم الخواجا ابن عباد الله من إسطنبول، الذي أقره السلطان سليمان في نظر الأوقاف بمصر والشام؛ فكان من مهامه كشف سائر أوقاف الجوامع والمدارس، وعَزَل من الصوفية من شاء وأبقى من شاء؛ بل عزل الفقهاء عن الوظائف وقرر بها الأروام(3).

(1) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص146، 151.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص245، 295، ولمزيد من التفاصيل عن وضع الفقراء انظر: أوليا جلبي، سياحة نامة مصر، ص316، 319، 327 – 334، 339.

(3) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص475.

وبمجرد تولي إبراهيم باشا حكم مصر عام (931هـ/ 1524م) أعاد تنظيم البلاد، وأطلق سراح الفقراء المسجونين بسبب الديون، وأصدر أمرًا بإعالة اليتامى على حساب الدولة، وإصلاح المساجد والمآوى وغيرها من المؤسسات الإسلامية، وأطلق المنادون في الشوارع يدعون كل من له شكوى أن يتقدم بها إلى الصدر الأعظم مباشرة، بل استطاع الباشا أن يجمع بين محبة الشعب للطريقة العثمانة النموذجية، وأقصى صنوف الاضطهاد والتنكيل، وتمكن بذلك من إقرار الأمن في البلاد وعاد في (932هـ/ 1525م)[1]، ورغم كل هذا يأتي أحد الباحثين ويشير إلى النظر للشخص التركي على أنه يقف بثبات إلى جانب المساكين والفقراء، الذين يطعمون السادة الأغنياء بعملهم، ولا يحصلون لقاء ذلك إلا على المزيد من المتاعب[2] في حين أشار مؤرخ آخر أن لكل جامع في القاهرة نحو 700 مطبخ للمحتاجين، وأن هذا العدد هبط عند دخول السلطان سليم إلى المدينة حتى وصل إلى 165 مطبخًا، وقد حاول العثمانيون المحافظة على هذا العدد[3] ورغم أن هذا العدد غير واقعي ومبالغ فيه جدًا إلا أنه دليل على الانهيار الحضاري والاجتماعي للدولة.

ح - العربان:

وتعد **طائفة العربان** جزءا لا يتجزأ من المجتمع المصري، ومع ذلك كانوا منفصلين عن الدولة لا تدين بالولاء لأحد، فهم دائما وأبدا مصدر إزعاج للسلطة الحاكمة، وهدفهم الأول هو مصالحهم التي يسعون للمحافظة عليها بأي طريقة كانت، ومن شدة قوّتهم وعصبيتهم حاولت السلطة الحاكمة بمصر مهادنتهم

(1) إيفانوف، الفتح العثماني، ص82.
(2) نفسه، ص47.
(3) أوزنوتا، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص840.

بشكل كبير، ولكن عندما تشتد وطأتهم على البلاد، وبالأخص الفلاحين تقوم السلطة بإرسال تجريدات للحد من قوتهم، وغالبا ما يعودون لما كانوا عليه؛ فكانوا بمنزلة دولة داخل دولة.

والعربان أو الأعراب هم القبائل التي دخلت مصر مع الفتح العربي، ولم تندمج بين طيات الشعب، وتناثرت شمالًا وجنوبًا، وهذه القبائل تنشطر إلى بطون وأفخاذ وعشائر عديدة، وحازت على كثير من الإقطاعات في معظم أقاليم مصر في العصر المملوكي(1) وذكر ابن طولون(2) عن أمراء العربان: إذا أعطاهم السلطان إقطاعًا قطعوا الطرقات وسفكوا الدماء، كما يأخذون المرأة غصبًا حتى لو كانت في عصمة رجل آخر، وقد أحصى المقريزي والقلقشندي قبائل العربان كما ذكروا أصولها وأماكن تجمع كل منها، سواء في الوجه البحري أم القبلي، بما يدل على قوتهم، بل أشاروا لمدى وصولهم لدرجة كبيرة من الثروة والغنى(3).

وكانت غارات العربان هي أحد مظاهر تحدي الدولة من الداخل، بما تسببه من تشتت قوى الجيش المملوكي في القضاء على تمردهم، فضلًا عن تدمير

(1) المقريزي، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، (القاهرة، ط1، عالم الكتب، 1961م)، ص125، 133 – 136، 139، 142، 144، 147 – 153.

(2) ابن طولون، نقد الطالب لزغل المناصب، تحقيق محمد وخالد أحمد دهان، نزار أباظة، (بيروت – لبنان، ط 1، دار الفكر المعاصر، الكتاب 938، 1992م)، ص85.

(3) القلقشندى، صبح الأعشي، ج1، ص363 – 366، ج4، ص67 – 72، ج7، ص160 – 163؛ المقريزي، البيان والإعراب، ص133 – 153؛ لمزيد من التفاصيل عن البدو، انظر؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، قدمها عبادة كحيلة، (القاهرة، ع 153 – 159، الذخائر، هيئة قصور الثقافة، 2007م)، ج1، ص101 – 107.

الاقتصاد المصري بالتعدي على القوافل التجارية، وهروب الفلاحين بسببهم؛ ليؤثر ذلك على الجانب الزراعي الذي هو أحد أهم الأركان لاقتصاد الدولة ومصر بصفة عامة.

وقد كان العربان ذوي طابع خاص مختلف عن أهل الحضر فنظرًا "**لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، وبُعدهم عن الحامية، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يَكِلُونها إلى سواهم، ولا يثقون فيهم بغيرهم، فهم دائمًا يحملون السلاح، ويلتفتون عن كل جانب في الطرق... واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خُلقًا، والشجاعة سجية، يرجعون إليها متى دعاهم داع... وأهل الحضر مهما خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر... لا يملكون معهم شيئًا من أمر أنفسهم**"[1].

وكان أول لقاء بين العربان والدولة العثمانية في المعارك الداخلية أول عام (923هـ/ 1517م)، عندما تمركز العربان عند قنطرة الحاجب (أنشأها الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب عام 725هـ/ 1334م، وهى تصل بين أرض الطبالة ومنية السيرج)، وقتلوا من يلوح لهم من العثمانية؛ فضلًا عن حمايتهم للسلطان طومان باي، و لكن عندما أحسوا بدنو موقف المماليك، وعلو شأن العثمانيين

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1، ص105. وكانوا منذ عصر سلاطين المماليك مصدرًا لإثارة الفتن والمتاعب في وجه الحكومة باستمرار، كما أن الفلاحين في قُراهم، وسكان المدن لم يسلموا من أذاهم، وكثيرًا ما خرجت الحملات ضدهم، ولكن ذلك لم يقض على اعتداءاتهم على القرى والمدن، واعتراضهم طريق قوافل الحج، وظلوا مصدرًا لاضطراب الأمن في البلاد طوال ذلك العصر، لمزيد من التفاصيل انظر: قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، (القاهرة، ط1، دار المعارف، 1978م)، ص96، تاريخ مصر الإجتماعي، ص60، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، (القاهرة، عين، 2007م)، ص149.

فكروا في مصلحتهم أولًا، ويظهر ذلك من خلال كشف حسن بن مرعي - أحد قواد العربان - عن هوية السلطان طومان باي للسلطة العثمانية؛ مما تسبب في شنقه في ربيع أول[1].

وقد حذا زعماء القبائل البدوية الكبرى في مصر حذو أهالي القاهرة في الإعراب عن ولائهم للسلطان سليم، ومع ذلك تفهّمت الإدارة العثمانية حياة البدو، ولم تتدخل في أسلوب حياة القبائل البدوية، ولكن قُضي على إخلالهم بالأمن، وتهديدهم للطرق، ونلاحظ أنه لم يطرأ على عرب المشرق تبدل يستحق الذكر بالنسبة لما قبل الدولة العثمانية[2].

ويبدو أن تعاونهم مع العثمانيين جعلهم في مأمن لبعض الوقت؛ حيث استغل شيخ عبد الدايم بن بقر أحد زعماء العربان فرصة انشغال الجيش العثماني بالتصدي لأمراء المماليك، وقام بتخريب أغلب مناطق الشرقية، ونهب أموال التجار، واستمر بالفساد في تلك الجهات، وفشل خاير بك في استمالة الشيخ عبد الدايم؛ فعيّن والده أحمد، ولكن في (صفر 924هـ/ فبراير 1518م) كثرت الإشاعات بعصيان عبد الدايم، واضطربت أحوال الشرقية؛ واستمرت عاداتهم طوال الحكم العثماني بمصر من فساد وقطع طرق على الفلاحين وسرقة ونهب، وكان الحل من وجهة نظر السلطة الحاكمة تنصيبهم على بعض البلاد لرعايتها، والمحافظة على خراجها وإرسال التجريدات لهم تارة أخرى للحد من فسادهم، سواء في البلاد أم مضايقتهم للحجاج، ولكن هذا لم يعط فائدة ملموسة بدليل

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص142، 155، 174 - 176؛ البكري، التحفة البهية، ص92 - 95؛ أوليا جلبي، سياحة نامه مصر، ص175 - 177.

(2) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص221 - 228؛ اوزنوتا، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص813؛ إيفانوف، الفتح العثماني لمصر، ص70.

تكرار أفعالهم[1]، وبعد وفاة السلطان سليم لجأ ملك الأمراء لاتّباع سياسة أكثر هدوءًا مع العربان؛ وبالأخص عندما وردت الأخبار من الشام بسلطنة الغزالي، حيث عمد إلى الاستعانة بهم في (ذي الحجة926هـ/ نوفمبر1519م) لملاقاة نائب الشام؛ فضلًا عن تأمين جانبهم من أعمال الشغب والفساد في البلاد، ولكن زاد فسادهم ووصل الأمر لتحالف سبع طوائف من العربان لخروجهم عن الطاعة وإظهار العصيان، ونهب البلاد كما حدث بالشرقية، وفي ضوء هذا أيقن السلطان سليمان أن التعامل معهم بود ولين أفضل من القسوة والشدة؛ فأرسل لمشايخ العربان – لكل واحد منهم – بمصر مرسومًا مع قفطان[2]، وكانت قدرة العربان على تحدي سلطات الدولة تأتي من إمكانية تحركهم السريع وتغيير أماكن إقامتهم؛ فضلًا عن امتلاكهم للخيول، وهي القوى الضاربة في جيوش ذلك العصر[3].

فقد حرص العربان على البحث عن مصالحهم في المقام الأول، ومنهم من كان معروفا بالطاعة والخضوع، وغيرهم بالتمرد والعصيان، وقد وُجِدت

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص212، 218، 221، 240، 241، 259 – 261، 264، 274 – 278، 280، 284، 325، 328، وفي (ربيع أول 925هـ/ 1519م) استطاع إينال السيفي كاشف الغربية القبض على حسن بن مرعي، وأخيه شكر، وقطع روءوسهما – وقد كانوا هم أنفسهم سببا للقبض على السلطان طومان باي – وأمر ملك الأمراء بأن تعلق رؤوسهم على باب زويلة. انظر: المصدر نفسه، ص295، 296.

(2) نفسه، ج5، ص370، 372، 375، 379، 396، 397، 443، 474، 475، وقد نلاحظ أنه بمجيء مصطفى باشا عام (929هـ/ 1522م) للحكم بعد خاير بك قد انضم الشيخ أحمد بن بقر إليه، ومعه عشرة من أبنائه، وانضم شيخ عرب الغربية للجيش العثماني، وقدّم الشيخان فروض الطاعة لمصطفى باشا. انظر: سيد محمد السيد، مصر في العصر العثماني القرن السادس عشر، (دراسة وثائقية في النظم الادارية والقضائية والمالية والعسكرية، القاهرة، مدبولي، 1997م)، ص114، 115.

(3) كمال حامد مغيث، مصر في العصر العثماني، ص81.

في قبيلة واحدة النوعان، وقد يتغير قرارهم من العصيان إلى الخضوع حسب الظروف الموالية للأحداث. وعموما فقد كان مؤرخنا ابن إياس أكثر معرفة بوضع العربان، فكل إشاراته لهم تنم عن قوتهم وفسادهم، وفشل السلطة في مقاومتهم بما يوحي بأنهم أشبه بدولة داخل الدولة؛ حتى سلطان الدولة العثمانية عندما أيقن هذا الأمر عمل على مهادنتهم؛ فهم فئة لهم قوانينهم وعاداتهم ولا يخضعون لأي سلطة أخرى، ومثلوا جزءا لا بأس به من المجتمع المصري على الأراضي المصرية بشكل عام.

4 - أهل الذمة:

أما عن **أهل الذمة** فهم جزء لا يتجزأ من نسيج المجتمع المصري، يتأثرون بعاداته وتقاليده واحتفالاته وأفراحه، فكان التعامل معهم كبقية المجتمع المصري، حيث قام السلطان بنقل جماعة من اليهود مع نسائهم، وأولادهم لإسطنبول، بينما كان أول تعامل لهم مع النائب خاير بك عندما قبض على معلمي دار الضرب من اليهود في (جمادى الأولى 925هـ/ مايو 1519م) بسبب الغش في عملات الذهب والفضة، فعاقبهم بدفع مائة ألف دينار أويتوجهون لإسطنبول، أو يصلحون ما فسد، فأغلظ عليه بعض اليهود، وقالوا له: أرنا مرسوم السلطان بالذهاب لإسطنبول، فكان مصيرهم سجن القلعة، وتكرر الأمر بشنق يهودي وآخر نصراني، لوجود غش في العملة، وآلة لغش العملة عند أحد اليهود[1]، ورغم ذلك يجب أن نشير إلى أن تفوقهم في الأعمال المالية والتجارية كان سببا مباشرًا في اعتماد النائب عليهم في تلك المناصب الهامة بالدولة،

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص178، 179، 182، 301، 445؛ البكري، التحفة البهية، ص94.

ولكنهم أساؤوا استخدام مناصبهم في جمع الأموال، بالتلاعب في العملة مما أضر بالسوق، وتحمل العامة عبء زيادة أسعار مختلف البضائع.

ويشير أحد المؤرخين أن ترحيل يهود القاهرة إلى إسطنبول الذي عَدَّه القاهريون إجراء قاسيًا، هو اعتراف عثماني بالمهارات الخاصة لدى الجالية اليهودية، تمامًا مثل غيرهم من الجماعات الأخرى الذين رُحِّلوا، وكذلك كان الوضع بالنسبة للأقباط، وأشار أنه في أثناء حكم خاير بك كأول حاكم عثماني لمصر، لم يمر وضع الذميين بأي تغيير(1)، في حين أشار إلى أن الفتح العثماني قد حسّن من ظروف الجالية اليهودية، بينما الحكم المملوكي كان حكمًا طاغيًا، ومستغلًا وتعسفيًا، يميل إلى ظلم الأقليات الدينية، فبدخول العثمانيين تخلصوا من المتاعب الاقتصادية، وتدهور الأمن لدى الذميين، واستفاد العثمانيون من مواهبهم الاقتصادية(2)، وفي ضوء هذا انتشرت أساطير كثيرة في تسامح العثمانيين في الدين ومحبة الشعب لهم، فجذبت إليهم قلوب المضطهدين والبائسين(3)، وهذا ما يمكن أن نسميه بالدعاية الإعلامية قبل الغزو.

أما النصارى فقد تقلدوا المهن العامة بالدولة، والخاصة بالشئون المالية، لما لهم من باع طويل في جمع الأموال، وبالأخص من الفلاحين، والطبقات الضعيفة، ووصل الأمر إلى سطوتهم في تلك الفترة، وتحكمهم في أموال مصر، ففي (ذي القعدة927هـ/ أكتوبر1520م) تجاهر ثلاثة مباشرين نصارى بالمعاصي والسُّكْر، وعندما نهاهم أحد القضاة سبّوه وسبّوا دين الإسلام، ولكن لضعف القضاء في ذلك الوقت عجزوا عن قول كلمة حق وعن محاكمتهم،

(1) ميكل ونتر، المجتمع المصري، ص300.
(2) ابن إياس، المصدر نفسه، ج5، ص 298، 299.
(3) إيفانوف، الفتح العثماني، ص49.

وما كان من العوام إلا أن حاولوا رجم القضاة[1]، وبتكرار الأمر والقبض على أحد النصارى والحكم بحرقة، أعلن إسلامه فعُفي عنه، أما الباقون فهربوا حتى تخمد الواقعة[2].

ولكن قانون نامة مصر وُضِع به بند يوصي بعزل الذميين والمنوط بهم العمل كمباشرين، وعزل موظفي الجمارك اليهود في مينائي الإسكندرية والسويس، وهذا لاتهامهم بالتصرف على عكس الشريعة، ولا بد إحلال مسلمين محلهم[3]، فكان من شأن تلك القرارات إحداث خلل في العلاقة بين أهل الذمة والمسلمين؛ فضلًا عن تنمية الشعور عند أهل الذمة بالاضطهاد.

أهم نتائج البحث

- يُعدّ كتاب ابن إياس الموسوم ببدائع الزهور هو أحد أهم المصادر التاريخية المعاصرة لفترة من أهم فترات التغير الحضاري في التاريخ المصري الإسلامي، وذلك لأنه عاصر نهاية دولة، وبداية آخرى.
- كان لتطور العلاقات المملوكية العثمانية نتيجة هامة في اختبار الدولة العثمانية لتطور قوة الدولة المملوكية، وانتظار الفرصة للإجهاز عليها، وأخذ مكانها في قيادة الأمة العربية.
- تغير وضع الطبقة الحاكمة بالمجتمع المصري، فبعد أن كان المماليك هم المسيطرون على مقاليد الحكم، أضحت فئة هاربة من الحكام الجدد، وأصبحوا بعد ذلك إحدى القوى المساعدة للعثمانيين في السيطرة على مقاليد الحكم.

(1) أزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج2، ص412.
(2) نفسه، ص 475، 476.
(3) ميكل وانتر، المجتمع المصري، ص 302، 306.

- قُيِّدت سلطة الوالي أحيانًا كثيرة؛ لتدخل الحامية العثمانية في كثير من أمور السلطة، بينما عمل الوالي على محاباة السلطان العثماني طمعًا في البقاء لأطول مدة ممكنة في الحكم على حساب المجتمع المصري.

- ظهر لنا تعالي قواد الحامية العثمانية وكبرهم على والي مصر، والمجتمع المصري عموما، وتضارب القرارات في بعض المواقف، ومدى كراهيتهم لفئة المماليك الجراكسة، وزاد فسادهم بأرض مصر، وأهلها، فلا يصومون رمضان، ولا يصلون الجمعة، ولخّص ابن إياس ذلك بقوله عنهم "**همج كالبهائم**"، بما يدل على أن أنه كان معاصرا لأفعالهم، وأيقن والي مصر مدى سطوتهم ونفوذهم؛ فكثيرًا ما حاول إرضائهم على حساب رجاله وقواده.

- ظهر في خدمة الطبقة الحاكمة مجموعة من المباشرين، ومديري الديوان، ولم تتغير وظائفهم عن عصر دولة سلاطين المماليك، ولكن تغير عنصر السلطة الحاكمة فقط؛ فضلًا عن دور علماء الدين بشكل أكثر سلبية؛ فقد سُلبت كل اختصاصاتهم لصالح الدولة العثمانية.

- أضحت الطبقة المحكومة، التي نخص منها العامة أكثر فقرًا وسوءًا وإذلالًا؛ فعناصر الطبقة الحاكمة كانت تعمل لصالح نفسها على حساب المجتمع المصري المحكوم؛ فكل ما اختلف من حاكم لآخر هو زيادة وطأة الظلم، والإذلال عن طريق سفك الدماء، والقتل، وتهجير أمهر الصنّاع، والحرفيين إلى عاصمة الدولة العثمانية لبناء حاضرة وحضارة، وطمس كل ما هو مصري وقتله بالأرض المصرية، لدرجة وصلت إلى اندثار خمسين صنعة، وخربت بيوت أصحابها على إثر ذلك، بل تعرض التجار للعديد من الأزمات الاقتصادية، وأُجبروا على إشراك قواد الحامية العثمانية في تجارتهم.

- استطاعت الدولة العثمانية أن تقيم نهضة اجتماعية وثقافية، من خلال نقل الحضارة المصرية في العصر المملوكي، بنقل أمهر صناع المجتمع المصري وعماله إلى العاصمة إسطنبول.
- لم يتغير حال الفلاحين؛ فكانت حياتهم من سيء إلى أسوأ؛ فهم دائمًا وأبدًا يعملون من أجل السلطة الحاكمة، وليس لهم نصيب في كدّهم، وأصبحوا بين شقّي الرحى: المباشرين من جهة، والبدو العربان من جهة أخرى، وليس لهم حق الشكوى، فضلًا عن كون محاولة السلطة العثمانية الحد من نفوذ العربان صار من المحال، ولا بد من اتباع سياسة دولة سلاطين المماليك نفسها في إقرارهم على القرى، والفلاحين.
- أصبحت الاحتفالات بالأعياد، والمناسبات الدينية مجرد ذكرى، وخيّم على مصر، ومجتمعها الظلام.
- ظهر أهل الذمة من وجهة نظر العثمانيين في بعض كتابات المؤرخين على أنهم مجرد كفار أو كفرة، وليسوا أهل ذمة، رغم انتشار أساطير تسامح العثمانيين معهم؛ فقد كان قانون نامه يوصي بعزل الذميين من مناصبهم بالدولة، وإحلال المسلمين محلهم.
- أخيرًا كان المتضرر الأول من الحكم العثماني هو المجتمع المصري؛ وبالأخص العامة، والفقراء، وكان طمس كل ما هو مصري هدفًا واضحًا في سياسة الدولة العثمانية، وأثبتت العقود والقرون نجاحهم في ذلك.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر:

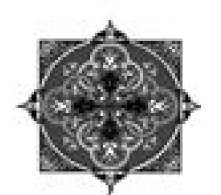
- الأسدي، محمد بن محمد بن خليل (ت القرن التاسع الهجري)، التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، (القاهرة)، دار الفكر العربي، 1967م.
- أوليا چلبي، أوليا چلبي بن محمد ظلي (ت 1096هـ/ 1684م)، سياحة نامة مصر، ترجمة محمد علي عوني، تحقيق: عبد الوهاب عزام، أحمد السعيد سليمان، (القاهرة)، دار الكتب، 2009م.
- ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري (ت930هـ)، كتاب تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، (القاهرة)، أجزاء منوعة، الطبعة الثانية، دار الكتب، 2008م.
- جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، (القاهرة)، الدار الثقافية، الطبعة الأولى، 2006م.
- البكري، محمد بن أبي السرور (ت: 1007هـ/ 1598م)، التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية، تحقيق: عبد الرحمن عبد الرحمن عبد الرحيم، (القاهرة)، دار الكتب، 2005م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، يوسف الأتابكي (ت: 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: محمد فهيم شلتوت، (القاهرة)، الطبعة الثانية، أجزاء منوعة، دار الكتب المصرية، 2006م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت: 808هـ)، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: رضوان إبراهيم، مراجعة أحمد زكي، (القاهرة)، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب، 1960م.
- تاريخ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، قدمها عبادة كحيلة، (القاهرة)، أجزاء منوعة، ع 153 – 159، الذخائر، هيئة قصور الثقافة، 2007م.

- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت: 902هـ)، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، (بيروت)، د. ت.
- القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت: 821هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (القاهرة)، الطبعة الثالثة، أجزاء منوعة، دار الكتب، 2010م.
- ابن طولون، الحسن بن حسين بن أحمد (ت: 923هـ)، نقد الطالب لزغل المناصب، تحقيق محمد وخالد أحمد دهان، نزار أباظة، (بيروت - لبنان)، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، العدد 938، 1992م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد (ت: 845هـ/ 1441م)، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، (القاهرة)، الطبعة الثالثة، دار الكتب، 2002م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، (القاهرة)، جزءان، مكتبة الآداب، 1996م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ج1، ج2، سعيد عبد الفتاح عاشور، ج3، ج4، (القاهرة)، الطبعة الثالثة، دار الكتب، 2009م.
- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، (القاهرة)، الطبعة الأولى، عالم الكتب، 1961م.

قائمة المراجع:

- إبراهيم على طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، (1382 - 1517م)، (القاهرة)، النهضة المصرية، 1960م.
- أحمد صدقى شقيرات، مقاييس الطول والمساحة العثمانية وما يعادلها بالمقياس المتري، الأردن - (اربد)، الطبعة الأولى، دار الكندي، 2007م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، (القاهرة)، الطبعة الثانية، النهضة العربية، 1976م.
- سيد محمد السيد، مصر في العصر العثماني القرن السادس عشر، دراسة وثائقية في النظم الإدارية والقضائية والمالية والعسكرية، (القاهرة)، مدبولي، 1997م.

- قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، (القاهرة)، الطبعة الأولى، المعارف، 1983م.
- الرؤية الحضارية للتاريخ، (القاهرة)، الطبعة الثانية، دار المعارف، 1985م.
- النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، (القاهرة)، الطبعة الأولى، المعارف، 1978م.
- عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، (القاهرة)، عين، 2007م.
- بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك، موسوعة الحضارة العربية، سوسة، (تونس)، ع16، المعارف، 1994م.
- ماهية الحروب الصليبية، (الكويت)، مجلة عالم المعرفة، ع149، 1990م.
- كمال حامد مغيث، مصر في العصر العثماني1517 - 1798م المجتمع والتعليم، (القاهرة)، الطبعة الأولى، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، 1997م.
- محمد مصطفى زيادة، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي، (القاهرة)، الطبعة الثانية، 1954م.
- محمد عبد الله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ الإسلامي، (القاهرة)، الأسرة، 1999م.
- ميكل ونتر، المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، مراجعة عبدالرحمن عبدالله الشيخ، (القاهرة)، الهيئة العامة للكتاب، 2001م.
- نيقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516 - 1574م، (ترجمة: يوسف عطا الله، مراجعة مسعود ضاهر، س تاريخ المشرق العربي الحديث، ع3، (القاهرة)، الفارابي، 1988م.
- وليم موير، دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، (القاهرة)، ع25، مكتبة مدبولي، 1995م.
- يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة محمود الأنصاري، استانبول، (تركيا)، م الثاني، منشورات فيصل، 1990م.



حضرموت في وثائق الأرشيف العثماني: دراسة تمهيدية

أ. د. سهيل صابان

ملخص البحث:

أُعد هذا البحث؛ لتقديم المساعدة للباحثين في تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر في الوصول إلى الوثائق المطلوبة من الأرشيف العثماني بإسطنبول، وقد أصبح ذلك في ظل التقنية الحديثة سهلًا وميسرًا إذا ما توفر لدى الباحث أدوات البحث المطلوبة، وعلى رأسها معرفة آلية تصنيف الوثائق وترتيبها، والحصول على رقم الوثيقة مع اسم التصنيف، وكيفية وضع الكلمات المفتاحية في قاعدة البحث بالموقع.

ومع وجود الوثائق الخاصة بتاريخ حضرموت في ذلك الأرشيف وتنوعها، إلا أنها قليلة بالمقارنة بتاريخ اليمن في العهد العثماني، لكنها وثائق مهمة، تناولت موضوعات سياسية واقتصادية واجتماعية، لا مندوحة للباحث من الاطلاع عليها، والاستفادة منها، ومقارنتها بالمصادر التاريخية الأخرى، فإما أنها تقدم معلومات جديدة عليها، أو أنها تكمل الأسئلة التاريخية التي تبحث عن إجابات عليها، أو أنها تقدم وجهة نظر الدولة العثمانية في موضوع الوثيقة على أقل تقدير ضمن الحدث التاريخي.

وقد تبين من الموضوعات التي تناولت تاريخ حضرموت في الأرشيف العثماني، العلاقة الوثيقة بينها وبين ولاية الحجاز في العهد الأخير من الحكم العثماني، كما ضمت الوثائق علاقة أهالي حضرموت بالبلدات المجاورة، والصراعات السياسية التي شهدتها المنطقة، فضلًا عن مراسلات عربية هامة جرت بين أعلام من حضرموت وبين مسؤولي الإدارة العثمانية في المنطقة، أو مع الباب العالي في إسطنبول، جديرة بإجراء دراسات عليها، والتصدي لكتابة جوانب عديدة من تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر في ظل توفر وثائق حديثة عنه.

وبناء على ما سبق فإن البحث لم يقم بتحليل الأحداث التاريخية في حضرموت عبر الوثائق العثمانية، ولم يوجه الباحثين توجيهًا معينًا في المسار التاريخي، وإنما حاول تقديم فكرة عامة عن صورة حضرموت في ذلك الأرشيف، وإيراد عدة نماذج من الوثائق.

Abstract:

Prepare this research; To provide assistance to researchers in the modern and contemporary history of Hadhramaut in accessing the required documents from the Ottoman archives in Istanbul, and this has become in light of modern technology easy and accessible if the researcher has the required research tools, on top of which is knowing the mechanism of classifying and arranging documents, and obtaining the document number with the name of the document. Classification, and how to put keywords in the site's search base.

Although there are documents related to the history of Hadhramaut in that archive and its diversity, they are few

compared to the history of Yemen in the Ottoman era, but they are important documents that dealt with political, economic and social issues, which the researcher should not be able to access, benefit from, and compare them with other historical sources, either they provide information It is new to it, or it completes the historical questions that it is looking for answers to, or it presents the point of view of the Ottoman Empire on the subject of the document, at the very least within the historical event.

بادئ ذي بدء لا بد من الإشارة إلى أن المقصود بالأرشيف العثماني، الأرشيف التابع لرئاسة الجمهورية التركية، الواقع في مقره الجديد بحي كاغدخانة في إسطنبول، الذي يقتني مائة وخمسين مليون وثيقة، تخص الدولة العثمانية (1299 – 1924م)، بما فيها المناطق التي وقعت تحت سيادتها، والدول التي أجرت علاقات معها. ومعظم تلك المقتنيات أصبحت متاحة في النظام الحاسوبي، مما يساعد الباحث على استعراض ملخصات الوثائق في وقت قصير نسبيًا بالمقارنة بالفهارس الورقية من السجلات في الفترة الماضية.

والنظام الجديد المتبع في البحث في الأرشيف، يتيح للباحث معرفة كمية الوثائق الخاصة بموضوع بحثه بمجرد إدخال الاسم المراد بحثه. فلو أدخلنا اسم "حضرموت" لتبين لنا وجود 114 موضوعًا مصنفًا تحته (وذلك حتى إعداد تاريخ هذه البحث وهو شهر نوفمبر 2021م). بدءًا من 1260هـ (1844م) وانتهاءً بعام 1334هـ (1915م). وبطبيعة الحال هذا التحديد لا يشمل تاريخ حضرموت في العهد العثماني؛ لأن هناك وثائق صنفت تحت اسم "المكلا" و"شحر" وغيرهما من بلدات حضرموت التي لم تصنف تحت اسمه؛ بسبب عدم إلمام المصنفين والمفهرسين في الأرشيف بالتقسيمات الإدارية فيه، أو عدم ذكر اسم حضرموت في الوثيقة. كما أن الفرمانات الصادرة من الديوان السلطاني

في إسطنبول، لم تظهر في هذا الفهرس، أقصد بذلك الأوامر الواردة في سجلات دفاتر المهمة وعددها 266 سجلًا[1]. فعلى الرغم من ذكر اسم حضرموت في وثيقة قديمة (تاريخها: 5 ذو القعدة 973هـ/ 24 مايو 1566م) تحت حكم بدر[2]، إلا أن المفهرس لم يعكسه في الفهارس، مما يضيِّع الباحث في حال تقيده بهذا الاسم. وبناءً على ذلك فلا بد من التروي في البحث، وإدخال الخيارات الأخرى فيه، مثل: أسماء البلدات، أو الأعلام، أو الأحداث، أو التاريخ التقريبي لتلك الأحداث، وسأمثل لكل ذلك بعد قليل.

ومنطقة حضرموت الواقعة في جنوب اليمن، مثل غيرها من المناطق التابعة للدولة العثمانية، لكنها كانت بعيدة عن النفوذ العثماني المباشر في الفترة الأخيرة من عهدها على أقل تقدير، وشهدت الاحتلال الإنجليزي للمنطقة، وأدى ذلك إلى تكاثف المراسلات بين حضرموت وأعيانها وأشرافها والباب العالي في إسطنبول. وقد دلت تلك المراسلات على التبعية الإدارية لحضرموت بولاية الحجاز، بصورة خاصة، وكانت الوسيط بينه وبين الباب العالي في تلك المراسلات.

(1) للتفصيل في هذا الموضوع انظر: سهيل صابان/ أهمية دفاتر المهمة في تدوين تاريخ الحجاز: دراسة تحليلية. مجلة الجمعية التاريخية السعودية، **العدد** (27)، **السنة**: 13 **(رمضان 1434هـ/ يوليو 2013م)**. ص 59 – 110؛ **سهيل صابان**/ موقف الدولة العثمانية من الخطر البرتغالي في جنوب الجزيرة العربية كما عكستها دفاتر المهمة بالأرشيف العثماني (967 – 999هـ/ 1560 – 1591م). **السجل العلمي للندوة العالمية الثامنة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية** التي نظمها مركز دراسات تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها بجامعة الملك سعود في 14 – 17 جمادى الآخرة 1435هـ/ 14 – 17 إبريل 2014م. الرياض: جامعة الملك سعود، مركز الملك سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها (الكتاب الثامن)، 1441هـ/ 2020م. ص 301 – 336

(2) الأرشيف العثماني، تصنيف DVNSMHM. d. 5 / 1699

وفي هذا التكاثف البريدي يظهر اسم نقيب السادات في مكة المكرمة السيد إسحاق بن عقيل؛ إذ نراه يقدم العديد من الخطابات والتقارير لوالي الحجاز حسيب باشا، معظم تلك الخطابات باللغة العربية؛ حتى وإن لم يظهر بعضها بها. وهي مهمة جدًا، ولاسيما التقارير التي شملت الإصلاحات المزمع إجراؤها في حضرموت. منها على سبيل المثال التقرير الذي قدمه السيد إسحاق لهذا الوالي (في 17 ربيع الأول 1260هـ/ 6 إبريل 1844م) الذي تحدث فيه عن كيفية إرسال العساكر من جدة إلى حضرموت، والاستيلاء على ميناءي المكلا والشحر، وكيفية التصرف في الوضع العام في البلد[1]. ومثل ذلك الخطاب الموجه لابنه السيد محمد (في 4 ذي القعدة 1265هـ/ 21 سبتمبر 1849م) المتضمن عدم الحاجة لإرسال العساكر إلى صنعاء، وبدلًا من ذلك إرسالهم محملين في سفينتين كبيرتين إلى حضرموت؛ إذ إن ذلك كفيل بدخول الأهالي تحت الإدارة العثمانية[2]. وقد بين السيد إسحاق في الخطاب العربي المرسل إلى ابنه السيد محمد (في 25 ذي القعدة 1265هـ/ 12 أكتوبر 1849م) الأوضاع العامة في حضرموت، وتظاهُرَ الأهالي على اليافعي، وضرورة إرسال العساكر بسرعة إلى البلد[3]. كما تضمنت بعض خطابات السيد إسحاق العمل على سياسة الاستمالة لحكام المنطقة، ومن هذا القبيل، طلبه من الباب العالي (في 15 ربيع الأول 1300هـ/ 24 يناير 1883م) منح الأوسمة لكل من حاكم الشحر الملا عبد الله القعيطي، وحاكم حضرموت منصور بن غالب، وحاكم زنجبار السيد برغش. . إلخ[4]. وتلك

(1) الأرشيف العثماني، تصنيف A. MKT. 10 / 79
(2) الأرشيف العثماني، تصنيف A. M. 6 / 91
(3) الأرشيف العثماني، تصنيف A. M. 6 / 89
(4) الأرشيف العثماني، تصنيف I. DH. 1295 / 102066. MB. I. 113 / 152

التقارير الخاصة بتفصيلات الأحداث الدائرة في حضرموت، ولاسيما التقرير الذي وضع له عنوانًا (هو: حوادث أخبار حضرموت، وتاريخه 18 ربيع الآخر 1267هـ/ 20 فبراير 1851م)، وسرد له بنودًا هامة، جدير بالتحقيق في كل بند من بنوده الأحدَ عشرَ؛ إذ يورد تفصيلات خروجه من جدة بمركب عباس باشا إلى حضرموت بعد موافقة أمير مكة المكرمة الشريف محمد بن عون ووالي الحجاز حسيب باشا في البند الأول، وانتهاءً بخبر عساكر العرب الذين تركهم في حصصة في البند الأخير[1]. فمن تلك التقارير للسيد إسحاق، يتبين للباحث تجاوب الحكومة العثمانية معه، ودفع التكاليف المالية التي تكبدها في إرسال العساكر - المشار إليهم قبل قليل - إلى حضرموت؛ إذ جاءت موافقة الباب العالي على تأدية تلك التكاليف[2].

وكذلك المحضر الذي قدمه مجموعة من السادة في حضرموت (في 29 ذي الحجة 1264هـ/ 26 نوفمبر 1848م) وعلى رأسهم: السيد شيخ بن عمر السقاف، والسيد أحمد بن زين وغيرهما من الأعيان المعروفين في تلك الفترة، المتضمن طلبهم من الباب العالي في رفع الظلم والتعدي الواقع على السادة في حضرموت[3]. ولا شك أن هذه الوثيقة تقدم معلومات جديدة على الروايات المحلية لأحداث تلك الفترة، كما تبين مدى التواصل الإداري بين حضرموت والحجاز. والحقيقة أن المحضر العربي الآخر المقدم منهم أيضًا - الذي ضم أسماءهم وأختامهم - إلى والي الحجاز السيد محمد حسيب باشا (في 5 صفر 1266هـ/ 21 ديسمبر 1849م)، يبين تفصيلات أخرى بما عانوه من عمر

(1) الأرشيف العثماني، تصنيف A. M. 9 / 3
(2) الأرشيف العثماني، تصنيف İ. MVL. 299 / 12194
(3) الأرشيف العثماني، تصنيف A. MKT. 160 / 103

عوض القعيطي؛ إذ اضطروا إلى الإجلاء إلى بندر الحديدة، وطلبوا من الدولة العلية رفع ذلك الظلم والتعدي عنهم[1].

وقد ضمت بعض الوثائق معلومات عن الجانب الاقتصادي للمنطقة؛ إذ أوردت معلومات عن الدخان الوارد من المكلا والشحر إلى الحديدة عن طريق ميناء عدن (في 14 ربيع الثاني 1309هـ/ 17 نوفمبر 1891م)[2]، والتعليمات التي أرسلها الباب العالي إلى ولاية اليمن في التعامل مع هذه البضاعة؛ بعدّها تصديرًا داخليًا وليس واردًا من خارج الدولة العثمانية؛ إذ رسومه أقل من البضائع الواردة من الخارج[3]. إلا أن التعليمات المذكورة سرعان ما ترك مكانها للتعليمات الجديدة، بحجة خسارة الخزينة من ذلك الإجراء[4]. ومثل ذلك الوثائق التي تحدثت عن الأسماك المجففة المصدرة من المكلا إلى جدة[5].

كما تناولت وثائق أخرى بعض الصلات الأسرية بين أفراد من حضرموت وآخرين من أسَرهم في جنوب شرق آسيا، مثل الوثائق التي تحدثت عن وفاة الحضرمي: السيد عثمان بن حسن العباس المقيم في سورابايا من جاوا الذي يحمل الجنسية الهولندية، وبين ورثته الستة القاطنين في قضاء تريم التابع لولاية صنعاء، وكيفية توزيع التركة عليهم بعد قدومهم إلى سورابايا أو قدوم وكيلهم خلال ثلاثين يومًا[6]. وكذلك العلاقة بين حكام الشحر وأمراء حيدر آباد في شبه

(1) الأرشيف العثماني، تصنيف A. M. 7 / 72

(2) الأرشيف العثماني، تصنيف DH. MKT. 1947 / 105

(3) الأرشيف العثماني، تصنيف MV. 70 / 44

(4) الأرشيف العثماني، تصنيف DH. MKT. 2016 / 76

(5) علمًا أن باسم هذا الرجل يذكر في بعض الوثائق "بن صالح أكسادي". الأرشيف العثماني، تصنيف HR. TO. 60 / 21

(6) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. MKT. 778 / 4

القارة الهندية[1]، والمعاملة السيئة التي رآها عوض بن رجب من القنصلية العثمانية في حيدر آباد[2]. كما تناولت بعض تلك الوثائق معلومات تفصيلية عن نشاط الحضارم في خارج بلدهم، ولاسيما في مكة المكرمة وجدة؛ إذ ذكر هذا التقرير الجدير بالترجمة والنشر والتحليل (وتاريخه: 5 ربيع الأول 1300هـ/ 14 يناير 1883م)، أن التجار الكبار فيهما من أهالي حضرموت الذين قدموا من الصغر إلى مكة المكرمة وجدة، وأنهم جمعوا أموالًا طائلة من الطرق المشروعة من خلال عرق جبينهم وتفانيهم في العمل الدؤوب، كما أورد مجالات أعمالهم المتنوعة، لكنه نقل شكواهم من الظلم والتعدي الواقع عليهم من القنصلية الإنجليزية في جدة بصورة خاصة، مشيرًا فيه إلى ضرورة تحرك الحكومة لوقف ذلك الظلم عنهم[3]. علمًا أن الوثائق التي تحدثت عن حادثة مقتل القناصل الأجانب في جدة (عام 1274هـ/ 1858م) تناولت العلاقة بين أعيان الحضارم في جدة وبين تلك الحادثة؛ إذ تعرض بعض منهم للإعدام والنفي والتشريد من البلد[4].

ومن الوثائق التي تناولت سفر بعض الرحالين الأجانب إلى حضرموت، ما أوردته (في 31 ديسمبر 1892م) عن لجنة علمية مشكلة من العساكر الإنجليزية

(1) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. MKT. 781 / 43
(2) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. TO. 329 / 116
(3) الأرشيف العثماني، تصنيف Y. PRK. UM. 5 / 59
(4) هناك وثائق كثيرة عن هذه الحادثة، يتيح للباحث تتبع بداية الحدث المتمثل في إنزال القنصل الإنجليزي العلم العثماني من سفينة يملكها حضرمي، ومرورًا بمقتل القنصل الإنجليزي والفرنسي وجرح القنصل الروسي، وانتهاء بفرض ضريبة على كل منزل من منازل جدة، ليتم دفعها لورثة المقتولين بعد قدوم السفن الحربية الإنجليزية والفرنسية إلى سواحل جدة. منها: الأرشيف العثماني، تصنيف I. MMS. 13 / 532 ومثل ذلك حادثة هجوم بعض من البدو للقنصل الإنجليزي والفرنسي والروسي في خارج سورها (عام 1312هـ/ 1895م). Y. MTV. 121 / 53.

والنمساوية، خرجت من إنجلترا وتوجهت إلى عدن وحضرموت، وقامت ببعض الأبحاث العلمية فيهما[1]. كما أفادت وثيقة أخرى أن توجه لجنة علمية مكونة من السويديين والنمساويين والإنجليز إلى حضرموت، لا يخلو من محاذير سياسية، مما دفع الداخلية العثمانية إلى إبلاغ وزارة الخارجية بالأمر؛ للقيام بما يلزم في هذا الخصوص[2]، ولاسيما تلك اللجنة التي توجهت إلى شرق حضرموت بحجة القيام بأعمال علمية وفنية (30 ديسمبر 1898م)[3]. وقد بينت الخارجية ملابسات الموضوع[4]، وأنه تم إبلاغ السفارة النمساوية بمحاذير ذلك[5]. كما أوردت وثيقة أخرى معلومات عن قيام الإنجليز بشراء بعض المنازل في حضرموت؛ بحجة وجود الآثار القديمة فيها[6]. وقد أفادت وثيقة ثالثة أن الإنجليز ينتهجون الأسلوب الذي مارسه الإيطاليون في السواحل الإفريقية، وأن أولئك الإنجليز يريدون الاستيلاء على المنطقة، مشيرة إلى ضرورة أخذ الحيطة والحذر من تصرفاتهم إزاء تملك الأراضي في حضرموت[7]، التي تبين من وثيقة أخرى (في 18 ذي الحجة 1316هـ/ 29 إبريل 1899م) أن تلك الأراضي اشتريت من قبيلة في منطقة البقا (؟)، بمبلغ قدره ستة آلاف ريال، وأن الهدف من ذلك توسع الإنجليز نحو وسط الجزيرة العربية[8].

(1) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. TH. 126 / 97
(2) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. ID. 2122 / 36
(3) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. ID. 2122 / 37
(4) الأرشيف العثماني، تصنيف Y. MTV. 185 / 58
(5) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. ŞFR. 3 481 / 1
(6) الأرشيف العثماني، تصنيف Y. PRK. UM. 45 / 105
(7) الأرشيف العثماني، تصنيف DH. ŞFR. 235 / 5
(8) الأرشيف العثماني، تصنيف DH. MKT. 2194 / 65

وقد أوردت بعض الوثائق معلومات مقتضبة عن تصدير بعض المنشورات والكتب الداعية إلى الثورة في اليمن من حضرموت، ما دفع السلطات العثمانية إلى الرقابة عليها؛ إذ أورد تقرير مكتوب باللغة الفرنسية (صادر في 4 نوفمبر 1892م) بيانًا مقتضبًا بها[1]، كما أوردت وثائق أخرى معلومات عن ضرورة قيام تلك السلطات بالحد من إدخال المنشورات والكتب من حضرموت إلى اليمن، ولاسيما تلك التي تنال من الخلافة الإسلامية المقدسة[2].

ومن الوثائق الهامة التي تناولت العلاقة بين حضرموت وجنوب شرق آسيا، وبصورة خاصة مع إندونيسيا: الوثائق التي تتحدث عن الخطوات التي تعمل بها القنصلية العثمانية في باتافيا بعد تعيين علي غالب فيها، في احتفاظ الحضارم والسادة منهم بصورة خاصة بالتابعية العثمانية فيها (19 شعبان 1300هـ/ 25 حزيران/ يونيو 1883م)[3]، وهل يقبل من حصل منهم على التابعية الهولندية بالاحتفاظ أيضًا بالتابعية العثمانية، أم تلغى عنهم الأخيرة؟[4]، وكذلك التقرير الذي قدمته القنصلية المذكورة إلى الباب العالي في إسطنبول فيما يخص ازدواجية الجنسية، والوضع الاجتماعي لهؤلاء الحضارم في باتافيا[5]، والمعاملة التي تجرى في حق من قدم من حضرموت إلى جزر جاوة وسومطرة وباتافيا؛ بغية تقديم الوعي الديني لحجاجها[6]، والطريقة المتبعة في قبول أولاد بعض الحضارم القادمين من جاوة في المدارس

(1) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. ŞFR. 3. 390 – 141
(2) الأرشيف العثماني، تصنيف BEO. 109 / 8112
(3) الأرشيف العثماني، تصنيف Y. PRK. EŞA. 3 / 60
(4) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. TO. 367 / 22
(5) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. HMŞ. İŞO. 174 / 5
(6) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. HMŞ. İŞO. 175 / 60

بإسطنبول، منهم على سبيل المثال: ولد السيد عبد الله عطاس، الذي لم يقبل في مدرسة العشائر بإسطنبول، وقُبل في المدرسة السلطانية بها (6 ذو الحجة 1312هـ/ 31 مايو 1895م)[1]، ومنح أربعة طلاب حضارم جوازات سفر عثمانية من القنصلية العثمانية في باتافيا؛ لإكمال دراستهم في إسطنبول، على الرغم من حملهم للجوازات الهولندية[2].

وقد تناولت الوثائق من جهة أخرى العلاقات بين القبائل في حضرموت وقبائل خارجها. من ذلك على سبيل المثال: شكوى الناس من تصرفات بعض القبائل والوالي في حضرموت (30 محرم 1298هـ/ 2 يناير 1881م)[3]، وتحركات قبائل العلقمي ضد لحج، وتدخلات الإنجليز في الموضوع (27 رجب 1306هـ/ 29 مارس 1889م)[4]، ومذكرة الخارجية العثمانية في الإجراءات التي ينبغي اتخاذها تجاه إصلاح القبائل في حضرموت وشرقي اليمن قبل توجه اللجنة الفنية إلى المنطقة (4 شعبان 1316هـ/ 18 ديسمبر 1898م)[5].. إلخ

وتمثيلًا لما ذكرته في عدم إدراج كل الوثائق المتعلقة بحضرموت في الفهارس الآلية: خطابات الشكوى المرسلة من حاكم المكلا عمر بن صلاح الكسادي[6] التي لم تظهر تحت اسم حضرموت، وقد بينت هذه الوثيقة مدى حاجته لما وصفه بالظلم الذي تعرض له؛ إذ طلب المساعدة من والي الحجاز؛ لرفع

(1) الأرشيف العثماني، تصنيف MF. MKT. 266 / 54Ç A. MTZ. (05) 5 / 161
(2) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. TH. 330 / 90
(3) الأرشيف العثماني، تصنيف Y. PRK. TKM. 4 / 6
(4) الأرشيف العثماني، تصنيف Y. MTV. 38 / 30. I. DH. 1130 / 88293
(5) الأرشيف العثماني، تصنيف YMTV. 185 / 10
(6) الأرشيف العثماني، تصنيف DH. MKT. 1947 / 105

ذلك عنه والوقوف معه، كما في خطابه العربي المرسل (في 16 جمادى الثانية 1298هـ/ 16 مايو 1881م) الذي أعلن فيه تبعيته للدولة العلية[1]. كما أوردت وثيقة أخرى المناوشات التي جرت بينه وبين حاكم الشحر "القعيطي" في الفترة ذاتها، فضلًا عن إيراد الخلافات التي نشبت بين الطرفين، وانعكست على مراسلات الباب العالي في إسطنبول، ونظرته إلى الموضوع، والتفصيلات التي أوردتها الوثائق في تلك المراسلات[2]؛ إذ تفيد المؤرخَ في تحديد تاريخ الأحداث بدقة، كما تعينه في توضيح بعض الملابسات الخاصة بالموضوع. مثل سبب الخلاف بين الطرفين وهو ثلاثمائة ألف ريال، ومحاولة السفير العثماني في لندن في التدخل في الموضوع؛ لتخفيف الضغط على حاكم المكلا[3]. .

ومن الوثائق التي لم تظهر ضمن وثائق حضرموت في فهارس الأرشيف، البرقية المشفرة التي بعثها والي اليمن أحمد فيضي باشا (في 26 محرم 1311هـ/ 9 أغسطس 1893م) المتضمنة معلومات عن رئيس قلعة بالحاف الواقعة بين المكلا وعدن: محسن بن صالح، الذي رغب في تقديم المساعدة له في تخليص أخويه من السجن بعد أن قدم إلى صنعاء؛ إذ لم يقدر الوالي إسعاف طلبه؛ كون السجن خارج أراضي النفوذ العثماني باليمن[4]. ومثل ذلك الوثائق التي تحدثت عن دخول حاكم المكلا في النفوذ الإنجليزي، والتحقيقات التي أجرتها ولاية اليمن في هذا الخصوص[5].

(1) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. SYS. 1909 / 57
(2) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. H. 115 / 17, HR. ŞFR. 3. 279 / 39, 285 / 23, 290 / 29,
(3) الأرشيف العثماني، تصنيف HR. H. 115 / 17
(4) الأرشيف العثماني، تصنيف DH. ŞFR. 172 / 106
(5) الأرشيف العثماني، تصنيف DH. MKT. 2597 / 17, 511 / 8

ويجدر بالباحث في نهاية هذا البحث الإشارة إلى وثائق طريفة عن حضرموت في الأرشيف، مثل الوثيقة التي تتحدث عن إهداء السلطان عبد الحميد الثاني لأهالي حضرموت من الأشراف وغيرهم مصاحف، كتب عليها شرط عدم انتقالها إلى بلد آخر[1].

الخاتمة

إن الوثائق التي تخص حضرموت في الأرشيف العثماني، تسهم في توضيح بعض الأحداث التاريخية للمنطقة، كما تبين موقف الدولة العثمانية من تلك الأحداث، والإجراءات التي قامت بها الإدارة العثمانية فيها. وتلك الوثائق وإن كانت تخص كل الفترة العثمانية، إلا أن ما يتعلق منها بالفترة الأخيرة من الوجود العثماني في اليمن، أكثر من غيرها. وهي في الوقت ذاته تقدم مجالًا للمقارنة بين المعلومات الواردة فيها والروايات المحلية للأحداث.

ومع وجود وثائق كثيرة – نسبيًا – عن حضرموت في الأرشيف العثماني وتنوّعها، إلا أن الأمر الهام للوصول إلى تلك الوثائق يكمن في كيفية البحث في النظام المتبع بالأرشيف، ومعرفة كيفية تنظيم فهارسه المتاحة في الوقت الراهن على الشبكة العالمية؛ لأن ذلك يختصر الطريق في الوصول إلى الوثائق المطلوبة، وضرورة إدخال الخيارات الأخرى فضلًا عن الكلمات المفتاحية الخاصة بالبحث.

وفيما يلي ببليوجرافية تقريبية حصرية عن حضرموت في الوثائق العثمانية. وهذا العمل وإن أخذ مني وقتًا وجهًا كبيرين، إلا أن ذلك يهون في سبيل تقديم المساعدة للباحثين. ومعرفة اسم التصنيف ورقمه كافيان لوصول الباحث إلى الوثيقة، وهي أهم خطوة في البحث بالأرشيف العثماني.

(1) الأرشيف العثماني، تصنيف Y. PRK. BŞK. 80 / 109

A. {DVNSMHM. d. 5/ 1699, 7/ 702, 53/ 235,
A. M. 6/ 82, 6/ 89, 6/ 91, 7/ 72, 9/ 3, 19/ 70
A. MKT. 10/ 79, 227/ 58, 228/ 13
A. MKT. MHM. 369/ 65, 394/ 70, 579/ 23,
A. MKT. MVL. 47/ 9,
A. MKT. NZD. 93/ 14,
A. MKT. UM. 2/ 92, 12/ 22, 78/ 3,
A. MTZ. 05. 5/ 161,
BEO. 15/ 1073, 38/ 2784, 38/ 2789, 62/ 4589, 79/ 5886, 109/ 8112, 334/ 25004, 371/ 27796, 499/ 37383, 606/ 45428, 793/ 59456, 887/ 66515, 1240/ 92943, 2273/ 170435,
DH. EUM. 7. ŞB. 1/ 54,
DH. EUM. 4. ŞB. 4/ 32, 5/ 24,
DH. MKT. 317/ 63, 511/ 8, 688/ 52, 1115/ 5, 1337/ 60, 1376/ 72, 1529/ 9, 1924/ 34, 1947/ 105, 1953/ 58, 1959/ 70, 1959/ 81, 1967/ 3, 1981/ 35, 2016/ 76, 2194/ 65, 2200/ 93, 2597/ 17,
DH. MUI. 63/ 42,
DH. SAİD. d. 48/ 397,
DH. ŞFR. 153/ 73, 153/ 88, 172/ 106, 235/ 5,
HAT. 521/ 25467, 1315/ 51271
HR. H. 115/ 17,
HR. HMŞ. İŞO. 174/ 5, 175/ 60,
HR. İD. 2122/ 36,
HR. SYS. 1881/ 16, 1909/ 54, 1909/ 57, 1956/ 71, 2106/ 22, 2941/ 9,

HR. ŞFR. 3. 279/ 39, 285/ 23, 290/ 29, 390/ 141, 481/ 1,

HR. TH. 39/ 79, 121/ 84, 122/ 49, 126/ 97, 231/ 7, 330/ 92, 356/ 51,

HR. TO. 60/ 20, 60/ 21, 247/ 53, 251/ 76, 252/ 18, 329/ 106, 329/ 108, 329/ 116, 367/ 22, 387/ 68,

İ. DH. 623/ 43305, 812/ 65563, 1130/ 88293, 1268/ 99680, 1268/ 99682, 1295/ 102066,

İ. HR. 279/ 17201,

İ. HUS. 30/ 117,

İ. MVL. 222/ 7484, 299/ 12194,

MAD. d. 9060,

MF. MKT. 266/ 54,

MV. 70/ 44, 71/ 11, 106/ 87, 123/ 1,

MVL. 242/ 18, 260/ 25, 340/ 26, 347/ 84,

ŞD. 309/ 18

Y. A. HUS. 256/ 94, 256/ 110, 274/ 95, 410/ 57

Y. A. RES. 75/ 22,

Y. EE. 5/ 18, 35/ 10,

Y. MTV. 38/ 30, 106/ 109, 128/ 73, 160/ 117, 161/ 4, 185/ 58, 238/ 94,

Y. PRK. A. 8/ 12,

Y. PRK. ASK. 182/ 99,

Y. PRK. AZJ. 17/ 95, 25/ 97, 31/ 17, 35/ 95, 47/ 53, 51/ 53, 53/ 17,

Y. PRK. BŞK. 18/ 12, 18/ 14,

Y. PRK. EŞA. 3/ 60, 45/ 51,

Y. PRK. HR. 6/ 7,

Y. PRK. KOM. 3/ 55

Y. PRK. SGE. 4/ 32,

Y. PRK. TKM. 4/ 6,

Y. PRK. UM. 4/ 56, 5/ 1, 5/ 59, 5/ 82, 5/ 100, 44/ 5, 44/ 82, 45/ 105,



نماذج من الوثائق

خطاب نقيب السادة في مكة المكرمة إسحاق بن عقيل إلى والي الحجاز حسيب باشا بتنبيه الضباط والعساكر الذين يقدمون إلى حضرموت بألا يقوموا بعمل ضد الناس. الأرشيف العثماني، تصنيف 79 /10 .A. MKT



خطاب نقيب السادة في مكة المكرمة إسحاق بن عقيل إلى والي الحجاز حسيب باشا بإرسال المزيد من العساكر للاستيلاء على المكلا والشحر.
الأرشيف العثماني، تصنيف 82 /6 A. M.


A.M 6/89

A.}M.00006.00089.001

خطاب نقيب السادة في مكة المكرمة إسحاق بن عقيل إلى ابنه محمد، بعدم وصول العساكر حتى الآن إلى حضرموت.

الأرشيف العثماني، تصنيف A. M. 6/ 89

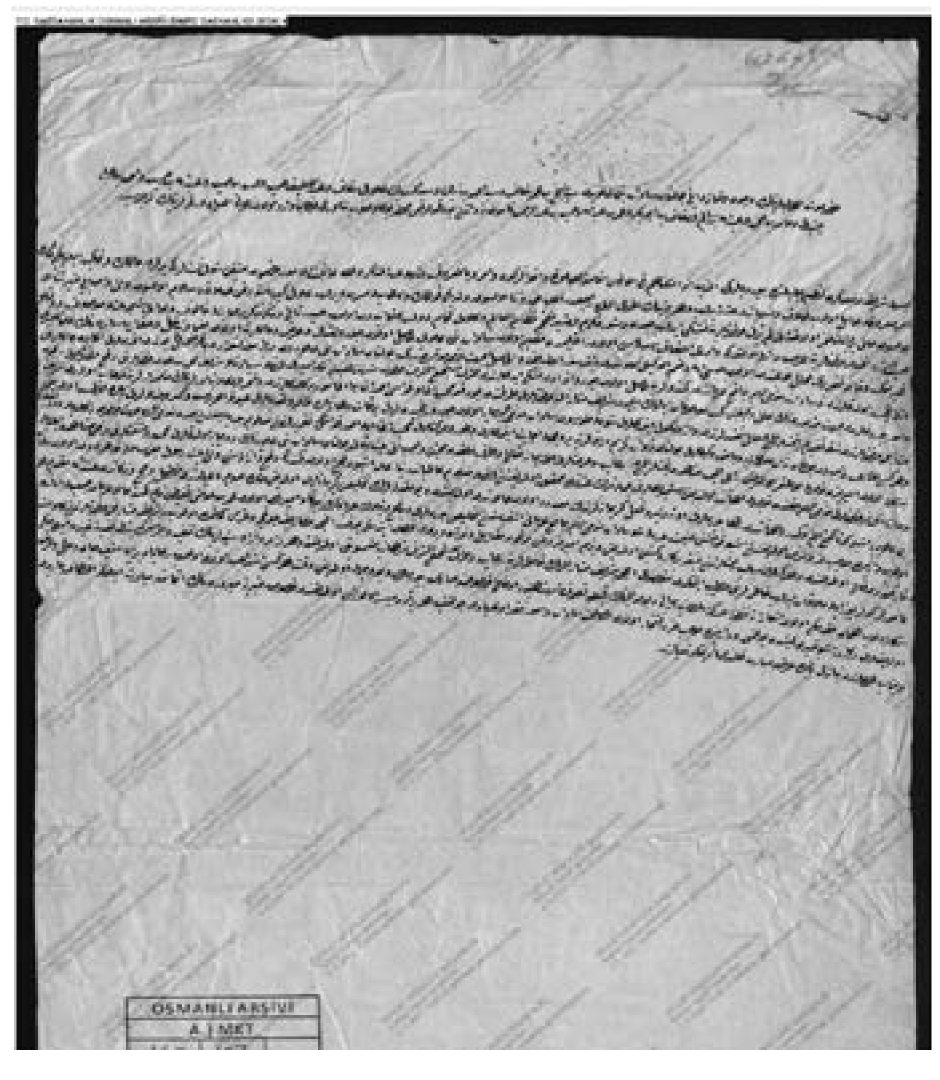


المحضر العربي المرسل من أهالي حضرموت إلى والي جدة حسيب باشا بإرسال العساكر إلى حضرموت للقضاء على المفسدين في ميناءي المكلا والشحر. الأرشيف العثماني، تصنيف 72 /7 .A. M

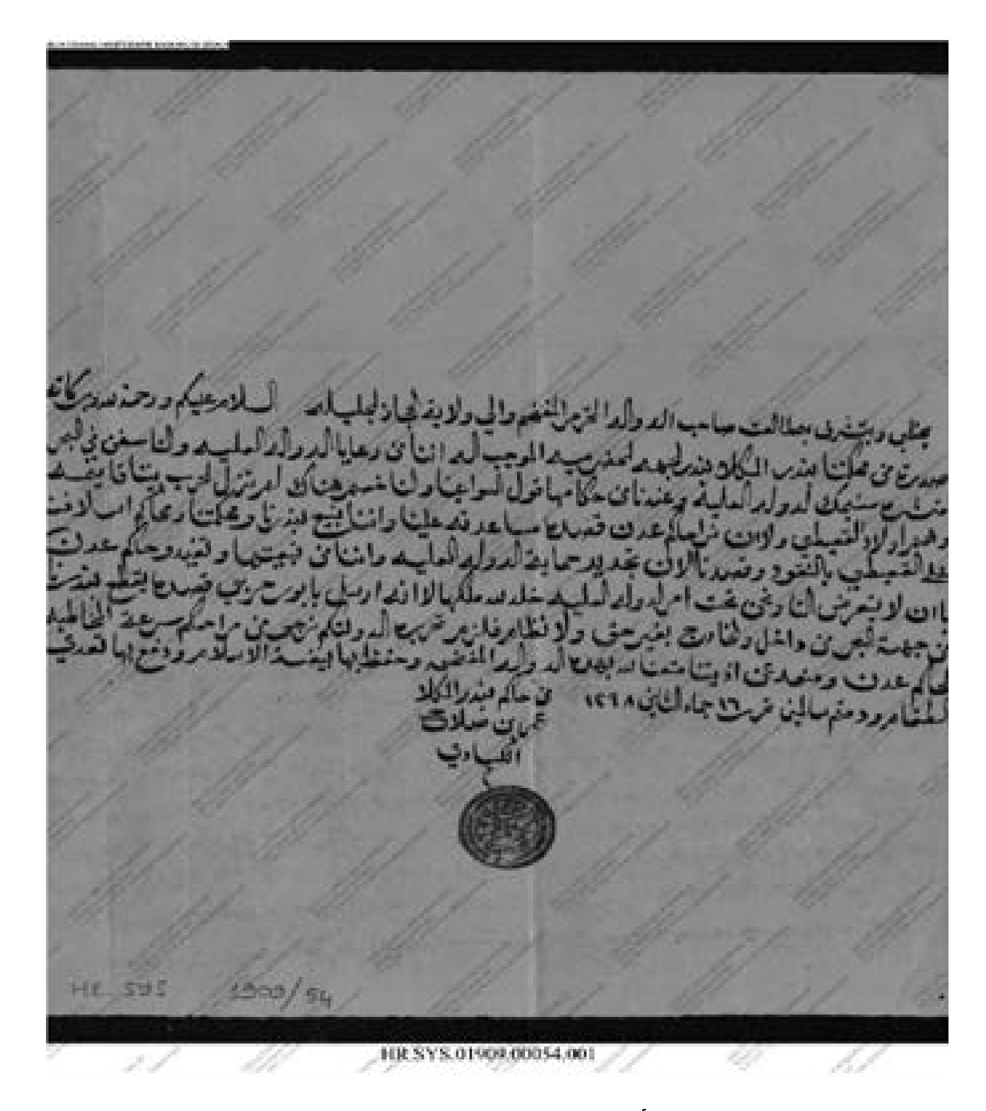


A.|M.00009.00003.001

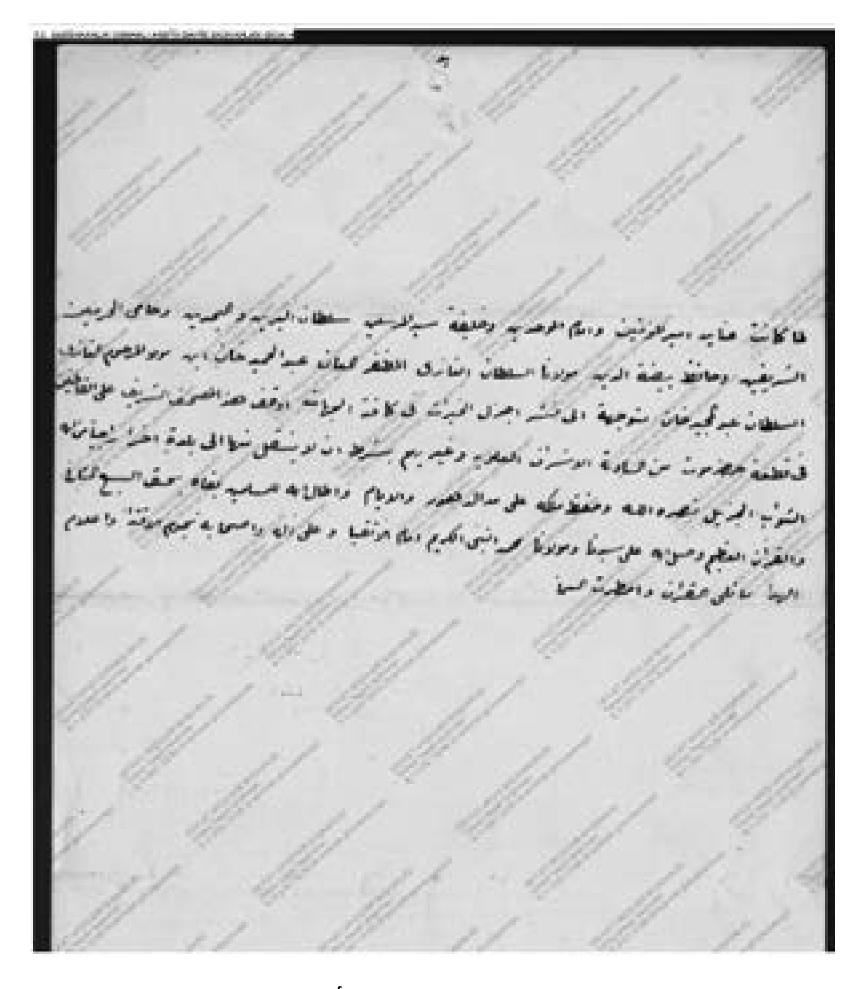
تقرير نقيب السادة في مكة المكرمة إسحاق بن عقيل إلى والي الحجاز حسيب باشا بما جرى في حضرموت منذ قدومه من الحجاز. الأرشيف العثماني، تصنيف A. M. 9/ 3



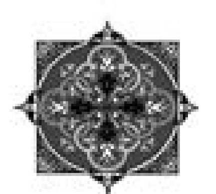
المحضر المترجم المقدم من أهالي حضرموت الأشراف بإرسال العساكر لتخليصهم من المفسدين. الأرشيف العثماني، تصنيف 103 /160 .A. MKT



الخطاب العربي الذي أرسله عمر بن صلاح الكسادي إلى والي الحجاز.
الأرشيف العثماني، تصنيف 54 /1909 HR. SYS.



النص العربي المسجل على المصاحف التي أهداها السلطان عبد الحميد الثاني لأهالي حضرموت بشرط عدم إخراجها منه. الأرشيف العثماني، تصنيف



وسائل التوعية وأساليبها في الحفاظ على المواقع والمعالم الأثرية في محافظة مأرب بالجمهورية اليمنية من وجهة نظر أبناء المحافظة والمحافظات المجاورة

د. علي بن مبارك صالح طعيمان[1]

ملخص:

تزخر محافظة مأرب في وسط الجمهورية اليمنية بالعديد من المواقع والمعالم الأثرية الهامة التي شكلت دورا كبيرا في تاريخ الجزيرة العربية بشكل عام، وفي جنوبها على وجه الخصوص، وقد تعرضت أجزاء من تلك المواقع والمعالم الأثرية للعبث والتخريب مُنذ بداية خمسينيات القرن الماضي، حتى جاء نظام الدولة ووضع عددا من القوانين والمواد الرادعة حيال ذلك، وقام بمحاسبة من يقوم بالاعتداء عليها، إلا أن غياب الدولة قد شكّل بيئة خصبة لقيام العديد من أعمال النهب والتخريب والدمار لمواد بنائها، وهو ما يتطلب وجود عدد من الوسائل والأساليب التي من الضرورة مشاركة المجتمع المحلي بها وتوعيته، لما لها من دور كبير في التخفيف عن مثل هذه العمليات.

(1) أستاذ الآثار والعمارة القديمة المساعد، جامعة حائل، قسم السياحة والآثار - جامعة إقليم سبأ، قسم الآثار والسياحة - مأرب (اليمن).

اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي الوصفي، وقام الباحث بإجراء الدراسة في الفترة من 21/ 6/ 2020م إلى الفترة 20/ 8/ 2020م ممثلة في وضع استبانات تشتمل على 20 عبارة لقياس اتجاهات أبناء محافظة مأرب وساكنيها وبعض من أبناء المحافظات المجاورة، في الأساليب والطرق المناسبة لغرض الحفاظ على الآثار وحمايتها والاهتمام بها، وقد وزع المقياس على عدد 255 فردًا من عينات المجتمعات المحلية، وممن يحملون مؤهلات علمية مختلفة كالآثاريين والمعماريين والمؤرخين والمتخصصين والهواة، وأعمار متفاوتة. توصلت الدراسة إلى نتائج توضح مدى وعي المجتمع المحلي الذي شملتهم عينات الدراسة، وأشارت إلى عملية التوافق على بعض من المعلومات الرئيسة التي من الواجب القيام بها من قبل المجتمع المحلي كأفراد وواجب الدولة ممثلة بمكاتب الآثار وفروعها والسلطة المحلية والأمنية، كما توصلت الدراسة إلى معرفة وعي الجيل الحديث بأهمية الآثار من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

Abstract:

Marib Governorate in the center of the Republic of Yemen is rich with many important archaeological sites and monuments that played a major role in the history of the Arabian Peninsula in general, and in its south in particular. A number of deterrent laws and materials have been put in place in this regard, and those who attack them are held accountable, but the absence of the state has formed a fertile environment for many acts of looting, sabotage and destruction of building materials, which requires the presence of a number of means and methods that it is necessary to participate in and raise awareness of the local community, because It has a great role in alleviating such operations.

The study relied on the descriptive analytical method, and the researcher conducted the study from 21. 06. 2020 to 20. 8. 2020 represented by developing questionnaires that include 20 phrases to measure the attitudes of the people of Marib Governorate and its residents and some of the people of the neighboring governorates, in the appropriate methods and methods. For the purpose of preserving, protecting and caring for antiquities, the scale was distributed to 255 individuals from local community samples, who dream of different academic qualifications, and of varying ages. The study reached results that show the extent of awareness of the local community included in the study samples, and indicated the process of agreeing on some of the main information that must be carried out by the local community as individuals and the duty of the state represented by antiquities offices and its branches and the local and security authority, as the study found to know the awareness of the generation Talk about the importance of antiquities from the social, economic and cultural aspects.

مقدمة:

تضم محافظة مأرب العديد من المواقع والمعالم الأثرية القديمة، و تعد الآثار المعمارية الشاخصة للعيان في المحافظة من بين أضخم الآثار القديمة في الجمهورية اليمنية، حيث إن فيها عاصمة مملكة سبأ مدينة مأرب القديمة، وفيها أكبر المعابد وأهمها في الجزيرة العربية (معبد أوام)، وهو أكبر حرم مقدس لدى العرب قبل الإسلام، و (معبد برآن) الذي تمثل أعمدته أطول أعمدة معمارية في اليمن، فضلًا عن بقايا معالم سد مأرب القديم، الذي كان يغذي الأراضي الزراعية في محافظة مأرب؛ ولما للآثار من أهمية بالغة في تعزيز الهوية الوطنية

لدى الشعوب، وما تمد به من موارد مالية تسهم في زيادة الدخل القومي للبلاد تركزت دراستنا حول حماية المواقع وسلامتها من وجهة نظر أبناء محافظة مأرب ومن يسكن فيها من أبناء المحافظات المجاورة.

ولما تمر به اليمن في هذه المرحلة[1] عمل الباحث على هذه الدراسة لمعرفة مدى وعي المجتمع المحلي بأهمية الآثار والحفاظ عليها، والتعرف على من يقع على عاتقه الحماية الأمنية من وجهة نظر أبناء محافظة مأرب؛ ومع كثرة استخدام وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة أردنا التعرف على مدى أهمية تفعيل تلك الوسائل في التوعية المحلية والحد من العبث بالآثار والتعريف بأهميتها، فضلًا عن تعميق مفهوم الهوية الوطنية التي تمتد جذورها لآلاف السنين، ومما سيزيد من تعميق التأصيل اليمني إلى أزمنة ضاربة في أعماق التاريخ.

تمثل تلك الآثار دلائل مادية يستدل بها على العمق الحضاري الذي نفخر ونفاخر به كيمنيين، وبما أن مثل هذه الدراسات تبين مدى الدور الذي يقوم به المجتمع في الحد من العبث بالآثار، سواء من حيث الحفر العشوائي، أم من حيث معالجة الأفكار المغلوطة لدى عامة الناس، والقائمة على هوس الكنوز في البحث عن مواقع الآثار وتخريبها، ومدى تفعيل الطُرق المُثلى في الحفاظ عليها بشكل يضمن لها مكانتها التاريخية وديمومة بقاء معالمها المعمارية، وبقائها يعني الحفاظ على هوية وتاريخ وتراث الشعب اليمني.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدارسة من أهمية الموضوع، من حيث تفعيل وسائل الوعي وأساليبه في الحفاظ على المواقع والمعالم الأثرية التي تعد أحد أبرز أعمدة

(1) المرحلة الحالية يقصد بها مرحلة (الحرب)، والتي بدأت منذ عام (2015م حتى الآن) أي كتابة هذه الدراسة.

الثروة المستدامة التي لا تنضب، مع المقارنة بغيرها من موارد الدخل القومي للبلاد، ولهذا استندت الدراسة على العديد من الركائز الهامة في معرفة الأساليب والطرق الصحيحة في الحفاظ على المواقع الأثرية من وجهة نظر أبناء المحافظة وغيرهم من أبناء المحافظات المجاورة، فضلًا عن ذلك فإن أهم ما دفع الباحث لهذه الدراسة هي نُدرة الدراسات العلمية بهذا الجانب في اليمن بشكل عام وفي محافظة مأرب على وجه الخصوص.

أهداف الدراسة:

قام الباحث بإجراء هذه الدراسة لغرض التوصل إلى الأهداف الآتية:

1. إبراز دور المجتمع المحلي في اتخاذ الطرق والأساليب في الحفاظ على الآثار بشكل عام.
2. التعرف على وسائل التواصل الاجتماعي البارزة التي تؤدي الدور الكبير في توعية المجتمعات المحلية.
3. التعرف على الجهة التي ستعمل على حماية المواقع الأثرية في ظل الظروف التي يمر بها البلاد.
4. التوصل إلى توعية الناس في مدى خطورة البحث عن الكنوز الوهمية في المواقع الأُثرية.

مشكلة الدراسة:

نظرًا لأهمية التعرف على الطرق والأساليب في الحفاظ على الآثار من وجهة نظر أبناء محافظة مأرب وغيرهم، إلا أن هناك مشكلة أساسية تمثلت في الآتي:

- متغيرات الإجابة على معلومات الدراسة مما يعكس استصعاب تحليلها.
- اختلاف الرأي في اتجاهات عينة الدراسة من حيث حماية المواقع الأثرية.

علاوة على ذلك نُدرة الدراسات العلمية التي تناولت هذه الجوانب الهامة في اليمن بشكل عام وفي مأرب على وجه الخصوص.

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي وهو المنهج المتبع في مثل هذه الدراسات، والذي من خلاله توصل الباحث لجمع المعلومات والبيانات المطلوبة، والتي تمثلت في حصر وجهات نظر عينة الدراسة (المجتمع المحلي) من حيث الوسائل والأساليب الأساسية التي يعتمد عليها في حماية المواقع الأثرية بمحافظة مأرب وتحليل تلك النتائج من خلال قياس توجهات العينات المختلفة التي تنتمي لمديريات محافظة مأرب وخارج محافظة مأرب وشملت 255 فردًا متفاوتين في المستويات العلمية والجنس ومديريات الانتماء.

نطاق الدراسة الجغرافي:

اقتصرت الدارسة على استهداف عينات من أبناء محافظة مأرب وبعض من أبناء المناطق المجاورة لمحافظة مأرب، فضلًا عن عدد من وجهات النظر لمن يسكن مأرب من المحافظات اليمنية الأخرى. وبلا شك فإن المواقع والمعالم الأثرية في محافظة مأرب ما هي إلا نموذج لجميع الآثار في محافظات الجمهورية اليمنية.

أداة الدراسة:

- الاستبانات (الإلكترونية).
- المقابلات الشخصية.
- قياس وتحليل طرق وأساليب الحفاظ على المواقع والمعالم الأثرية في محافظة مأرب.

عناصر الدراسة

أولًا – مفاهيم الآثار ودورها:

تمثل الآثار المادية خير شاهد على استيطان وتعاقب الحضارات في أي مكان وبأي زمان، وبهذا فإن الآثار التي تقع في النطاق الجغرافي لمحافظة مأرب تمثل الدور الأبرز والأكثر تركيزًا على مستوى المحافظات اليمنية بشكل عام، وهذا لا يعني التقليل من مواقع ومعالم الآثار في المحافظات اليمنية الأخرى، بل من حيث تواجد النسبة الكبيرة من الشواهد الأثرية الضخمة ذات المعالم المعمارية والنقوش الكتابية والفنية؛ حيث تركزت الحضارة اليمنية القديمة في المناطق الشرقية من اليمن القديم وقد برزت فيها مملكة سبأ بجميع مراحلها الزمنية مُنذ بداية الألف الأول قبل الميلاد حتى القرن السادس الميلادي.

علاوة على ذلك فهناك العديد من المعالم الأثرية التي تعود لممالك عربية قديمة، منها المناطق الشمالية من محافظة مأرب ومن أبرزها مدينة براقش (يثل)[1] قديمًا التي كانت تمثل أحد المدن الأثرية القديمة والتي تعود لحضارة مملكة (معين)، وكذلك العديد من المعالم الأثرية التي تقع في الجزء الجنوبي من محافظة مأرب وهي المراكز الحضارية مثل: (العادي – (مريمة قديمًا) و(حنو الزرير)، وغيرها من المعالم الأثرية التي تعود لحضارة مملكة قتبان وتتبع مناطقها إداريًا لمحافظة مأرب.

ومما سبق في التوضيح حول المعالم الأثرية والحضارية التي تقع في النطاق الإداري لمحافظة مأرب تبين أن مأرب كانت تمارس فيها قديمًا جميع النشاطات

(1) يثل: تقع مدينة يثل القديمة في وادي الخارد (مجزر) وتعرف حاليًا بمدينة (براقش)، وهي من بين أهم مدن مملكة معين بعد العاصمة (قرناو) للمزيد انظر (دي ميغرية، اليساندرو (1999م): يثل في كتاب: اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة/ بدر الدين عرودكي، مراجعة/ يوسف محمد عبدالله، (باريس: معهد العالم العربي، دمشق: دار الأهالي) ص 138 – 139.

الحضارية (الدينية – السياسية – الاجتماعية – الاقتصادية – الفنية). وهذا التفاعل الحضاري في المنطقة بجميع جوانبه يمثل دورًا أساسيًا في التفاعل الفكري والمعنوي بين المجتمع القديم، نتج عنه ثروة تاريخية حضارية مادية شاهدة على الرقي الحضاري لتلك الممالك اليمنية القديمة التي قامت في مأرب.

الدور الحضاري والتاريخي للمواقع والمعالم الأثرية في محافظة مأرب:

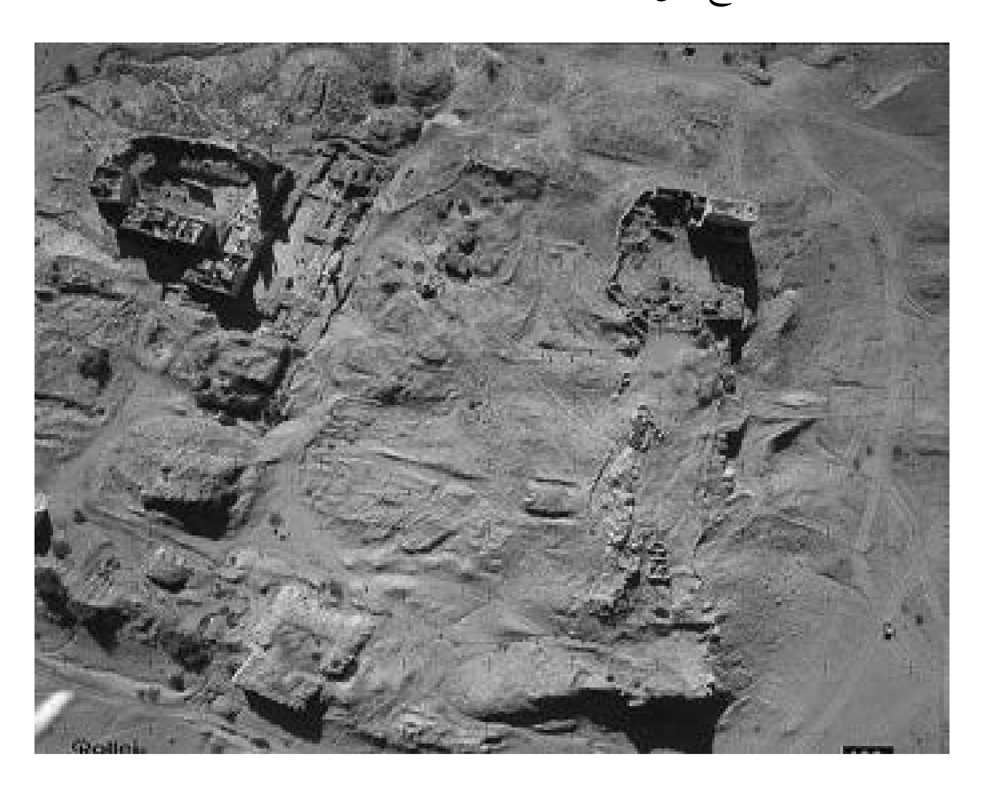
تمثل المواقع والمعالم الأثرية في محافظة مأرب الفترات الزمنية المتعاقبة منذ بداية الاستقرار الحضاري، وما قبل تأسيس المدن والمعابد، حيث بدأت أولى المراكز الحضارية في الواحات الصحراوية في العصور الحجرية، وفي المناطق الغربية من مأرب التي تعود شواهدها الأثرية إلى مرحلة العصور البرونزية، التي سبقت عصر الممالك اليمنية القديمة (سبأ – معين – قتبان – أوسان – حضرموت – حمير) وكل هذه الممالك قد برزت على أراضي متفرقة في جنوب الجزيرة العربية بشكل عام، حيث كانت مملكة سبأ هي المملكة التي اتخذت من مدينة صرواح ومأرب مراكز حضارية لها وشيدت فيها المعابد[1].

كانت مدينة صرواح القديمة أحد المدن التي ظهرت فيها الكتابات والعمارة منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد، التي قامت عليها الحضارة السبئية، وتحوي المدينة المنشآت المعمارية الضخمة[2]، والنقوش الكتابية التي تعد من بين

(1) عبد الله، يوسف محمد، (1990م): أوراق في تاريخ اليمن القديم وآثاره بحوث ومقالات، الطبعة الثانية، (لبنان: بيروت، دار الفكر). ص 189.

(2) طعيمان، علي بن مبارك بن صالح، (2018م): أنظمة الري القديمة في واحة صرواح وما حولها مُنذ الألف الأول قبل الميلاد حتى القرن السادس الميلادي، أطروحة دكتوراه غير منشورة – قسم الآثار – كلية السياحة والآثار – جامعة الملك سعود، ص5.

أطول وأهم النقوش في الجزيرة العربية ومنها نقش النصر الكبير، الموسوم بـ GL1000 =3945 (RES) الذي يعود تاريخه إلى عهد المكرب السبئي (كرب إل وتر) القرن السابع قبل الميلاد[1].



لوحة: 1 مدينة صرواح القديمة
نقلًا عن أرشيف المعهد الألماني للآثار - DAI - 2006م

وكذلك النقش الموسوم بـ(sirwah – 2005-50) (صرواح)، والمعروف بنقش الملك (يثع أمر وتر) الذي كشفت عنه بعثة المعهد الألماني للآثار في

(1) بافقيه، محمد عبدالقادر، وآخرون، (1985م) مختارات من النقوش اليمنية القديمة، (تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وزارة الثقافة)، ص57.

اليمن (DAI) التي نفذت حفريات في مدينة صرواح القديمة عام 2005م[1].

تعد صرواح القديمة المدينة والحاضرة الأولى لمملكة سبأ في العصر السبئي القديم (الأول)، وهي المدينة التي كان اتخذها مكاربة مملكة سبأ عاصمة لهم[2]، وفيما بعد بقيت مدينة صرواح القديمة أحد الحواضر والمدن خلال العصر السبئي المعروف بعصر (ملوك سبا)[3]. إلا أنها ليست العاصمة. صرواح القديمة، وقد وصفت صرواح بأنها العاصمة الدينية لمملكة سبأ، وأنها كانت مدينة تُزاهي مدينة مأرب، وقد اهتم بموقعها الجغرافي المُمَيز المرتفع بين الجبال[4].

(1) Arbach, Mounir. (2014): Yata ''amar Watār fils de Yakrubmalik, mukarrib de Saba'et le synchronisme sabéo-assyrien sous Sargon II (722-705 av. J.-C.). Semitica et Classica, (7), PP, 66 -

(2) Al - Garoo, A. S. 1989: Historic Review of Spate Irrigation and its effect on agricultural development. In Subregional Expert Consultation on Wadi Development for Agriculture in the Natural Yemen, Aden (Yemen, D.), 6 - 10 Dec 1987. PP 36. الإرياني، مطهر علي (1990)L نقوش مسنديه وتعليقات، الطبعة الثانية، (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمنية). ص 185.

(3) طعيمان، علي بن مبارك صالح (2014) م: مصائد الوعول في مدينة صرواح القديمة وما حولها (دراسة أثرية معمارية)، رسالة ماجستير غير منشورة (قسم الآثار - كلية السياحة والآثار - جامعة الملك سعود). ص 4.

(4) Pietsch، D.، Schenk، K.، Japp، S.، & Schnelle، M. (2013). Standardised recording of sediments in the excavation of the Sabaean town of Sirwah، Yemen. Journal of archaeological science، 40 (5)، 2430 – 2445.





لوحة - 2 معبد أوعال صرواح، نقلًا عن أرشيف المعهد الألماني للآثار - DAI - 2006م

تمثل مدينة مأرب القديمة العاصمة والمدينة الكبيرة لمملكة سبأ التي لم يتم الكشف عنها بشكل كلي حتى اليوم، سوى بعض من المسوحات الأثرية التي أجريت حول المدينة وداخلها، ومجسات علمية بداخل أسوار المدينة القديمة. وتعد مدينة مأرب القديمة العاصمة السياسية لمملكة سبأ، وهي ورد ذكرها في النقوش بتسميات مثل: (مريب) (مرب)[1]، وتحتل مدينة مأرب موقعا جغرافيا متميزا يقع على تلٍ مرتفع على الضفة الشمالية لوادي أذنة[2]، وتقع

(1) CIH 3717. GI – 1717 – 1718 1719. RES 4370

(2) هو الوادي الذي يقسم واحة مأرب إلى قسمين مشكلة واحتين: شمالية سميت باسم (أبين) وجنوبية سميت باسم (يسرن) وتقدر المساحة العامة لهما حوالي 5700 هكتار وهي أراضٍ كانت مستغلة للزراعة بفعل نظام ري سد مأرب القديم. للمزيد انظر (فوكت، بوركهاد؛، (1999)م: مأرب عاصمة سبأ، في كتاب: اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة/ بدر الدين عرودكي، مراجعة/ يوسف محمد عبد الله، (باريس: معهد العالم العربي، دمشق: دار الأهالي) 107 – 109.

على الأراضي المطلة على رملة السبعتين (صيهد) من الناحية الشرقية، علاوة على ذلك أنها قريبة من الأراضي الجبلية، وقد كفل لها موقعها الاستراتيجي مرور طرق التجارة العالمية القديمة، والقادمة من الموانئ الشرقية والجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية[1].



لوحة 3 - معالم مدينة مأرب القديمة عاصمة مملكة سبأ
نقلًا عن أرشيف فريق إعداد مواقع مأرب تراث عالمي (اليونسكو) 2021.

ومن بين المعالم الأثرية في محافظة مأرب سد مأرب القديم الذي يعد أهم منجزات الري في الجزيرة العربية، حيث يقع السد في أضيق نقطة بين الجبيلين (جبل البلق القبلي – الشمالي) و (جبل البلق الجنوبي – الأوسط). ويقوم بحجز

(1) مرقطن، محمد حسين، (2008)م: العاصمة السبئية مأرب: دراسة في تاريخها وبُنيتها الإدارية والاجتماعية في ضوء النقوش السبئية، في كتاب المدينة في الوطن العربي في ضوء الاكتشافات الآثارية: النشأة والتطور، الطبعة الأولى، مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيري، ص108 – 109..

مياه الأمطار المتدفقة بسرعة عالية من أعالي الجبال الجنوبية والجنوبية الغربية من مأرب، ويعرف بميزاب اليمن الشرقي.

ويمثل السد في بدايته حاجزا بسيطا من التربة والأحجار التي كانت توضع في بداية الأمر للتقليل من سرعة تدفق المياه في الوادي وتفادي تدمير الحقول الزراعية القريبة من الوادي، علاوة على ذلك تقام تلك التحويلات لغرض تحويل جزء من مياه الوادي إلى مواقع الحقول الزراعية للانتفاع بها في ري محاصيل تلك الحقول. وتطور بناء السد حتى أصبح يمثل عمارة ضخمة تقوم بوظيفة حجز الوادي كاملًا، حيث يبلغ طول حاجز السد 650م، ويصل سمكه 20م، وارتفاع بناء الحاجز المعماري 15م تقريبًا، بناءً على ما تبقى من عمارة المصرفين الشمالي والجنوبي[1].

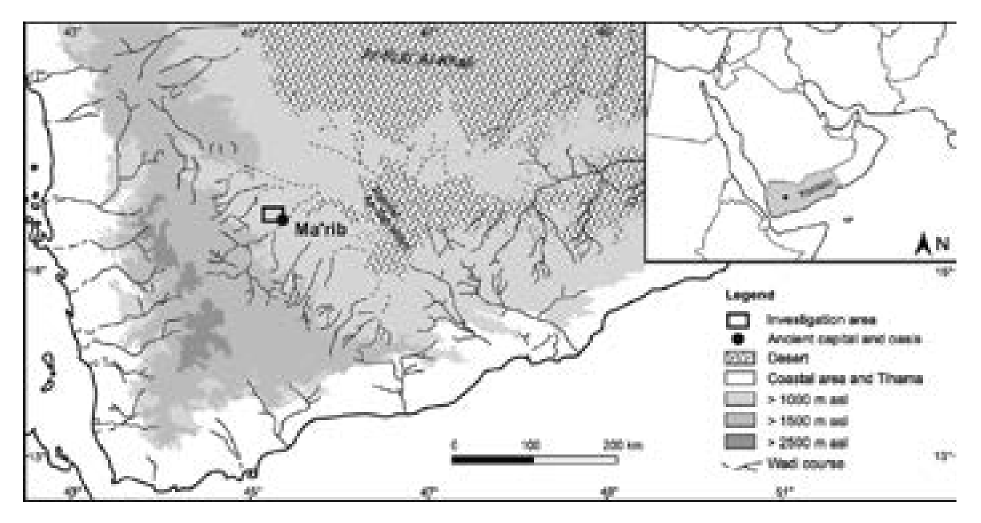
(1) للمزيد انظر: فخري، أحمد، (1988): رحلة أثرية إلى اليمن، ترجمة/ هنري رياض، مراجعة/ عبد الحليم نور الدين، الطبعة الأولى، (الجمهورية العربية اليمنية: وزارة الإعلام والثقافة). طعيمان، علي بن مبارك بن صالح، (2017)م: سد مأرب القديم: دراسة حالة، سلسلة مداولات علمية محكمة للقاء العلمي السنوي لجمعية دول مجلس التعاون الخليجي عبر العصور – 17. المنعقد في مملكة البحرين – المنامة في 28 رجب في 1437هـ – 27 أبريل – 2016م، ص 47 – 72.





لوحة - 4 سد مأرب القديم المصرفين الشمالي والجنوبي.
نقلًا عن أرشيف فريق إعداد مواقع مأرب تراث عالمي (اليونسكو) - 2021م

وأصبح السد عبر هذين المصرفين يعمل على تحويل كميات المياه عبر قنوات رئيسة وفرعية لري الأراضي الزراعية حول المصرفين الشمالي والجنوبي، وقد أمكن حساب الزمن الذي ظل السد يعمل فيه بكفاءة عالية والتي تقدر بحوالي 2500 سنة من خلال دراسة الإرسابات الطمئية التي تبين أن معدل الترسيب السنوي لها كان بمقدار 1.1 سم في السنة[1].



(خريطة: 1) موقع مدينة مأرب القديمة نقلًا عن (Pietsch، et al. 2010: 786).

ومن بين المواقع الأثرية الهامة في محافظة مأرب هو معبد أوام الذي يعد من

(1) - Brunner، U. (1983): Die Erforschung der antiken Oase von Mârib mit Hilfe geomorphologischer Untersuchungs methoden، ABADY II. pp 106.
برونر، أولي، (1999)م: بدايات الري، في كتاب: اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة/ بدر الدين عرودكي، مراجعة/ يوسف محمد عبد الله، (باريس: معهد العالم العربي، دمشق: دار الأهالي) ص 53 – 54؛ طعيمان، علي بن مبارك بن صالح، (2017)م أ: سد مأرب القديم: دراسة حالة، سلسلة مداولات علمية محكمة للقاء العلمي السنوي لجمعية دول مجلس التعاون الخليجي عبر العصور – 17. المنعقد في مملكة البحرين – المنامة في 28 رجب في 1437هـ – 27 أبريل – 2016م، ص 47 – 72.

بين أهم وأكبر المعابد الأثرية في الجزيرة العربية[1]، و يمثل أحد الصروح الدينية التي برزت في مملكة سبأ، ويقع معبد أوام على بعد 4 كم – 3. 5 كم إلى الجهة الجنوبية من مدينة مأرب القديمة عاصمة مملكة سبأ[2].



لوحة - 5 صورة جوية لمعبد أوام.

ويمثل الموقع الجغرافي الذي يقع فيه معبد أوام من بين المواقع المقدسة لدى السبئيين قبل بناء المعبد، وقد سمي (أوام)، وأن (أو) هو اسم فاعل للفعل (أوى)

(1) فوكت، بوركهاد؛ غلازيمان، وليام (1999)م: معابد مأرب، في كتاب: اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة/ بدر الدين عرودكي، مراجعة/ يوسف محمد عبد الله، (باريس: معهد العالم العربي، دمشق: دار الأهالي) 130 – 149.

(2) فخري، أحمد، (1988)م: رحلة أثرية إلى اليمن، ترجمة/ هنري رياض، مراجعة/ عبد الحليم نور الدين، الطبعة الأولى، (الجمهورية العربية اليمنية: وزارة الإعلام والثقافة). ص 119.

de Maigret، Alessandro: (2002); Arabia Felix: An Exploration of the Archaeological History of Yemen. Translated by Rebecca Thompson. .Stacey International، London

بمعنى أنه عبارة عن مكان ملجأ أو مُعيذ، ومنه تأتي الألفاظ المأوى والإيواء[1].



لوحة: 6 معبد أوام - بهو الأعمدة
نقلًا عن أرشيف فريق إعداد مواقع مأرب تراث عالمي (اليونسكو) 2021.

وأصبح المكان الذي يحيط بالمعبد هو الملجأ للإنسان والحمى الذي يتقرب به إلى الإله دون أي علاقة إدارية وسياسية أو جغرافية لاختيار المكان[2]. ويعود تاريخ بناء المعبد إلى الألفية الأولى قبل الميلاد، بناء على النقوش الكتابية التي عثرت عليها البعثة الأمريكية التي عملت في المعبد، لفترات مختلفة وبالتحديد في النقوش الموسوم بـ GL484=MB2001I - 16[3].

(1) عبد الله، يوسف محمد (1990)م: أوراق في تاريخ اليمن القديم وآثاره، بحوث ومقالات، الطبعة الثانية، (لبنان: بيروت، دار الفكر). ص 49.

(2) Maraqten، Mohammed، (2015): Sacred spaces in ancient Yemen – The Awām Temple، Ma'rib، Pre – Islamic South Arabia and its neighbours: new developments of research، Proceedings of the 17th Rencontres Sabéennes held in Paris، 6 – 8 June 2013. pp 108.

(3) Zaydoon، Zaid& Mohammed Maraqten: (2008)" The Peristyle Hall: remarks on the history of construction based on recent archaeological and epigraphic evidence of the AFSM expedition to the Awām temple in Mārib، Yemen. Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 38، pp. 328 – 331.

ويأتي دور معبد برآن الصرح المعماري الديني الهام، الذي يقع في وسط واحة مأرب، وهو أحد أهم المعابد السبئية القديمة الواقعة خارج المدن.



لوحة 7 - معبد برآن - صورة جوية
أرشيف فريق إعداد مواقع مأرب تراث عالمي (اليونسكو) 2021.

ويقع على بعد 3 كم إلى الجهة الجنوبية من مدينة مأرب القديمة، وعلى الضفة الجنوبية من وادي ذنة[1]، وعلى بعد 1 كم من الجهة الشمالية من معبد أوام[2]. ويمثل المعبد استمرارية استخدامه في العبادة الوثنية من فترة الألف الأول قبل الميلاد حتى القرون الميلادية الأولى، وأدت تلك الاستمرارية في استخدام المعبد إلى تجديدات كانت تتم بين فترة وأخرى في جميع عناصر المعبد المعمارية.

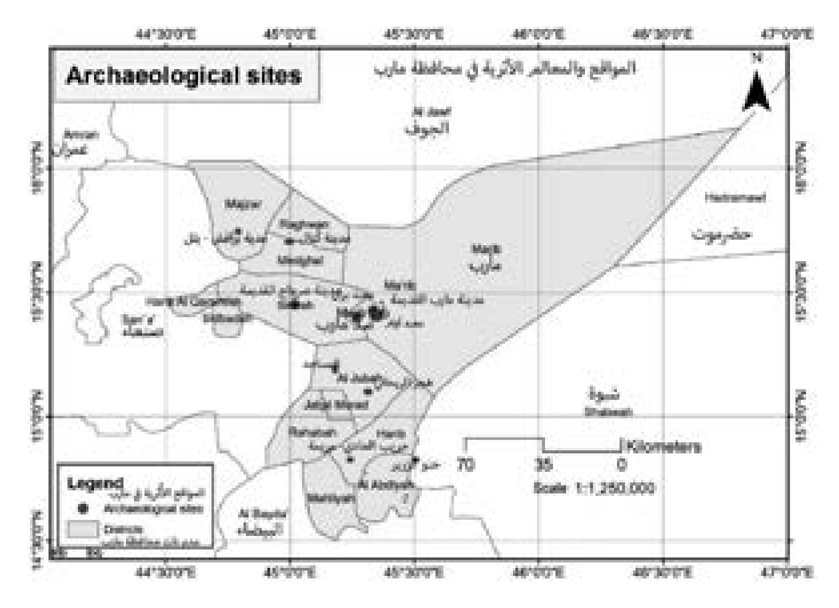
(1) بوركهارد فوكت، وآخرون، (2000)م: عرش بلقيس، معبد إلمقه برآن في مأرب، الجمهورية اليمنية – صنعاء – مطابع الكتاب المدرسي. ص 9.
(2) العريقي، منير عبد الجليل، (2002)م: الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم من 1500 ق. م إلى 600م، الطبعة الأولى، (جمهورية مصر العربية – القاهرة، مكتبة مدبولي). ص169.

ومما يؤكد ذلك الكتابات والنقوش القديمة التي تعود لفترات متفاوتة عُثر عليها بداخل المعبد (CIH 400 Ja 532 – Fa 53 – 54 – CIH314)[1].



لوحة - 8 معبد برآن

(1) Nebes، Norbert، (2005): Zur Chronologie der Inschriften aus dem Bar'an - Tempel، Archäologische Berichte aus dem Yemen، Deutsches Archäologisches Institu، Band X Şaňa، pp 112 - 115.



(خريطة: 2) المواقع والمعالم الأثرية في محافظة مأرب
أرشيف فريق إعداد مواقع مأرب تراث عالمي (اليونسكو) 2021.

وهناك العديد من المواقع الأثرية التي تقع خارج واحة مأرب، على سبيل المثال مدينة براقش (يثل) أحد أهم المدن اليمنية القديمة التابعة لمملكة معين، وتقع في الجهة الشمالية من محافظة مأرب، وبالتحديد فيما قبل التقاء وادي مجزر مع وادي الجوف، وتقع على تلٍّ ترابي، يعود تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد[1] وقد ازدهرت المدينة منذ القرن الأول قبل الميلاد واستمرت حتى القرن الأول

(1) ماركو لونغو، برونو (1999)م: أنظمة الري في براقش، في كتاب: اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة/ بدر الدين عرودكي، مراجعة/ يوسف محمد عبد الله، (باريس: معهد العالم العربي، دمشق: دار الأهالي) ص 78 - .؛ طعيمان، علي بن مبارك صالح، (2015)م: تقنية نظام الري القديم في سهل صرواح "دراسة ميدانية لمنشآت شرق معبد أوعال صرواح" مجلة اللقاء السنوي السادس عشر لجمعية دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية عبر العصور، المُنعقد في مملكة البحرين - المنامة 22 جمادى الآخر 1437هـ/ 24 أبريل 2015م، ص80.

الميلادي[1]. وهناك العديد من المواقع الأثرية التي تقع في واحة مأرب وخارجها في المديريات التابعة لمحافظة مأرب، التي اكتُشف بعض منها وبعضها مازال في باطن الأرض بانتظار الأجيال القادمة للكشف عنه (خريطة: 1 – 2).

الدور العلمي للمواقع والمعالم الأثرية في محافظة مأرب:

تمثل الآثار المعمارية أهم الشواهد الحضارية للعمارة القديمة التي قام ببنائها الإنسان القديم في محافظة مأرب، والمتمثلة في المواقع والمعالم الأثرية التي يعود بناء الأغلب منها إلى ما يقارب ثلاثة آلاف عام من الحاضر، وبهذا تصبح هذه المعالم بعمارتها القديمة التي حافظت على مواد بنائها وتماسكها وترابطها من أهم الدلائل المادية على جودة مواد بنائها وتقنيتها والفكر المعماري المتطور في اليمن القديم لدى الإنسان الذي أحسن اختيارها، وبلا شك فإن تلك المواد ستبقى مثالًا يُستفاد منها في الجانب المعماري من حيث تطوير المدن والعمارة بكل مخططاتها، وإعادة استخدام تلك المواد ذات الديمومة الأطول والمقاومة للبيئة بشكل أكبر في العمارة الحديثة.

وعلى سبيل المثال استخدام مادة الأحجار البازلتية في أساسات العمارة القديمة وإعادة استخدمها في العمارة الحديثة، لما يتسم به هذا النوع من الأحجار ذات القوة والصلابة، التي قادت الإنسان لاختيارها في أساسات العمارة، ويأتي ذلك نتاج تراكم الخبرات العملية في البناء بها بالأساسات المعمارية القديمة لما تتسم به تركيبتها الجيولوجية[2].

(1) de Maigret A.، (1991): The Excavation of the Temple of Nakrah at Baraqish (Yemen). P P 159.

(2) طعيمان، علي بن مبارك بن صالح، (2017)م: أهمية أحجار البازلت في بناء أساسات العمارة القديمة في جنوبي الجزيرة العربية، مداولات اللقاء العلمي السادس للجمعية السعودية للدراسات الأثرية 9 – 11 محرم – 10 – 12 أكتوبر 2016م. ص150.

ومن حيث تحقيق الأهمية العلمية ودورها في المجتمع يتم الاعتماد على الأبحاث العلمية والدوريات ذات الاختصاص بالجانب الأثري، والجغرافيا التاريخية وأبحاث تطوير العمارة، وهو ما سيهدف في الأخير إلى تكوين معرفة علمية ثقافية عن كل المعالم الأثرية بشكل حضاري متكامل[1].

الدور الاقتصادي للمواقع والمعالم الأثرية في محافظة مأرب:

تعد المواقع والمعالم الأُثرية أحد أهم روافد السياحة ومناطق الجذب السياحي، حيث تمثل السياحة الثقافية الكثير من بين اهتمام الزوار، وبهذا فإن عوامل الجذب السياحي تعتمد بشكل أساسي على تطوير هذا القطاع الثقافي الحيوي الهام[2]، كما يأتي دور المواقع الأثرية في عملية إعدادها كأحد الموارد الهامة في تطور اقتصاديات البلدان من خلال الارتباط الوثيق بين التراث والسياحة[3].

ويأتي دور الأهمية الاقتصادية في تطوير المواقع والمعالم الأثرية مثل: مدينة مأرب القديمة – معبد أوام – معبد برآن – معبد حرونم – سد مأرب القديم –

(1) Lipe، W.: (1984); Value and Meaning in Cultural Resource، Cambridge University Press، London، p. 6.

الهياجي، ياسر هاشم عماد: (2017)م: اتجاهات طلبة جامعة الملك سعود نحو الوعي بأهمية التراث، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية، المجلد السابع عشر/ العدد الثاني، ص 626 – 639.

(2) الشبار، جهاد عيسى، (2016)م: اقتصاديات السياحة في المملكة العربية السعودية ووسائل النهوض بها، سلسلة دراسات علمية محكمة – 36، من إصدارات الهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني، برنامج خادم الحرمين الشريفين للعناية بالتراث الحضاري في المملكة. ص 63 – 64.

(3) الهياجي، ياسر هاشم عماد: (2017)م: اتجاهات طلبة جامعة الملك سعود نحو الوعي بأهمية التراث. ص626 – 639.

مدينة صرواح القديمة، العادي - براقش - حنو الزرير - المساجد، والعديد من المعالم الأخرى في المحافظة مما سيسهم في زيادة أعداد السواح القادمين لهذه المعالم الأثرية العظيمة، التي تمثل شاهدًا بارزًا من شواهد حضارة ممالك اليمن السعيد قديمًا، مثل مراكز حضارة مملكة سبأ ومعين وقتبان. وعلى سبيل الحصول الموارد الاقتصادية فلابد من تزويد الخدمات اللازمة للإقامة والتسوق، وتوفير الخدمات البنكية والصحية، وتوفير وسائل الاتصالات الضرورية بحيث تصبح مؤهلة لتكون إحدى الوجهات السياحية المتكاملة لمحبي السياحة الثقافية من زوار الداخل بشكل خاص، وزوار الخارج بشكل عام[1]. وفي المقابل وقبل كل شيء لابد من إرساء دعائم الأمن والأمان في هذ هذه المعالم الأثرية وما حولها لضمان الجانب الاقتصادي القائم على السياحة.

الهوية العامة للمواقع والمعالم الأثرية في محافظة مأرب:

تمثل المعالم الأثرية في محافظة مأرب أحد أهم رموز الهوية الوطنية لدى الإنسان اليمني اليوم، حيث إن معالم سد مأرب القديم وأعمدة معبد أوام وبرآن أصبحت رمزًا وطنيًا حضاريًا وثقافيًا لدى اليمنيين، حيث نجدها قد طبعت معالمها على النقود، وعلى أغلفة البريد، وأغلفة كتب المدارس والمناهج العلمية، بحكم أنها تمثل هوية شعب ورمزية حضارته القديمة، كيف لا؟ ! وفيها سد مأرب الذي ذاع صيته وتناقلت أخباره بين العرب والأكثر رمزية بين العرب انتسابًا وتأصيلًا.

وعلى سبيل المثال لبعض دول العالم ومدنها هوية تتمثل في معالمها التراثية البارزة مثل جمهورية مصر العربية رمزها الاهرامات ودولة الصين الشعبية

(1) الشبار، جهاد عيسى، (2016)م: اقتصاديات السياحة ص 139 - 140.

ورمزها سور الصين العظيم وعلى سبيل المثال بالداخل اليمني حيث تمثل مدينة شبام مدينة الطين رمزية لشعب حضرموت وهكذا[1].

ومن هنا نجد أن الهوية الخاصة باليمنيين بشكل عام تمثل جزءا من مبدئه الديناميكي الذي يواصل به اليمني عملية ابداعاته واستلهامه منها الدالة على ماضيه، بل إن الآثار المتمثلة في ماضيه تمثل له الحصن المنيع الذي يحتمي به للمحافظة على شخصيته وهويته ومواقف نضاله وتاريخه[2].

ثانيًا: وسائل التوعية وأساليبها

تمثل التوعية حجر الزاوية في الحفاظ على المواقع والمعالم الأثرية بشكل عام، وبخاصة المدن الأثرية التي لحقت بها أضرار كبيرة من قلة الوعي لدى المجتمعات بأهمية الآثار والمعالم العمرانية القديمة حتى أصبح لدى عامة الناس تصور بأن هذه الآثار هي لأمم قد خلت، ولا تقع في نطاق ملكية خاصة اليوم، وبهذا تصبح عرضة لعملية الانهيار والاندثار واستخراج مواد بناء المواقع الأثرية لإعادة استخدامها في بناء المنشآت المعمارية الحديثة، وقد أثرت هذه الآفة الخطيرة في تدمير العديد من المواقع والمعالم الأثرية في محافظة مأرب والعديد من المحافظات المجاورة التي تزخر بالمعالم الأثرية التي تعود لحضارة الممالك اليمنية قبل الإسلام. ومن بين المواقع التي تعرضت لعملية الاندثار في محافظة مأرب مثل موقع معبد (المساجد) الذي يقع في جنوب مديرية الجوبة في منطقة (الخثلة – الفقراء) وغيره العديد من المواقع التي لم تعد معالمها الأثرية القديمة باقية حتى اليوم.

(1) للمزيد انظر: باوزير، محمد بن هاوي (2014م) دراسات في تاريخ حضرموت، الطبعة الأولى، دار الوفاق، عدن، ص 203.

(2) عبد الله، يوسف محمد، (1990)م: أوراق في تاريخ اليمن القديم وآثاره بحوث ومقالات ص 404 – 405.

ومن هذا المنطلق لابد من التعريف بوسائل وأساليب التوعية التي تحافظ على مثل هذه المواقع والمعالم الأثرية التي تمثل إرثا إنسانيا حضاريا قديما، يمثل جزءا من الهوية الوطنية وتعميقها لدى المجتمع، وفضلًا عن تنمية هذا التراث ليصبح أحد أهم الموارد الاقتصادية للدولة بشكل عام، حيث إن التراث من بين الثروات التي لا تنضب، وكل ما كانت المحافظة عليها بشكل أكثر وأفضل كلما أصبح بقاؤها لفترة أطول.

ومن بين أهم الوسائل والأساليب التي من الممكن أن تساعد في عملية الحفاظ على المواقع والمعالم الأثرية هي ما يلي[1]:

- تأسيس مجلس محلي أو جمعية علمية تضم العديد من المتخصصين في مجال الآثار، تهتم بمباشرة العناية ومراقبة ومتابعة المواقع الأثرية، ويتم تأسيس مجلس محلي للآثار في المحافظة أو جمعية علمية أو مركز بحثي خاص بالمواقع والمعالم الأثرية بجميع فتراتها، يدعم من صندوق مالي يتبع السلطة المحلية بالمحافظة وترصد له ميزانية سنوية.

- تكوين الآلية الصحيحة التي يبدأ عبرها في عمليات الترميم العلمي لتفادي أي انهيارات أو تشققات في المواقع والمعالم الأثرية، ويطبّق ذلك على جميع المواقع الأثرية التي تحتاج إلى تدخل عاجل. ومن الأفضل أن يتم الحفاظ على المعلم الأثري القديم للمنشآت المعمارية التي تحتاج إلى الترميم.

ومن بين أولويات التخطيط لمثل هذه الوسائل والأساليب في عملية التوعية من الممكن الاعتماد على نوعين منها، الأول: التدريب والتأهيل للموار

(1) الزهراني، عبدالناصر بن عبد الرحمن، (2012) م: إدارة التراث العمراني، دراسات آثارية (7)، سلسلة علمية محكمة تصدرها الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، الرياض، ص 144 - 145.

البشرية، التي لابد أن تقوم بعملية إحياء الآثار المعمارية من خلال العملية الإشراف والرقابة المباشرة، حيث تعمل على تدريب وتأهيل الكوادر المحلية عبر الدورات العلمية وورش العمل والنقاش والتطبيق العملي، وتهتم بشكل أولي بعملية الحفاظ على المواقع والمعالم الأثرية بصورة علمية مدروسة.

النوع الثاني: يتمثل في تفعيل الدور الإعلامي عبر وضع خطة إعلامية مصورة لجميع المواقع والمعالم الأثرية، والتعريف بالدور الحضاري والتاريخي والاجتماعي والاقتصادي لجميع المعالم والمدن الأثرية، مع إبراز القيم العلمية التي تتسم وتتميز بها تلك المواقع عن غيرها وما مدى تأصيلها[1].

ومن بين وسائل التوعية الهامة أيضًا المؤسسات التربوية والتعليمية، التي تُنشر عبرها ثقافة الوعي الأثري بين طلاب تلك المؤسسات، حيث تؤدي الجامعات دورًا مهمًا وحيويًا في الحفاظ على التراث من خلال طلاب الجامعة؛ حيث تساعدهم على معرفة المعالم الأثرية، وتسهم بشكل كبير في تعريف الطلاب بأهمية الآثار، كما تزرع فيهم كيفية التعامل معها والحفاظ عليها[2]. وعلى سبيل المثال أقسام الآثار في كليات الجامعات عليهم أن يرسوا قاعدة سنوية ينظمها قسم الآثار تحت اسم (أسبوع الوعي الأثري).

وقد شملت هذه الدراسة العديد من الإيضاحات حول أهمية وسائل وأساليب التوعية التي وضعها الباحث في الاستمارات التي وزعت على الفئات المستهدفة (المجتمع المحلي) في محافظة مأرب والمحافظات المجاورة أو من الساكنين في محافظة مأرب.

(1) المرجع السابق ص 145 – 146.

(2) الهياجي، ياسر هاشم عماد: (2017)م: اتجاهات طلبة جامعة الملك سعود نحو الوعي بأهمية التراث. ص 631.

ثالثًا: مسؤولية الوعي الأثري

- السلطة المركزية - الوزارات - الهيئات

السلطات المركزية كالوزارات والهيئات الجهة المركزية هي التي تشرف بشكل مباشر على الآثار في الجمهورية اليمنية من أقصاها إلى أقصاها، وبهذا فإنه قد صدر قرار جمهوري رقم (21) لسنة 1994م، بشأن الآثار، وتعديلاته رقم (8) في العام 1997م، ومن أهم مواده: الأولى هي التسمية حيث قضت بتسمية القانون (قانون الآثار)، وعلى الجهة المركزية التي يتبع لها، وهي وزارة الثقافة - الهيئة العامة للآثار والمتاحف[1]، وتعد هذه الجهات الحكومية هي الجهة المركزية التي تشرف على مكاتب فروع الآثار في المحافظات.

ومن بين المواد التي ضمها قانون الآثار هو ما ورد في المادة رقم (14) من القرار رقم (21) التي تقضي بأحقية السلطة الأثرية ممثلة بالهيئة العامة للآثار والمتاحف بإيقاف أو إزالة أي أعمال تعديات على الآثار، والاستعانة بالسلطة الأمنية، ولها الحق بإعادة ما أتلفه بنفسه أو القيام به على نفقته الخاصة[2].

ومن خلال قانون الآثار وتعديلاته على الدولة القيام بواجبتها ممثلة بوزارة الثقافة - الهيئة العامة للآثار والمتاحف والعمل على تطبيق القانون على أرض الميدان وعندما يكون هناك عدم معرفة وقلة وعي بالآثار تعقد الدورات وورش العمل والحوارات والمناقشات لمدراء العموم، وتعميم تنفيذ تلك الورش على الفروع العامة بما فيها مثلًا فرع الآثار في محافظة مأرب.

(1) قانون الآثار، (2006)م: الصادر عن الجمهورية اليمنية رقم (21) للعام 1994م، وتعديلاته رقم (8) للعام 1997م. ص2.

(2) قانون الآثار، 2006م: ص8.

وعلى من يقوم بتلك الدورات وما في حكمها أن يسلط الضوء على أهمية القيمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للآثار من أجل الوصول إلى زيادة الحفاظ عليها لتحسين قطاع الآثار وزيادة فرص العمل للتوظيف في قطاع الآثار من المتخصصين[1].

- السلطة المحلية - السلطة الأمنية - المنظمات الدولية

تمثل السلطة المحلية دور الإشراف المحلي المباشر على مكتب فرع الهيئة العامة للآثار والمتاحف، حيث يرتبط بالمركزية ومكتب تنفيذي في المحافظة، وتعد السلطة المحلية ممثلة بالمجلس المحلي بالمحافظة الذي يرأسه المحافظ، ومدير فرع الهيئة العام للآثار عضو المكتب التنفيذي في المحافظة المسؤولين الأولين عن تلك الجهات، كما أن هناك سلطات محلية في كل مديرية من مديريات المحافظات، ولمكتب الآثار فرع في المديرية التابعة للمحافظة، ويرجع مدير مكتب الآثار في المديرية لمدير عام مكتب هيئة الآثار في المحافظة، وتتحمل السلطات المحلية المهمة الإشرافية على المكتب، والرفع بكل ما يهم المكتب وتنفيذه بالتعاون ما بين السلطة المحلية والسلطة الأمنية في المحافظة متى ما دعت الحاجة لتنفيذ أية مهام حسب قانون الآثار أعلاه.

ويترتب على المكاتب التابعة لهيئة الآثار المهام الإدارية من حيث الحماية والترميم والصيانة، وتنفيذ الخطط الميدانية في كل موقع من المواقع الأثرية التي تقع في نطاق حدود المديرية؛ وفيما يتعلق بأهمية الوعي المحلي نجد أنه يقع على عاتق السلطة المحلية دعم المكتب المحلي فيها بالميزانية المعدة لها،

(1) الهياجي، ياسر هاشم عماد: (2017)م: اتجاهات طلبة جامعة الملك سعود نحو الوعي بأهمية التراث. ص 630.

من بينها أهمية الوعي المحلي، كون المواقع الأثرية تقع في حدود الأرياف، وهو ما يتطلب عملية دعم الوعي والإسهام فيه من جميع الجوانب للتثقيف بأهمية الآثار ودورها الاقتصادي والثقافي والاجتماعي لدى شريحة واسعة من المجتمع، وتنفيذ ما يتحقق من ذلك على الميدان لضمان أهمية الوعي لدى بقية شرائح المجتمع.

وبما أن حماية التراث من بين أولويات المنظمات الدولية مثل اليونسكو (منظمة التربية والعلم والثقافة)، حيث إن الجمهورية اليمنية من بين الدول التي وقعت مؤخرًا على اتفاقية اليونسكو 1972م، وهي الاتفاقية التي تعني مواد منها بحماية الآثار والمحافظة عليها، وتسجيل ما يحمل القيمة العالمية الاستثنائية تمهيدًا لتسجيلها بقائمة اليونسكو للتراث العالمي، والتي تشرف عليه لجنة تعرف بـ (لجنة التراث العالمي)، وتركز على عملية الحفظ والصيانة والرصد والدراسة والمراقبة للمواقع التي تحمل القيمة العالمية الاستثنائية(1).

كما يقتضي تفعيل دور المؤسسات والمنظمات الدولية التي لابد أن يكون لها دور في حماية التراث الثقافي كونه تراث يهم البشرية جميعا، منها على سبيل المثال المواثيق والاتفاقيات الدولية التي بدأ تفعيلها عالميًا منذ ظهور فكرة حماية التراث، مثل ميثاق أثينا عام 1931 - 1933م، وميثاق البندقية عام 1964م(2).

(1) مارشال، دنكان وآخرون، (2011)م: دليل موارد التراث العاملي، أعداد ترشيحات الإدراج في قائمة التراث العالمي، الطبعة الثانية، صادر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2011م. Preparing World Heritage Nominations (Second edition،:(20 ص 8 - 11.

(2) عليان، جمال (2005م) الحفاظ على التراث الثقافي، عالم المعرفة العدد (322) ديسمبر، الكويت، ص 57 - 98. باوزير، محمد بن هاوي، (2009م) إشكالية الحفاظ على التراث

- المجتمع المحلي - الملّاك - الجمعيات المحلية

يمثل المجتمع المحلي المحيط بالمواقع والمعالم الأثرية دورًا محوريًا في عملية الوعي الأثري؛ لكونه الشريحة الهامة القريبة بل الملتصقة به مباشرة، ويقع على عاتق المجتمع المحلي في محافظة مأرب الدور الكبير في عملية الحفاظ عليها؛ لكون المواقع والمعالم الأثرية دائمًا ما تقع في نطاق ملكية القبائل الموزعة على أغلب مديريات المحافظة التي تقع في نطاقها المعالم الأثرية، وبالتحديد الملّاك الذين تقع في نطاق أراضيهم الخاصة، إذ يتولون عملية التوعية بالمواقع من حيث منع التعدي عليها، سواء من أعمال الهدم والتدمير والطمس والحفر العشوائي الذي دائمًا ما يلحق ضررا كبيرًا بالمواقع الأثرية ويطمس طبقاتها الأثرية القديمة، مما يصعب دراستها من خلال التنقيب الميداني مُستقبلًا؛ مع مراعاة تطبيق ما ورد في قانون الآثار رقم (21) للعام 1994م، وتعديلاته للعام 1997م مادة رقم (15) (18)[1]، ومن هنا وجبت عملية دعم المجتمع المحلي والملاك المباشرين عبر تفعيلهم وإشراكهم في وضع الخطط المستقبلية لحماية وسلامة المواقع الأثرية.

وبهذا يكون إشراك المجتمع المحلي فيما يتعلق بالآثار أمرا في غاية الأهمية، وبخاصة في وضع خطة الإدارة على جميع المواقع والمعالم الأثرية، وفي المقابل لابد من عملية وضع للخطط والبرامج الداعمة للمحافظة عليه[2] بشكل مستمر، ويخضع للمراقبة من قبل مكاتب الآثار المعنية بالمديرية والمحافظة.

المعماري والعمراني وعلاقة المعماريين والأثريين والمؤرخين بعملية الحفاظ، بحث المشاركة في المشاركة في المؤتمر الهندسي الثاني (30 - 31 - مارس) كلية الهندسة - جامعة عدن، مطبعة جامعة عدن، الجزء الأول، ص 118 - 120.

(1) قانون الآثار، 2006م: ص 9 - 10.

(2) الزهراني، عبد الناصر بن عبد الرحمن، (2012)م: إدارة التراث العمراني، ص 141.

- مؤسسات التعليم - الجامعات - المعاهد - المدارس - مراكز العلمية والمتخصصة بالجانب التاريخي والأثري والثقافي بشكل عام

تمثل مؤسسات التعليم دورًا مهمًا في غرس التوعية لدى المجتمعات المحلية، حيث إنها المؤسسات التي يمر بها جميع أبناء المجتمع في تعليمهم الأساسي بالمدارس والتعليم العالي في الجامعات والمعاهد والكليات المهنية، ولعل أهم ما يترتب من مهام على أساتذة تلك المؤسسات التعليمية هي الوعي بأهمية الآثار وقيمتها من جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ودورها في عملية إيجاد فرص العمل، والتوعية فيما يتعلق بتعميق الهوية الوطنية لدى منتسبي تلك المؤسسات التعليمية، والاعتزاز بتأصيل مجتمعاتهم من خلال الآثار ذات الشواهد المادية الضاربة جذورها في عمق التاريخ. وقد يؤدي ذلك إلى رفع مسئولية المشاركة في مشاريع الحفاظ على الآثار[1]، على حسب الاختصاص.

يأتي تفعيل دور المؤسسات التعليمية عبر أوجه الشراكة والاتفاقيات ما بين مكاتب الآثار في المحافظة وبين مكاتب التربية والتعليم في المديريات على إعطاء دورات لأعضاء هيئة تدريس المؤسسات التعليمية في التعريف بالآثار؛ لتُعرض على الطلاب بالطريقة العلمية المنهجية الدقيقة، وكلما كان إيصال الفكرة لطلاب الفئة المستهدفة علميًّا كان أداء توصيل الوعي بشكل أفضل، وبالتالي يستفاد من الطلاب في خروجهم في الزيارات الميدانية للمواقع والمعالم الأثرية في المحافظة، والتعرف عليها عن قرب، ومرافقتهم في زيارة تلك المواقع من قبل المتخصصين من الآثاريين والمرشدين السياحيين لإيصال المعلومات الكافية والصحيحة عن المواقع والمعالم الأثرية التي يزورها الطلاب، وتكليفهم

(1) الهياجي، ياسر هاشم عماد: (2017م): اتجاهات طلبة جامعة الملك سعود نحو الوعي بأهمية التراث. ص 630.

بكتابة تقارير عن زيارتهم لتلك المواقع للتعرف عليها، وترسيخ أهميتها لدى شريحة الطلاب.

وفي العام 2016م صدر قرار جمهوري رقم (145) يقضي بتأسيس جامعة في مأرب باسم (جامعة إقليم سبأ) وهي الجامعة الحكومية التي قد سبقها تأسيس كلية في العام 2006م في المحافظة، وتضم الجامعة عددا من الكليات، ومنها كلية الآداب والعلوم الإنسانية وبها قسم الآثار والسياحة، وهذا ما سيدعم تفعيل دور المؤسسات التعليمية عبر الاستعانة بمنسوبي القسم من أعضاء هيئة تدريس وطلاب منتظمين وخريجين.

- **مؤسسات الاعلام**

يمثل الإعلام بجميع أنواعه وأقسامه المسموعة والمقروءة والمرئية، وبما في ذلك (Social media) (وسائل التواصل الاجتماعي) بجميع أنواعها أهم ما يمكن أن يوصِّل رسالة التوعية في المجتمعات الحالية، حيث أصبحت تعتمد في جميع تواصلها ومصادر أخبارها على مواقع التواصل الاجتماعي، وبهذا فيركّز على تفعيل دور المنصات الإعلامية في جميع وسائل التواصل، وذلك بأهمية الآثار والحفاظ عليها لما لها من قيمة اقتصادية وعملية وثقافية واجتماعية، فضلًا عن إيصال فكرة عن اللوائح والقوانين حيال من يقوم بعملية النهب أو الحفر العشوائي أو السرقة أو التدمير، وإظهار العقوبة الخاصة بمرتكب تلك الأعمال التي من شأنها المساس بالآثار، والتوعية الإعلامية عبر الإعلام المرئي أو المسموع أو المقروء، أو وسائل التواصل الاجتماعي ونحوها من الوسائل الإعلامية.

ومن الأفضل أن يكون دور تلك المنصات الإعلامية بالجانب الآخر لما يمثله التراث من عمق حضاري وإرث إنساني وثقافي يوثق تاريخ الحضارات

القديمة والاستفادة منها في بناء الحاضر سواء عبر الاستفادة من العمارة والفن ونحوها؛ ويُفعّل الدور الإعلامي على النحو الآتي:

1 - إبراز الأهمية التاريخية والثقافية للمواقع والمعالم الأثرية.

2 - نشر الوعي العام بين المواطنين للحفاظ على تراثهم.

3 - تفعيل دور ومشاركة أبناء المجتمع ومؤسساته المختلفة.

4 - التوعية بكيفية خطة إدارة المواقع والمعالم الأثرية وفق الطرق العلمية ذات المنهجية المتخصصة في هذا المجال[1].

- المهتمين والهواة ودور المجتمع المحلي في الحفاظ على الآثار

تضم المجتمعات الكثير من المهتمين والهواة بالماضي، ويدفعهم إلى ذلك حب التعرف على أسرار الحضارات القديمة من خلال الآثار والدلائل المادية والشواهد المعمارية، وبهذا تشكل هذه الفئة جزءا من المجتمعات التي سيكون لها دور في عملية التوعية بأهمية الآثار والتعرف عليها، وهو ما يهدف إلى الحفاظ عليها وصونها وإبرازها بالصورة الحضارية اللائقة بها تجاه المجتمعات بشكل عام، وهنا لابد من الاستفادة من هذه الفئة من حيث عملية الحفاظ على الآثار، مع مراعاة أن تخضع تدخلات هؤلاء المهتمين و الهواة لمواد ولوائح قانون الآثار بالجمهورية اليمنية.

منهجية الدراسة

مجتمع الدراسة:

تركز مجتمع الدراسة على عينة مختلفة من أبناء محافظة مأرب من جميع المديريات التابعة للمحافظة، فضلًا عن مشاركة نسبة من العينة من أبناء المحافظات المجاورة أو من الساكنين في محافظة مأرب، وقد شملت عينة

(1) الزهراني، عبد الناصر بن عبد الرحمن، (2012)م: إدارة التراث العمراني، ص 146.

الدراسة (255) فردًا، حيث وزّعت الاستبانات الإلكترونية عليهم بشكل عشوائي، وبعد حصر جميع الاستبانات تبين أن 35 استبانة غير صالحة، وتم معرفة تغيرات عينة الدراسة من خلال الانتماء لمحافظة مأرب – العمر – المؤهل العلمي – العمل (جدول: 1).

(جدول 1) يوضح نسب عينة الدراسة حسب الانتماء لمحافظة مأرب العمر - مستوى التعليم - العمل ومتغيراتها.

عينة الدراسة	مأرب		خارج مأرب			المجموع الكلي
الانتماء لمحافظة مأرب	٪70		٪30			٪100
العمر	من 20 – 30		30 – 60			
	٪55		٪45			٪100
مستوى التعليم	أساسي	ثانوي	بكالوريوس	ماجستير	دكتوراه	
	٪18	٪31	٪20	٪24	٪7	٪100
العمل	يعمل		لا يعمل			
	٪34		٪66			٪100

أداة الدراسة:

اتبعت الدراسة الأداة التي انتهجتها العديد من الدراسات التي تناولت قياسات توجه المجتمعات في مثل هذه المواضيع العامة، وقد حاول الباحث أن يعمل على تجميع البيانات بوساطة قياس الوعي الأثري في مجتمع محافظة مأرب من وجهة نظر أبنائها وأبناء المحافظات المجاورة والساكنين في المحافظة

من زمن طويل، حيث قُسّمت المحاور الرئيسة إلى قسمين **القسم الأول**: هو القسم الخاص بالمعلومات الأساسية (الأولية) التي تشمل الانتماء لمحافظة مأرب - العمر - المؤهل - العمل.

القسم الثاني: اعتمد الباحث في هذا القسم أسئلة التركيز على قياس دور المجتمع المحلي - عينة الدراسة - من حيث مدى معرفته واهتمامه بالمواقع والمعالم الأثرية، وتناول الأسئلة المفتوحة مثل: - هل تسكن بالقرب من موقع أو معالم أثرية؟ - ما دورك في الآثار؟ - ما هو اهتمامك بالمعالم والمواقع الأثرية؟ - ما هي المواقع الأثرية المهمة بالنسبة لك؟ (جدول: 2). وقد بينت النسبة الإحصائية أن النسبة الأعلى من العينة المستهدفة (المجتمع المحلي) من أبناء محافظة مأرب - والنسبة الأعلى منهم هم الساكنون بالقرب من المواقع الأثرية، وبالتالي سيكون لهم دور في توعية المجتمع بأهميتها، كما تبين أن دورهم كمهتمين جاءت بنسبة 99٪ من بين النسبة العامة لعينة الدراسة وهي أعلى نسبة، ويستخلص من ذلك قلة المتخصصين في الآثار، ودور المجتمع في اهتمامهم بالمواقع والمعالم الأثرية التي تمثل لهم الشيء الكثير في تعميق تاريخيتها وارتباطها بهويتهم الثقافية.

(جدول: 2) ارتباط قياسات مدى دور عينة الدراسة (المجتمع المحلي) في الآثار وقربه منها ومعرفته بها.

السؤال	نعم	لا	مسافة متوسطة
هل تسكن بالقرب من موقع أثري	٪72	٪23	٪5
ما هو دورك في الآثار	مهتم فقط	باحث آثار	أستاذ جامعي
	٪91	٪5	٪5

هل لديك اهتمام بالمواقع والمعالم الأثرية	مهتم	غير مهتم	لا تمثل بالنسبة لي شيء
	٪99	٪1	٪0
ما هي المواقع والمعالم الأثرية التي تشكل بالنسبة لك هوية وطنية	جميعها	الظاهر منها	الذي في باطن الأرض
	٪87	٪11	٪3

القسم الثالث: (قياس وسائل وأساليب التوعية بأهمية الآثار في محافظة مأرب)، والذي يهدف إلى معرفة التوصل لقياس أهمية الوسائل والأساليب التي يوصل عبرها إلى إدراك أهمية الوعي بالآثار في أوساط مجتمع محافظه مأرب، مع الأخذ بعين الاعتبار بمقاييس مستوى الوعي الأثري لدى الفئات المستهدفة التي شملتها الاستبانة التي تحتوي على 20 عبارة (جدول: 3).

(جدول: 3) يبين عبارات الاستبانة، وجميع النسب المئوية لكل فقرة وقياساتها وترتيب كل مقياس.

م	العبارة	موافق بشدة (1)	موافق (2)	محايد (3)	لا أوافق (4)	لا أوافق بشدة (5)	الترتيب
1	تعد وسائل الإعلام الحكومي من أهم طرق وأساليب التوعية بالآثار	90	75	24	18	13	1
		٪41	٪34	٪11	٪8	٪6	
2	تمثل وسائل التواصل الاجتماعي أهمية كبيرة في التوعية بالآثار	120	60	30	7	3	
		٪55	٪27	٪14	٪3	٪1	1

3	كان دور السلطات المحلية فعالا في سبيل التوعية والحفاظ على المواقع الأثرية	57	27	47	72	17	4
		٪26	٪12	٪21	٪33	٪8	
4	يتوجب على الشباب القيام بدورهم في توعية المجتمع المحلي	81	63	35	18	23	1
		٪37	٪29	٪16	٪8	٪10	
5	المحافظة على المواقع والمعالم الأثرية يُعزز مستقبلًا رسم الهوية الوطنية لدى المجتمع المحلي	67	95	12	38	8	2
		٪30	٪43	٪6	٪17	٪4	
6	زادت معرفتك بالآثار من خلال استخدامك لوسائل التواصل بالتحديد الواتس آب والفيس بوك	120	76	12	7	5	1
		٪55	٪35	٪5	٪3	٪2	
7	زادت في الفترة الأخيرة نسبة استخدام وسائل التواصل الاجتماعي في محافظة مأرب وقد تم تفعيلها كإحدى وسائل التوعية بأهمية الآثار من قبل السطات الحكومية	30	20	18	105	47	4
		٪14	٪9	٪8	٪48	٪21	

8	يقوم مكتب الآثار في المحافظة وفروعه في المديريات بواجباتها الإدارية والقانونية لحماية الآثار	18	14	38	89	61	4
		%8	%6	%17	%41	%28	
9	تمثل المجالس العامة بالمجتمع دورا فعالا في التوعية والحفاظ على المواقع والمعالم الأثرية بالمحافظة	12	18	37	61	92	5
		%5	%8	%17	%28	%42	
10	حافظ المجتمع المحلي المحيط بالمواقع الأثرية بنسبة كبيرة وفعالة في ظل غياب دور الدولة	73	81	28	16	22	2
		%33	%37	%13	%7	%10	
11	يوجد شغف كبير لدى المجتمعات المحلية في الكشف العلمي عن المواقع الأثرية في المحافظة	64	87	52	8	9	2
		%29	%39	%24	%4	%4	
12	يتم إشراك المجتمع المحلي من غير المتخصصين في المسح والتنقيب عن الآثار في المحافظة	23	15	17	107	58	4
		%10	%7	%8	%49	%26	

13	ستسهم موارد الآثار بعد فتح السياحة في زيادة الدخل القومي بالمحافظة والإقليم	112	83	7	12	6	1
		٪51	٪38	٪3	٪5	٪3	
14	زادت أعمال العبث بالمواقع والمعالم الأثرية بالمحافظة في ظل ظروف الحرب الراهنة التي تشهدها البلاد	40	36	84	36	24	3
		٪18	٪16	٪38	٪18	٪10	
15	في الوضع الراهن يتوجب على القبيلة التي يقع في نطاقها المواقع الأثرية مسئولية حماية وسلامة تلك المواقع	81	110	8	9	12	2
		٪37	٪50	٪4	٪4	٪5	
16	نسبة كبيرة من العوام يعتقد أن الآثار تعني له الكنوز المادية	67	115	8	11	19	2
		٪30	٪52	٪4	٪5	٪9	
17	لديك أمل كبير بعد الاستقرار الأمني بعودة العمل الأثري العلمي والكشف عن الآثار لتعميق التاريخ اليمني والسبئي بشكل خاص	121	76	7	4	12	1
		٪55	٪35	٪3	٪2	٪5	

18	زيادة عدد المتخصصين في الآثار بالمحافظة يؤدي إلى زيادة في الكشف الأثري ودراسة المواقع الأثرية وحمايتها	135	74	3	3	4	1
		٪62	٪34	٪1	٪1	٪2	
19	أسهمت البعثات الأثرية التي عملت في مأرب خلال العقدين الماضيين في الكشف عن الآثار وصيانتها وترميمها	34	25	15	91	55	4
		٪16	٪11	٪7	٪41	٪25	
20	العمل على إيداع القطع الأثرية المكتشفة في المواقع والمعالم الأثرية في محافظة مأرب بمتحف مأرب وتأهيليه مستقبلًا	117	55	9	30	9	1
		٪53	٪25	٪4	٪10	٪4	

المعالجة الإحصائية:

بعد تفريغ البيانات من الاستبانة تمت المعالجة الإحصائية على النحو الآتي، حيث تنقسم الإحصائية إلى خمس فقرات موافقة بشدة 1 – موافق 2 – محايد 3 – لا أوافق 4 – لا أوافق بشدة 5. (جدول: 3).

1 - فرز التكرارات.

2 - النسبة المئوية.

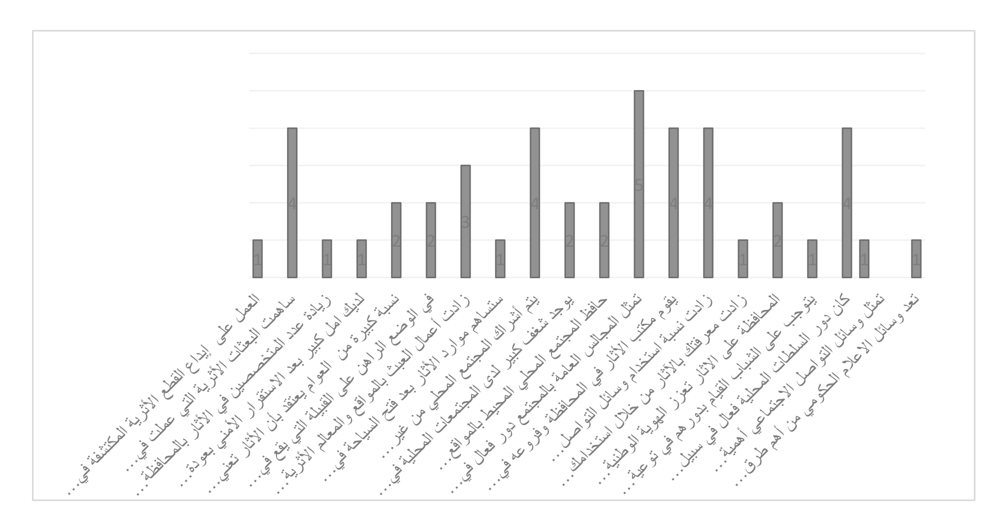
3 - الإحصائية.

المتوسط الحسابي.

5 - تحليل النسبة العامة لكل عبارة لإيضاح الفوارق بين اتجاهات عينة الدراسة (مجتمع محافظة مأرب).

يبين الجدول رقم (3) النسبة المئوية من جميع الإجابات على كل عبارة واستخراج الأعلى ترتيبًا من بين الإجابات، وبعد وضع المخطط البياني لجميع الإجابات تبين أن القياس المعياري - 1 هو الأكثر توافقًا مع مضمون كل عبارة التي تعني موافق بشدة على العبارة، وبقدر 8 عبارات، وكانت الأقل توافقًا في المقياس المعياري هي الخيار رقم 5 لا أوفق بشدة، الذي جاء في العبارة: (تمثل المجالس العامة بالمجتمع دورا فعالا في التوعية والحفاظ على المواقع والمعالم الأثرية بالمحافظة)؛ ويأتي بعدها الخيار رقم 3 بـ (محايد) بزيادة في عبارة واحدة وهي: (زادت أعمال العبث بالمواقع والمعالم الأثرية بالمحافظة في ظل ظروف الحرب الراهنة التي تشهدها البلاد)، أما الرقم 4 الذي يمثل موافق فقد جاء بخمس عبارات، كذلك هو الرقم المعياري 2 الذي جاء مرتفعًا بخمس عبارات (جدول: 4).

(جدول: 4) رسم بياني يوضح ترتيب ونسبة قياس كل عبارة



يتبين من الدراسة أن دور المجالس العامة هو الأقل تأثيرًا من حيث توعية الناس بالآثار وأهميتها والحفاظ عليها، كما يتبين أنها الأقل من حيث إجماع عينة الدراسة على أنه لم يُناقَش موضوع الآثار في المجالس العامة للمجتمع، كما تم الاتفاق على أن وسائل التواصل الاجتماعي قد زادت من عملية التعرف على الآثار بشكل كلي، ومعرفة أهميتها ودورها في زيادة الدخل القومي للبلاد، فضلًا أن زيادة عدد المتخصصين في الآثار من كل منطقة يكون لهم دور في حماية المواقع والمعالم الأثرية، علاوة على ذلك الاتفاق حول الأمل الكبير الذي يحدوهم بعد الاستقرار الأمني للبلاد في زيادة الكشوفات الأثرية.

كما جاء عدم الاتفاق على دور السلطات المحلية في أهمية الآثار والتوعية بها، فضلًا عن عدم التوافق في أن البعثات الأثرية التي عملت في مأرب لم تقم بإيداع القطع الأثرية بمتحف مأرب الإقليمي، والعمل على تأهيله.

النتائج:

شملت الدراسة قياس مدى الوعي الأثري بين مجتمع أبناء محافظة مأرب والمحافظات المجاورة ومن يسكنون في مأرب، حيث استهدفت عيّنات مختلفة من حيث العمر والانتماء لمحافظة مأرب والمؤهل، ومدى علاقة كل فرد بالمواقع والمعالم الأثرية من حيث موقعه الجغرافي والانتماء المجتمعي، وتمثلت تلك التوصيات في عدد من النقاط الأساسية الآتية:

1 – وضحت الدراسة أنه يتوجب بقوة تفعيل دور الإعلام الحكومي (الرسمي) في توعية المجتمعات بأهمية الآثار من خلال قنواته الرسمية (المرئية – المقروءة – المسموعة).

2 – وضحت الدراسة دور وسائل التواصل الاجتماعي في خدمة التوعية العامة بالآثار، حيث تبين ذلك من خلال أن الغالبية العظمى لم يعرف بالمواقع والمعالم الأثرية إلا من وسائل التواصل الاجتماعي وبخاصة (واتس أب وفيس بوك) حيث إنهما البرنامجان الأكثر استخدامًا في محافظة مأرب وما جاورها.

3 – توصلت الدراسة إلى أن المجتمع المحلي (القبيلة) التي تقع المواقع الأثرية في نطاقها الجغرافي قد أسهمت في حماية المواقع والمعالم الأثرية من منظور أنها ملكية خاصة لتلك القبائل. وحافظت عليها في الآونة الأخيرة.

4 – توصلت الدراسة إلى معرفة الشغف الكبير لدى المجتمع المحلي (عينة الدراسة) في معرفة الأهمية التاريخية والحضارية عن ماهية الآثار ومتى بُنيت؟ وكيف؟ ولماذا؟ وما وظيفتها؟

5 – توصلت الدراسة إلى أن المجتمع المحلي (عينة الدراسة) يرى أن الآثار تعد موردا هاما من موارد الدولة التي ستسهم في رفد اقتصاد البلاد أسوة ببعض الدول العربية والأجنبية.

6 – توصلت الدراسة إلى أن نسبة كبيرة من عامة المجتمع يرى أن الآثار ما هي إلا أماكن دفن الكنوز المادية للأمم السابقة، والبحث عنها من أجل المادة فقط.

7 – توصلت الدراسة بالإجماع على تأهيل المتحف الإقليمي في محافظة مأرب، لغرض إيداع القطع الأثرية المكتشفة في مواقع ومعالم مأرب وعرضها مستقبلًا على الزوار.

8 – توصلت الدراسة إلى أن نسبة كبيرة من عينة الدراسة (المجتمع المحلي) يرى أن البعثات الأثرية الأجنبية – المحلية قد أسهمت في كثير من أعمال الكشف الأثري والترميم والصيانة، وقد اكتسبت تلك المواقع أهميتها من أعمال تلك البعثات التي عملت في المواقع والمعالم الأثرية في محافظة مأرب.

التوصيات:

تبين من نتائج الدراسة والمعالجة الإحصائية الاتفاق في نسبة كبيرة من عبارات الدراسة والاختلاف في جزء منها، ومن خلال الفوارق والاتجاهات توصي الدراسة بالآتي:

- تفعيل الإعلام الرسمي الحكومي وغير الحكومي المرئي أو المسموع أو المقروء بجميع قنواته؛ لإيصال الفكرة العامة للناس بأهمية الآثار والمحافظة عليها وصيانتها وردع من يعبث بها وتطبيق الإجراءات القانونية عليه، من خلال قانون الآثار الصادر بعام 1994 – وتعديلاته للعام 1997م.

- تفعيل دور مكاتب الآثار المحلية من حيث المراقبة والصيانة والترميم والتسوير.
- تفعيل دور المجتمع المحلي المحيط بالمواقع والمعالم الأثرية من حيث الحراسة والعمل الإداري مع البعثات وإشراكه في وضع خطط العمل الإداري.
- قيام السلطات الأمنية والمحلية بالحد من أعمال العبث العشوائي بالمواقع والمعالم الأثرية ومعاقبة من يتعدى عليها بشكل مباشر أو غير مباشر، وتطبيق وسائل الحماية للحد من الزحف العمراني والزراعي.
- عقد دورات وورش عمل عبر مكاتب الآثار والتعاون مع المكاتب الأخرى ذات العلاقة مثل الإعلام - التجارة - الأوقاف - الأشغال. . . إلخ. في سبيل توعية المجتمع المحلي وإبعاد فكرة وهوس كنوز الآثار وما يتعلق بها لدى عامة المجتمع.
- إدراج المواقع والمعالم الأثرية من ضمن الخريطة العامة لمخططات المدن الرئيسة، وإسقاطها بأرقام خاصة، وترك مسافات شاسعة كحماية عامة لكل موقع.
- يتوجب على الجهات المعنية القيام بأعمال المسح الأثري وتوثيقه وأرشفته بأرقام وإحداثيات وتسميات كخطوة أساسية لأي عملية حفاظيه، والشروع في عملية الصيانة والترميم، ليبقى هذا التراث شاهدًا حتى إن تعرض للطمس أو التخريب أو الهدم بالكامل.
- تفعيل ذلك بالشروع في عمل موسوعة أو مدونة أو كتاب يضم جميع المعالم الأثرية في محافظة مأرب، ويضاف إليها الخرائط والصور والأشكال والمخططات مزودة بالشروحات.

المصادر والمراجع العربية والأجنبية:

أولاً المصادر والمراجع العربية:

- باوزير، محمد بن هاوي، 2004م: دراسات في تاريخ حضرموت، الطبعة الأولى، دار الوفاق، عدن.
- باوزير، محمد بن هاوي، 2009م: إشكالية الحفاظ على التراث المعماري والعمراني وعلاقة المعماريين والأثريين والمؤرخين بعملية الحفاظ، بحث المشاركة في المشاركة في المؤتمر الهندسي الثاني (30 - 31 - مارس) كلية الهندسة - جامعة عدن، مطبعة جامعة عدن، الجزء الأول، ص118 - 120.
- برونر، أولي، 1999م: بدايات الري، في كتاب: اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة/ بدر الدين عرودكي، مراجعة/ يوسف محمد عبد الله، (باريس: معهد العالم العربي، دمشق: دار الأهالي) ص53 - 54.
- بوركهارد فوكت، وآخرون، 2000م: عرش بلقيس، معبد إلمقه برآن في مأرب، الجمهورية اليمنية - صنعاء - مطابع الكتاب المدرسي.
- دي ميغرية، اليساندرو 1999: يثل في كتاب: اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة/ بدر الدين عرودكي، مراجعة/ يوسف محمد عبدالله، (باريس: معهد العالم العربي، دمشق: دار الأهالي)، ص138 - 139.
- الزهراني، عبدالناصر بن عبدالرحمن، 2012م: إدارة التراث العمراني، دراسات آثارية (7)، سلسلة علمية محكمة تصدرها الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، الرياض.
- الشبار، جهاد عيسى، 2016م: اقتصاديات السياحة في المملكة العربية السعودية ووسائل النهوض بها، سلسلة دراسات علمية محكمة - 36، من إصدارات الهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني، برنامج خادم الحرمين الشريفين للعناية بالتراث الحضاري في المملكة.
- طعيمان، علي بن مبارك صالح، 2015م: تقنية نظام الري القديم في سهل صرواح "دراسة ميدانية لمنشآت شرق معبد أوعال صرواح"، مجلة اللقاء السنوي السادس

عشر لجمعية دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية عبر العصور، المُنعقد في مملكة البحرين - المنامة 22 جماد الأخر 1437هـ/ 24 أبريل 2015م، ص69 - 100.

- طعيمان، علي بن مبارك بن صالح، 2017م أ: سد مأرب القديم: دراسة حالة، سلسلة مداولات علمية محكمة للقاء العلمي السنوي لجمعية دول مجلس التعاون الخليجي عبر العصور - 17. المنعقد في مملكة البحرين - المنامة في 28 رجب في 1437هـ - 27 أبريل - 2016م، ص47 - 72.
- طعيمان، علي بن مبارك بن صالح، 2017م، أهمية أحجار البازلت في بناء أساسات العمارة القديمة في جنوبي الجزيرة العربية، مداولات اللقاء العلمي السادس للجمعية السعودية للدراسات الأثرية 9 - 11 محرم - 10 - 12 أكتوبر 2016م. ص139 - 160.
- عبد الله، يوسف محمد، 1990م: أوراق في تاريخ اليمن القديم وآثاره بحوث ومقالات، الطبعة الثانية، (لبنان: بيروت، دار الفكر).
- العريقي، منير عبد الجليل، 2002م: الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم من 1500 ق. م إلى 600م، الطبعة الأولى، (جمهورية مصر العربية - القاهرة، مكتبة مدبولي).
- عليان، جمال، 2005م: الحفاظ على التراث الثقافي، عالم المعرفة العدد (322) ديسمبر، الكويت، ص57 - 98.
- فخري، أحمد، 1988م: رحلة أثرية إلى اليمن، ترجمة/ هنري رياض، مراجعة/ عبدالحليم نور الدين، الطبعة الأولى، (الجمهورية العربية اليمنية: وزارة الإعلام والثقافة).
- فوكت، بوركهاد، 1999م: مأرب عاصمة سبأ، في كتاب: اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة/ بدر الدين عرودكي، مراجعة/ يوسف محمد عبد الله، (باريس: معهد العالم العربي، دمشق: دار الأهالي) 107 - 109.
- فوكت، بوركهاد؛ غلازيمان، وليام، 1999م: معابد مأرب، في كتاب: اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة/ بدر الدين عرودكي، مراجعة/ يوسف محمد عبد الله، (باريس: معهد العالم العربي، دمشق: دار الأهالي) 130 - 149.

- مارشال، دنكان وآخرون، 2011م: دليل موارد التراث العاملي، أعداد ترشيحات الإدراج في قائمة التراث العالمي، الطبعة الثانية، صادر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2011م.
- ماركو لونغو، برونو، 1999م: أنظمة الري في براقش، في كتاب: اليمن في بلاد ملكة سبأ، ترجمة/ بدر الدين عرودكي، مراجعة/ يوسف محمد عبد الله، (باريس: معهد العالم العربي، دمشق: دار الأهالي) 78 – 78.
- مرقطن، محمد حسين، 2008م: العاصمة السبئية مأرب: دراسة في تاريخها وبُنيتها الإدارية والاجتماعية في ضوء النقوش السبئية، في كتاب المدينة في الوطن العربي في ضوء الاكتشافات الآثارية: النشأة والتطور، الطبعة الأولى، مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيري، ص108 – 109.
- الهياجي، ياسر هاشم عماد: 2017م: اتجاهات طلبة جامعة الملك سعود نحو الوعي بأهمية التراث، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية، المجلد السابع عشر/ العدد الثاني، ص626 – 639.

المصادر والمراجع الأجنبية:

1. Brunner, U. 1983: Die Erforschung der antiken Oase von Mârib mit Hilfe geomorphologischer Untersuchungs methoden, ABADY II.
2. de Maigret A., 1991: The Excavation of the Temple of Nakrah at Baraqish (Yemen).
3. Lipe, W. 1984: Value and Meaning in Cultural Resource, Cambridge University Press, London, 1. 22
4. Maraqten, Mohammed, 2015: Sacred spaces in ancient Yemen - The Awām Temple, Mảrib, Pre - Islamic South Arabia and its neighbours: new developments of research, Proceedings of the 17th Rencontres Sabéennes held in Paris, 6 - 8 June 2013. pp 107 - 133.
5. Nebes, Norbert, 2005: Zur Chronologie der Inschriften aus dem Bar'an - Tempel, Archäologische Berichte aus dem Yemen, Deutsches Archäologisches Institu, Band X Ṣaña, pp 111 - 125.

6. Pietsch, D., Kühn, P., Scholten, T., Brunner, U., Hitgen, H., & Gerlach, I. (2010). Holocene soils and sediments around Ma'rib Oasis, Yemen: Further Sabaean treasures? . The Holocene, 20 (5), 785 - 799.

7. Pietsch, D., Schenk, K., Japp, S., & Schnelle, M. (2013). Standardised recording of sediments in the excavation of the Sabaean town of Sirwah, Yemen. Journal of archaeological science, 40 (5), 2430 - 2445.

قائمة الرموز والاختصارات:

م	المعنى	الرمز
1	Corpus Inscriptions Semiticarum pars Quarta، Inscriptions. Himyariticas et Sabaeas Countinens. كوربوس: مدونة النقوش السامية الأجزاء 1 – 2 – 3 – 4 عنيت بنشر النقوش الحميرية والسبئية.	CIH
2	مجموعة نقوش أحمد فخري.	Fa
3	مجموعة نقوش إدوارد جلازر.	GL
4	مجموعة إلبرت جام.	Ja
5	Repértoire d'épigraphie sémitique، publie par la commission du Corpus inscriptionum semiticarum، Tom، V، **VI**، VII، VIII. مدونة النقوش السامية، نشرت بواسطة الأكاديمية الفرنسية للنقوش والفنون اليمنية.	RES
6	المعهد الألماني للآثار	DAI
7	مجلد	ABADY
8	نقوش البعثة الامريكية في معبد أوام	MB

* يتقدم الباحث بجزيل الشكر والتقدير للسلطة المحلية بمحافظة مأرب لما قدموه من تسهيلات في أثناء جمع المادة العلمية، وكذلك لسفارة بلدنا ومندوبيتها في اليونسكو ممثلة بالسفير د. محمد جميح.

* جميع الصور والخرائط مأخوذة من أرشيف فريق إعداد ملف مأرب في قائمة التراث العالمي، الذي يعمل الباحث رئيسًا للفريق، تاريخ العمل الميداني يوليو – 2021م.